بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم التاريخ

بنو جَهِيْر ودورهم في الخلافة العباسية

(٤٥٤-٥٤١هـ/١٠٦٣-١١٤٦م)

إعداد

فاطمة يحيى زكريا الربيدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بكلية الآداب في جامعة اليرموك

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد عيس صالحية

١٩٩٨م

بنو جَهِيْر ودورهم في الخلافة العباسية

(٤٥٤-٥٤١هـ/١٠٦٢-١١٤٦م)

إعـــداد

فاطمة يحيى زكريا الربيدي

بكالوريوس تاريخ - جامعة اليرموك - ١٩٩٥م.

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بكلية الآداب في جامعة اليرموك.

أعضاء لجنة المناقشة:

- الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحيـــة .... مشرفاً ورئيساً
- الأستاذ الدكتور محمد ضيف الله بطاينة .... عضواً
- الأستـــاذ الدكتــور فالـــح حسيــــــن .... عضواً

الإهداء

إلى القلوب الحانية التي رعتني بالحب والعطاء والتضحية والديَّ الكريمين فخراً واعتزازاً ...

إلى من ألهمني حب العلم وعلّمني قيمته وغرس في نفسي روح الطموح والمثابرة والأمل والدي وأستاذي الدكتور محمد عيسى صالحية أطال الله في عمره ...

إلى الذي دعمني وساندني عند الملمات قرة عيني أخي الغالي زكريا عرفاناً بالجميل ...

شكر وتقدير

إعترافاً مني بالفضل والعرفان لا يسعني إلاّ أن أتقدم بجزيل الشكر ووافر التقدير والامتنان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية، الذي أكرمني بقبول إشرافه على دراستي وشملني بعلمه وعطفه ورعايته وعنايته فكان مثالاً للعالم المتواضع والأب الحاني، وكان لي الحافز الأكبر في مواصلة البحث، فأعطاني من وقته الثمين الكثير، وأمدني بعلمه ونصحه وإرشاده، وشرع لي أبواب مكتبته الخاصة فنهلت من علومها الثرة فأسأل الله أن يديمه ويزده في علمه.

وأقدم شكري إلى كلٍّ من ساندني وأعانني طيلة فترة الدراسة إخوتي الأعزاء وأخص منهم خالد، ولا أنسى ما قدّمه لي الأخ الدكتور عصام عقلة الهزايمة من مساعدة وإرشاد فكان الملاذ لي عن وقوعي في الحيرة وأمدني من علمه ما سهلّ عليَّ مهمة البحث فجزاه الله خير الجزاء.

وإلى الزميلات أديل وهيبي، أنعام خطاطبة، إيمان غزاوي وعلية زغول خالص التقدير والاحترام.

الرموز والمختصرات

أ.	وجه الورقة.
ب.	ظهر الورقة.
ت.	تاريخ الوفاة.
ج.	جزء.
خط.	مخطوط.
دت.	دون تاريخ نشر.
دم.	دون مكان نشر.
دن.	دون ناشر.
ص.	صفحة.
ط.	طبعة.
ع.	عدد.
ق.	قسم.
م.	ميلادي.
مج.	مجلد.
هـ.	هجري.

المحتوى

المحتوى

المحتوى

المقدمة

تعد دراسة الخلافة العباسية في ظلّ نفوذ السيطرة السلجوقية مرحلة مهمة في استكمال حلقة من سلسلة حلقات البحث في الحقب التاريخية المتعاقبة وقد شهدت بغداد في هذه الحقبة تطورات وأحداث أثرت على أوضاع الخلافة الداخلية منها والخارجية.

وقد حظي العصر السلجوقي باهتمام الباحثين وعنايتهم، فانكبوا على دراسته في محاولة للكشف عن التغيرات التي طرأت على مؤسسة الخلافة العباسية منذ الوهلة الأولى لدخول السلاجقة بغداد، ولكنّ هذا البحث والاهتمام كان مَركز على الجانب السياسي بالدرجة الأولى لا سيما فيما يختص ببحث العلاقات التي ربطت بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، على اعتبار أنّ الخليفة والسلطان هما صانعي القرارات ومن أكثر المؤثرين في سير ومجريات الأحداث -كما تصورهم لنا المصادر التاريخية- ولذا بقيت عناصر أخرى عديدة يكتنفها الغموض والإبهام بحيث لم تحضَ من الاهتمام والبحث سوى النزر اليسير من جهود باحثينا.

وبنو جَهِيْر من العناصر الفعّالة التي ترك أفرادها بصماتهم في أحداث ذلك العصر، وهم من الأسر ذات الكفاءة السياسية والإدارية التي تولّت وزارة الخلافة في أثناء فترة النفوذ السلجوقي، وإزاء الاغفال الكبير لدور أسرة بني جَهِيْر، وعدم التطرق بجدية لدراستها دراسة وافية من قبل الباحثين، ونظراً لندرة الأبحاث العلمية المتخصصة التي كان من الممكن أن تعطينا صورة شاملة وواضحة فيما -يختص بأسرة بني جَهِير، جاء اختياري لموضوع هذا البحث في محاولة لكشف الغموض والإبهام الذي يكتنف معالم شخصيات أفراد هذه الأسرة من ناحية، وإلقاء الضوء على الأوضاع السياسية من خلال مؤسسة الوزارة من ناحية أخرى.

وظهرت أهمية الجَهِيْريين -بشكل واضح- عند وصولهم إلى بغداد سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) وتسلُّم فخر الدولة "محمد بن محمد بن جهير" وزارة الخليفة القائم بأمر الله، وبقيت هذه الأهمية تزيد بتعاقب بنيه من بعده في إشغال منصب الوزارة العباسية الواحد منهم

تلو الآخر حتى سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) عندما عزل الخليفة المقتفي لأمر الله وزيره المظفَّر بن الحسين بن علي بن جهير عن وزارته في العام المذكور.

وفخر الدولة "محمد بن محمد بن جَهِيْر" كان متمرس في الشؤون الإدارية وله باعٌ طويلٌ في خدمة قوى سياسية مهمة في ذلك الوقت، وهذا ما تعرضت له في الفصل الأول من الدراسة إذ كان الاهتمام منصبٌ في بداية الأمر على معرفة أصول ونسب الجهيريين ثم تتبع مراحل حياتهم الإدارية والمناصب التي شغلوها قبل وصولهم إلى الوزارة العباسية.

وقد احتل بنو جهير مكانة خاصة بين وزراء الخلافة العباسية في العصر السلجوقي وكان هذا جلُّ اهتمامي في الفصل الثاني، فحاولت إعطاء نظرة مجملة في بداية الفصل عن التدخل السلجوقي في مؤسسة الوزارة العباسية من خلال وزراء بني جَهِيْر، ثم تابعتُ الحديث عن الوزراء من بني جهير كل واحدٍ على حدة مع الوقوف على الأسباب التي حملت الخلفاء على استخدامهم ثم عزلهم وانفصالهم مرات عدة، والنتائج المترتبة على عزلهم، ولعل في دراسة الألقاب التي لُقب بها بني جهير ونوع الوزارة التي تقلدوها أثناء وزارتهم للعباسيين ما ينُم عن شهرة الوزراء واتساع صلاحياتهم.

وبنو جَهِيْر وزراء الخلفاء هم أيضاً قادة جيوش سلاطين السلاجقة وولاتهم على بلاد الجزيرة الفراتية وهذا ما خصصت الفصل الثالث للحديث فيه، فتناولت الجغرافية التاريخية لبلاد الجزيرة الفراتية مع دراسة الأوضاع السياسية التي سادت اقليم ديار بكر والتحالف الذي جمع بين الجهيريين والسلاجقة، وتحدثت عن انضواء بني جهير تحت الراية السلجوقية بعد انفصالهم عن خدمة العباسيين- وتأميرهم قيادة الجيوش السلجوقية وانتدابهم لفتح أقاليم الجزيرة الفراتية وضمها لأملاك السلاجقة، وتتبعتُ خط سير حملاتهم العسكرية وانتصاراتهم المتتالية ومن ثم توليهم إدارة المناطق التي أخضعوها للحكم السلجوقي مكافأة لهم على جهودهم المبذولة، مع الكشف عن سياستهم الإدارية والمالية والتي كانت سبباً في نهاية ولايتهم عن تلك البلاد.

وكان لفخر الدولة وبنيه أثرٌ في تحديد نوعية العلاقة التي ربطت بين الخلافة والسلطنة وهذا كان محور الحديث في الفصل الرابع، حيث عرضتُ فيه طبيعة العلاقات العباسية- السلجوقية مع التركيز على دور بني جهير وأثرهم وتأثيرهم في هذه العلاقة، ثم واصلتُ الحديث عن جهودهم المبذولة في استقطاب أمراء الأطراف ومراسلتهم بطاعة الخلافة وعلاقتهم بملوك وأمراء الدولة المجاورة للخلافة مثل: الروم وأمراء المغرب، وكان لابد من إبراز دورهم في التقدم الحضاري للخلافة العباسية في نواحي عديدة منها الاجتماعية والعلمية وغيرها.

وأخيراً فقد بذلتُ ما بوسعي في سبيل إعطاء بني جهير حقهم من البحث والدراسة، والوقوف على جميع ما يختص بهم من أحداث سياسية وإدارية وسخّرت ما جمعتُ من مادة علمية في إثراء معلومات هذا البحث لعلي أوفق في إضافة جديد للمكتبة العربية.

دراسة تحليلية لأهم مصادر البحث

تعددت المصنفات العلمية وتنوعت عبر مراحل وفترات التاريخ الإسلامي، وقد حظي تاريخ الدولة العباسية في ظلّ النفوذ السلجوقي بالعديد من هذه المصنفات لا سيّما التاريخية منها سواء تلك التي تناولت العصر من خلال البحث والتركيز على أخبار الدولة السلجوقية، أو تلك التي ركزت في مجال بحثها على أحوال الخلافة العباسية، أو التي جمعت بين هذين الاتجاهين.

وترجع أهمية المصادر -التي امكن الاطِّلاع عليها- إلى أن واضعيها كانوا من المعاصرين لأحداث فترة البحث (٤٥٤-٥٤١هـ/١٠٦٢-١١٤٦م)، وعلى الرغم من هذه الاهمية إلاّ أن بعضها لم يصل إلينا، واعتبر من الكتب المفقودة، ومن الجدير بالذكر أنّ بعضا من المؤرخين بعدهم أوردوا نتفاً وشذرات من تلك المؤلفات جاءت في ثنايا بعض المصادر، ومثاله ما حفظه لنا المؤرخ سبط ابن الجوزي في مصنفه مرآة الزمان في تاريخ الأعيان من تاريخ الصابيء، غرس النعمة محمد بن هلال (ت ٤٨٠هـ/١٠٨٧م) والموسوم بـ (عيون التواريخ)[1]، وهو غير ما وضعه ابن شاكر الكتبي بعده بقرنين، وما حفظه لنا أيضاً الأصفهاني في خريدة القصر وجريدة أهل العصر من نقولات عن مؤرخٍ عاصر أحداث الدراسة، وهو محمد بن عبد الملك بن الهمذاني مؤلف كتاب عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر (ت٥٢١هـ/١٠٢٧م) [2].

---

[1]. سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة، عني بنشره وقابله بأصوله وعلّق عليه علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية أنقرة، ١٩٦٨، ص١، ٥٩، ٦٧، ٨١، ٨٤، ٩٣، ٢٢٠، وسيشار إليه، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ).

[2]. الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، القسم العراقي، تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥م، ص٨٥، ٩١، ٩٤، ١٢٨، ١٤٠، وسيشار إليه، الأصفهاني، الخريدة.

ونظراً لتنوع مصادر البحث ومراجعه وتعددها، فإني سأقصر الحديث على ذكر أهمها والذي اعتمدت عليه الدراسة بشكلٍ أساسي، ولا يعني ذلك إغفال مؤلفات أخرى اتكأ عليها البحث لتفردها ببعض الأخبار التي ساعدت في إثرائه علمياً، ومن أهم هذه المصادر:

- رسائل أمين الدولة العلاء ابن الموصلايا (ت٤٩٧هـ/١١٠٤م)

ومنشيء الرسائل هو ابن الموصلايا أحد الذين تقلدوا العديد من المناصب السياسية والإدارية الهامة في الدولة العباسية مثل: رئاسة ديوان الإنشاء، ونيابة الوزارة، وكان ذلك معاصراً عندما استوزر العباسيون بني جَهِيْر، بل أنّ أمين الدولة كان من القريبين للوزير عميد الدولة بن جهير.

وترجع أهمية هذا المصدر إلى كونه وثائق ونصوص إنشائية كانت تصدر على شكل رسائل ديوانية رسمية من ديوان الخلافة العباسية، وبقيت تلك الرسائل مجهولة للعديد من الباحثين إلى أن عمل الباحث عصام مصطفى عقلة على تحقيق الجزء الثاني منها والذي توافرت منه نسخة في مكتبة جامعة اليرموك، مصورة من دار الكتب الوطنية بتونس، وقد أبدى خلال عمله في التحقيق جهوداً ودقة ليخرج بدراسة، مهمة حول هذه الرسائل وأهميتها ملقياً الضوء من خلالها على أحوال الدولة العباسية المختلفة، وتعدُّ الرسائل من المصادر الرئيسية النادرة التي تفردّت بمعلوماتٍ هامة، خاصة فيما يتعلق بوزراء بني جهير، إذ أنها حوت في طياتها على نصوص العزل والتولية والثناء، وغير ذلك مما يخص أفراد الاسرة الجَهِيْرِيّة، وورد من ضمنها ثلاث رسائل خرجت بإشارة صريحة في حقّ فخر الدولة وولده العميد، وأربعة أخرى ورد في متنها ما يُرجَّح بأنها تخصهما، ومع أنني لم أتمكن من الاطلاع على النص المحقق إلاّ في وقت متأخر إلاّ أنني حاولت الإفادة منه قدر المستطاع.

- **الإنباء في تاريخ الخلفاء لمؤلفه محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م):**

وهو كتاب أرّخ فيه مؤلفه للأحداث التاريخية التي امتدت من البعثة النبوية إلى أول خلافة المستنجد بالله (٥٦٠هـ/١١٦٤م)، وتميّز هذا المصدر عن غيره من المصادر بذكر حوادث وأخبار لم نجدها في مؤلفات أخرى، وهذا أعطاه خصوصية فكان لابد من التدقيق والتمحيص في مدى مصداقية صحة الأخبار الواردة فيه.

وعلى الرغم من أنه من أقدم المصادر التاريخية وأقربها اتصالاً بالأحداث الخاصة بفترة البحث إلا أنه يلاحظ عليه عدم الدقة والارتباك في إيراده لبعض الحوادث مثل إشارته إلى أن الخليفة المقتدي بأمر الله باعتباره أول من استقدم فخر الدولة بن جهير من ديار المروانيين واستوزره، دون الإشارة إلى وزارة فخر الدولة للخليفة القائم بأمر الله قبل ذلك بحين، ومغفلاً للدور الكبير الذي قام به أفراد أسرة بني جهير في خدمة الخلافة العباسية، زمن الخليفة القائم بأمر الله.

ومن الواضح أن ابن العمراني كان متحيزاً ضد بني جهير فقد عرض لهم بصفات تقلل من شأنهم وتشوه صورتهم ومثال ذلك : إغراقه في تصوير الحياة المترفة التي كان ينعم بها فخر الدولة بن جهير دون حساب أو مراقبة، ثم تأكيده على أن فخر الدولة لم يكن صاحب فضل أو كفاية أو دراية بشؤون الحكم والسياسة، وإنما وصل إلى الوزارة العباسية لكثرة ما أغدق من أموال في سبيل الوصول إلى غايته، كما يصور لنا نزعة التكبر الواضحة عند عميد الدولة بن جهير وينسب إليه دائماً أن وزارته للخلفاء العباسيين ما كانت لولا شفاعة نظام الملك السلجوقي له متناسياً ما كان يتمتع به عميد الدولة من صفات الفطنة والذكاء السياسي الذي حمل الخلفاء على استخدامه في خدمتهم. فكان لابد من التوقف عند مثل هذه الروايات لمعرفة صحيحها من غيره والتثبت منها.

- تاريخ الفارقي أو الدولة المروانية، لمؤلفه أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي (ت ٥٨٠هـ/١١٨٤م):

نشأ الفارقي في عائلة كريمة ومن بيت معروف بالفضل، وكان لأسرته منزلة ومكانة كبيرة في بلاد ديار بكر، كما أنه تولى بعض المناصب الإدارية المهمة في عصره مثل منصب الإشراف على الأوقاف في ميافارقين، ومن ثم نظارة حصن كيفا.

وتاريخ الدولة المروانية من التواريخ المحلية الخاصة بتاريخ مدينة ميافارقين، ومع هذا فإنه اتسم بالشمولية، وحوى سير الخلفاء والأمراء والوزراء والسلاطين والعلماء وغيرهم، كما أرّخ للدول والإمارات التي قامت في بلاد الشام والعراق والجزيرة الفراتية والتي تعاقبت على حكم تلك المناطق مع التركيز على مدينة ميافارقين عبر فترات التاريخ.

وقد استفاد البحث من هذا المصنف في دراسة فترة وزارة فخر الدولة بن جهير لدى حكام الأسرة المروانية، قبل خروجه إلى بغداد ووزارته للعباسيين هناك، ولكنه بسبب منهجه في الكتابة وقف عن ذكر تفصيل أحداث وزارته للخلفاء العباسيين، ليعود ويوصل أخباره مرة ثانية ويتتبعها عند الحديث عن حروب السلاجقة في بلاد الجزيرة الفراتية، مبرزاً للدور الذي قام به بني جهير في هذه الفتوح، فبدت المعلومات متناثرة شانه في ذلك شان الكثير من المؤرخين آنذاك، ويعدُّ كتاب الفارقي من أهم المصادر في كتابة الفصل الثالث من الرسالة، فأورد معلومات مهمة مفيدة، وكان المؤلف الوحيد الذي فصّل الحوادث والروايات المتعلقة بالأسرة الجهيرية. وانفرد بذكرها عند تناوله لولاية أفرادها في مدن الجزيرة الفراتية عند وصولهم إليها مرسلين من قبل السلاجقة، كما أنه المصدر الوحيد الذي فصّل في الأمور المالية والإدارية في البلاد، وهكذا نستطيع القول أنه جاء شاملاً جامعاً لأخبار بني جهير منذ مرحلة مبكرة من حياتهم الإدارية عند المروانيين ثم ولايتهم للسلاجقة في ديار بكر، ولكنه اقتضى المزيد من التدقيق والحذر عند دراسته والاعتماد عليه.

وقد نقل أبو عبد الله محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد المتوفى سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) في كتابه الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة الكثير من كتاب الفارقي السابق

وخاصة أخبار الدولة المروانية، وكان النقل متطابقاً في كثير من المواضع، وظهر ذلك جلياً في سياسة بني جهير المالية في اقليم ديار بكر.

- نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية لمؤلفه محمد بن محمد بن حامد العماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) :

الذي تولّى عدة مناصب إدارية في العراق منها رئاسة ديوان النظر في البصرة وواسط، كما تقلّد ديوان الانشاء في الشام في أيام نور الدين زنكي وصلاح الدين، وبذلك كان على اطلاع ودراية فيما يتعلق بالوثائق الديوانية والرسمية، وكتاب "نصرة الفترة وعصرة القطرة في أخبار الدولة السلجوقية" من أهم المصادر التي أفادت البحث، وقد استفدت منه في معظم فصول الدراسة، وتأتي أهمية هذا الكتاب من أنّ مصنّفه قد نقل أخباره عن كتابٍ سابق لمؤلف عايش أحداث الفترة وعاصرها وهو الوزير السلجوقي "أنوشروان بن خالد الكاشاني"[(١)] وهذا ما أورده الأصفهاني فقال: "كنت أوثر أن أجمع كتاباً في وزراء الملوك السلجوقية، وأكابر دولتهم ذوي الهمم العالية والأصول النقية، وما زلت أفكر فما يواتيني فكر ولا يطاوعني في تأليف عوانه ترتيب بكر، حتى تأملت الكتاب الذي صنفه الوزير انشروان بن خالد بالفارسية، وسماه "فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور"[(٢)]، ويصف الأصفهاني منهجه في التأليف فيقول: "... ثم عربّت الكتاب وأعتمدت فيه الصدق والصواب ولما تمَّ تعريبه وكمل تهذيبه رأيته مقتضب الافتتاح، منقطع الاختتام، مفتقرة فقره إلى نظمها في سلك التمام وألحقته جناحاً وألحقت

---

(١). أنوشروان بن خالد بن محمد الكاشاني: وزر للسلطان محمد والمسترشد بالله، كان عاقلاً مهيباً عظيم الخلقة، وكان كريماً، ويميل إلى التشيع، (ت ٥٣٢هـ/١١٣٧م)، ودفن في الكوفة، انظر: بن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ج١٧، ص٣٣٣، وسيشار إليه، ابن الجوزي، المنتظم.

(٢). الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) نصرة الفترة وعصرة القطرة، مخطوط، المكتبة الأهلية، باريس، رقم ٢١٤٦، نسخة مصورة (ميكروفلم) في مركز الوثائق الجامعة الأردنية؛ ورقة ١أ وسيشار إليه، الأصفهاني، نصرة الفترة.

تليه صباحاً، وجعلت مفتتحة وزارة عميد الملك أبي نصر الكندري، وبدأت فيه ببداية الملك السلجوقي، ثم وصلته بمبتدأ كتاب أنشروان ثم ذيلته بما عاينته في عصري من حديث الأعيان وحادث الزمان"[1].

وأتى الأصفهاني في هذا الكتاب بأخبار السلاجقة وسلاطينهم ووزرائهم كتاريخ عام مفصّلاً فيه الأحداث السياسية للسلطنة السلجوقية وما وقع لهم مع بني العباس، وكانت منهجيته تقوم على إيراد الحدث دون التقيد بالمنهج الحولي في التدوين، وأفدتُ منه عند دراسة العلاقات العباسية – السلجوقية في أثناء وزارة بني جهير، ووفادتهم المتكررة إلى السلاطين، كما فصّل حروب السلاجقة وفتوحاتهم في بلاد الجزيرة الفراتية مبرزاً للدور الذي قام به فخر الدولة وبنيه في هذه الفتوح، متتبعاً لجهودهم في خدمة السلاجقة، كما أشار إلى وزارتهم للخلفاء العباسيين منذ وصولهم إلى بغداد حتى نهاية دور هذه الأسرة، ولعلَّ هذا المصدر التاريخي يعدُّ من أكثر المصادر شمولية لأحداث تاريخ السلاجقة.

وبجانب كتاب الأصفهاني السابق فقد أفاد البحث أيضاً من كتابه الأدبي "خريدة القصر وجريدة أهل العصر" بأقسامه المختلفة، حيث أفراد الأصفهاني في القسم الأول من الجزء الخاص بشعراء العراق فصل من ترجمة للوزير عميد الدولة بن جهير اعتمد في إيرادها على كتاب الهمذاني "عنوان السير"، كما حوت الخريدة على إشارات مدح كثيرة في ثنايا أشعارها بشقيها العراقي والمغربي متعلقة بوزراء بني جهير.

– المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، وهو من مصنفات العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد المشهور بابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) :

والمنتظم من كتب التاريخ الإسلامي العام، اتبع فيه مؤلفه أسلوب التأريخ الحولي فكان يورد أخبار كلّ سنة على حده. ثم يعقّب عليها بذكر الوفيات من أعيان الدولة وكبار رجالاتها وعلمائها وفقهائها وقضاتها وغيرهم شأنه في ذلك مؤرخين العصر من أمثاله، وتتميز الأخبار

---

[1]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة١.

والمعلومات الواردة في ثنايا هذا الكتاب بأنها تشمل نواحي ومجالات عديدة منها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية الخ ...، ويمكننا القول أنه من أهم المصادر التي اهتمت بالتاريخ الحضاري فيما يتصل بفترة الدراسة، ومن هنا عمت الفائدة منه جميع المباحث التي درسناها، ونال بنو جهير اهتمام ابن الجوزي على اعتبار أنهم وزراء هذا العصر بلا منازع، ومن أكثر الفاعلين في الأحداث السياسية، كوزراء في بغداد في فترة النفوذ السلجوقي.

ولهذا المصنَّف أثر وصدىً كبيرين في جميع فصول البحث، فقد تتبع ابن الجوزي أخبار بني جهير منذ وصولهم إلى بغداد ودخولهم في خدمة الخلافة، كما فصَّل أيضاً في ذكر علاقتهم بالعباسيين من حيث التولية والعزل والطرد والعودة، وانفرد بذكر أخبارهم مثل دورهم في الحياة الاجتماعية والحركة العلمية وغيره من الأمور التي تظهره الدراسة، فجاء شاملاً - بصورة عامة- لأخبارهم السياسية والإدارية والحضارية، ومن الملاحظ أن ابن الجوزي لم يعرض للدور الذي قام به هؤلاء الوزراء في خدمة سلاطين السلاجقة ولا حروبهم وولايتهم على إقليم ديار بكر، وذلك لأن ابن الجوزي كان مهتماً بالأحداث الخاصة في مدينة بغداد فكأنه كان مؤرخاً محلياً أو أن الأخبار لم تصل إليه ليدونها.

- الكامل في التاريخ، لمؤلفه عز الدين علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

وابن الأثير له باع مشهور في التصنيف التاريخي، ولسنا بصدد الحديث هنا عن إبراز شخصية هذا المؤرخ ولا دراسة أسلوبه ومنهجه الذي جمع بين التاريخ الحولي والتاريخ الموضوعي، ولا أهمية كتابه الكامل، وإنما نحاول قدر الامكان إلقاء الضوء على مدى إفادتنا منه في موضوع الدراسة، ويلاحظ أن ابن الأثير كان يتقصّى الأحداث في تأريخه، ولأخبار بني جهير مكانها البارز في كتابه، فقد دون أدوارهم في بغداد وديار بكر، وقد حظيت أخبار الوزير فخر الدولة بن جهير بعناية خاصة، فقد تتبع سيرته الإدارية منذ التحاقه بخدمة العقيليين وحتى وفاته والياً للسلاجقة في ديار بكر، كما أورد ابن الأثير روايات تفصيلية عن طبيعة

العلاقات التي ربطت الخلافة العباسية بالسلطنة السلجوقية والتي أفدت منها عند دراسة تأثير بني جهير في رسم معالم العلاقات العباسية السلجوقية.

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لمؤلفه أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) :

وهو لا يزال قيد التحقيق والنشر في كثير من أجزائه، وقد حاز الجزء الخاص بفترة النفوذ السلجوقي في الدولة العباسية اهتمام الباحثين وعنايتهم، والجزء المتعلق منه بموضوع البحث وفترة الدراسة قام الباحث علي سويم بمراجعة أصوله ومقابلة نسخه والتعليق عليها وأصدره في كتاب بعنوان الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة (٤٤٨-٤٨٠هـ/١٠٥٦-١٠٨٧م).

وميّز كتاب مرآة الزمان باعتماده في ذكر بعض الحوادث على مصادر معاصرة لأحداث الفترة مدار البحث وأهمها كتاب "عيون التواريخ" لمحمد بن الصابيء المتوفى سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م)، وتضمّن مرآة الزمان كثير من الأخبار والحوادث السياسية المتعلقة بالدولة العباسية والسلطنة السلجوقية على حدٍّ سواء، كما ركزً على إبراز العلاقة التي ربطت الخلافة بالسلطنة وفصلّ في دقائقها وأولاها عناية أكثر من أي مصدر سابق له، وحظي بنو جهير بنصيب كبير من الاهتمام مقارنة مع ما أوردته المصادر الأخرى فقد فصّل في ذكر أخبارهم من خلال تدوينه للحالة العامة في بغداد، عاصمة الخلافة، وأفاد منه فائدة كبيرة وخاصةً في مطلب العلاقة بين بني جهير وأمراء الأطراف العقيليين والمزيديين، وكذا بينهم وبين ملوك الروم، ثم أنه أورد نصوصاً عن العلاقة بين بني جهير والوزير نظام الملك بما فيها العلاقات العدائية والسلمية، وفي حين أنّ جده أبو الفرج ابن الجوزي قد أغفل ما كان لفخر الدولة وبنيه من دور في خدمة السلاجقة والدخول في غمار حروب في ديار بكر، فإن السبط أولاها عناية واهتماماً وتفصيلاً يزيد في التأكيد على صحة الأخبار الواردة عند سابقيه من المؤرخين.

- دستور الوزراء لمؤلفه غيّاث الدين بن همّام الدين خواندمير (ت٩٤٢هـ/١٥٣٩م)

فارسي، قضى فترة طويلة في تحصيل الفنون المتداولة في عصره، وحيث أنه كان قريباً من التيموريين وعلى صلة حسنة بهم فإنه حظي بمكانة عندهم، وقد صنّف العديد من كتاباته باللغة الفارسية بما فيها دستور الوزراء الذي اعتمد فيه على مصادر فارسية مبكرة مثل جامع التواريخ، وهذا أضفى على الكتاب ميزة خاصة تبين الرأي الآخر في الإحداث.

وبالرغم من أنّ الكتاب كان متأخراً عن فترة الدراسة، إلاّ أن الباحثة ارتأت أن يكون من ضمن هذه القائمة وذلك لما يحويه من الروايات والأخبار التي أوردها خواندمير مخالفة في فحواها غير التي أوردها مؤلفوا المصادر المتقدمة من فترة الدراسة المتصلة ببني جهير، ومع أن تباين الروايات وتناقضها في بعض الأحيان ألقى عليّ عبئاً، فقد عملت على نقد الروايات وترجيح بعضها على بعض بقدر من النزاهة والموضوعية التي ما زلت أنشدها، وقد أفادني الكتاب في دراسة سير ثلاثة وزراء من بني جهير؛ وهم فخر الدولة، وولداه العميد والزعيم، وقد أطنب المؤرخ في تفصيل سبب العداوة والبغضاء بين نظام الملك السلجوقي والوزراء من بني جهير، وغالباً ما يفرد الاسباب إلى عوامل ذاتية محورها الحسد والترقب والترصد.

ومن المصادر الأدبية التي أفادت البحث كتاب:

- ديوان صرّدر، لأبي منصور علي بن الحسين بن علي بن الفضل الكاتب المعروف بصردر الشاعر (ت٤٦٥هـ/١٠٧٢م) :

وهو من الذين عايشوا أفراد أسرة بني جهير ونادموهم، وكان قريباً من مجلس الوزير عميد الدولة، وكان يكثر الوزير من زياراته، ويصفه ابن خلّكان: "أنه أحد نجباء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى، وعلى شعره طلاوة رائقة وبهجة فائقة، وشعره نادر"[1] وقال

---

[1]. ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦١٨هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ج٣، ص٣٨٥، وسيشار إليه ابن خلكان، وفيات الأعيان.

عنه صاحب المنتظم: أن شعره غاية في الحسن وأنه كان من حفاظ القرآن وسمّاعي الحديث النبوي[1]، وهي إشارة تلميحية تدعو إلى تصديق ما جاء في ديوانه.

وحوى ديوانه المطبوع على العديد من القصائد الشعرية والمديح الخاص بكبار رجال دولتي السلاجقة والعباسيين، وكان للوزراء من بني جهير الحظوة في ذلك، وقد بلغ مجموع القصائد التي نظمت في بني جهير سبع عشرة قصيدة من مجموع قصائد الديوان التي بلغ عددها ما يقارب مئة قصيدة ما بين مقطوعة شعرية وأبيات محدودة، وهذا يدل على الاهمية التي أولاها صردر لبني جهير أملاً في نيل حظوتهم وكرمهم، ولما كان الشاعر صرّدر يقيم في بغداد أثناء وزارة الجهيريين لخلفاء بني العباس فإنه لا يكاد يترك مناسبة من استقبال أو توديع أو تهنئة وتبريك إلاّ وسارع في ابتهالها وأنشد فيها من روائع قصائده.

وما التاريخ والأدب إلا صنوان والأحداث تبدو مبذولة في الأدب احياناً لترفد البحث التاريخي، وفي بعض الاحيان فإن الأدب يفوز في تسجيل حادثة قد يتعمد المؤرخ إهمالها لاسباب معروفة.

وأما كتب التراجم، فقد بذلت فيها الجهد، لأهمية ما فيها من أخبار وروايات تروي سير حيوات المترجمين، ولكن الاعتماد عليها يتطلب المزيد من الحذر والتدقيق، ومن أهم كتب التراجم التي أفادتُ منها الدراسة:

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، للعلاّمة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) :

وهو **كتاب** معروف في باب التراجم حيث أفرد المؤلف ترجمة للوزير فخر الدولة بن جهير، وأخرى لبنيه عميد الدولة، وزعيم الرؤساء، والمظفر، وتعد تلك التراجم من أوسع التراجم وأكثرها فائدة بين المصادر التي ترجمت لهم، ومن خلال الاطلاع نجد ابن خلكان قد ساهم في إبراز صورة جيدة في التعرف على الاوضاع والأحوال بمجالاتها المختلفة التي

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٠-١٥١.

سادت ذلك العصر عن طريق تراجم شخصيات كان لها أثر في الأحداث ذلك الوقت لا سيما أنه نقل من مصادر تعتبر مفقودة.

- الوافي بالوفيات، لمصنّفه صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م) :

وأفاد منه البحث إفادة جيدة سواء كان ذلك بترجمة حياة أفراد بني جهير أو التعرف على شخصيات من العصر كان لها أثر في الأحداث، وقد ظهر مدى الإفادة منه في حواشي فصول الدراسة.

وكتاب ذيل طبقات الحنابلة لأبي الفرج عبد الرحمن بن احمد البغدادي الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) من كتب الطبقات التي أفدت منه في دراسة الصراعات الفكرية والفتن المذهبية التي كان يُحدثها بعض أتباع المذاهب والفرق الدينية في بغداد، وعلينا التأني والحذر عند الرجوع إلى مثل هذه المصادر لأن مؤلفيها غالباً ما ينحازون بسبب تعصبهم للمذاهب والفرق، وخاصة إبان اشتداد التخاصم بين الحنابلة والشافعية في بغداد، فقد اتضح لنا ميل ابن رجب الحنبلي لأتباعه من الحنابلة ومع هذا فقد حوى ذكراً لاخبار بني جهير خاصة فيما يتعلق بموقفهم من الانقسامات المذهبية بين أنصار الفرق الدينية.

أما الدراسات الحديثة، فقد أفدت منها في إلقاء الضوء على أحداث العصر مدار البحث بشكل عام، وبدت الدراسات المتصلة بأسرة بني جهير محدودة فيما انتهى إلى علم الباحثة، وجلّ ما ورد إشارات ونتفاً أو فصولاً بحيث لا تعطي صورة متكاملة واضحة عن الأسرة الجهيرية، وكان للباحث عصام عقلة دراسة في هذا الميدان تناول فيها الأوضاع التي لفّت الدولة العباسية مع السلاجقة، كما تناول مؤسسة الوزارة العباسية على أنها إحدى المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية في ذلك الوقت، وجاءت الإفادة من آرائه وترجيحه للروايات ومقابلتها، وقد أشرت إلى ذلك في موضعه من دراستي.

ويعد كتاب الزهراني، الوزارة العباسية في العهدين البويهي والسلجوقي من المراجع التي أشارت إلى وزراء بني جهير، وقد كانت لي بدراستها والاطلاع عليها الإفادة منها بقدر.

ولابد من الإشارة إلى الجهود التي قام بها الباحث ارشيد يوسف في كتابه سلاجقة الشام والجزيرة عند ذكره لأخبار الحملات السلجوقية على بلاد الجزيرة الفراتية ودور بني جهير في قيادة الجيوش السلجوقية وإخضاعهم لمدن وأقاليم الجزيرة الفراتية، ولكنّ الإشارة إلى دور بني جهير جاءت عابرة وسريعة ومع هذا فإن الاطلاع عليه كان فيه فائدة لا بأس بها.

أما الدراسات الأجنبية فقد كان للمادة التي وردت في Encyclopedid of Islam، والتي كتبها B. Lewis ، كذلك كتاب Carla L. Klausner. The Seljuk Vezirate العناية من قبلي، وحيث أن معرفتي وإتقاني للغات الأجنبية محدودة فقد حال ذلك دون متابعة ما جاء في اللغات الأخرى بصورة دقيقة، وهذا ما سأحاول الوقوف عنده عند اتجاهي لمتابعة دراساتي العليا إن شاء الله.

تمهيد:

ينتسب السلاجقة إلى مؤسس دولتهم سلجوق بن يقاق، وهم إحدى قبائل الغز التركمانية التي كانت تقطن بلاد ما وراء النهر[١]، وبدأ نفوذهم يزداد وأخذوا في التوسع على حساب المناطق المجاورة لهم بتحصين أنفسهم بسلسلة من التحالفات التي تضمن لهم السلامة والاستقرار، ولعل اعتناقهم الإسلام على المذهب السني ما هو إلا مبادرة منهم في توثيق علاقتهم مع جيرانهم الغزنويين والسامانيين اتباع هذا المذهب[٢].

غادر السلاجقة بخارى متوجهين إلى خراسان على أثر النزاعات التي ثارت بينهم وبين القرخانيين حكام بخارى، مما اضطرهم للجلاء عنها إلى خراسان، حيث الأملاك الغزنوية[٣]، وسرعان ما ساءت العلاقة بينهم وبين الغزنويين بسبب إقدامهم على نشر الفوضى وإعمال السلب والنهب والخراب في خراسان، مما اضطر السلطان محمود الغزنوي إلى طردهم من بلاده في سنة (٤١٩هـ/١٠٣٠م) فساروا منها إلى خوارزم وأقاموا هناك[٤].

---

[١]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ١-٣، وانظر: الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت٦٠١هـ/١٢٠٠م)، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة عبد النعيم حسنين، وفؤاد الصياد، وإبراهيم الشواربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٤٥، وسيشار إليه، الراوندي، راحة الصدور، وانظر: الحسيني، صدر الدين علي بن ناصر بن علي (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، أخبار الدولة السلجوقية، أو زبدة التواريخ، تصحيح محمد إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤م، ص١-٢، سيشار إليه الحسيني أخبار الدولة السلجوقية، وانظر: عن بداية نشأة الدولة السلجوقية وتوسعاتها، الجالودي، عليان، تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥-١١٩٣م)، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧، ص٢٥-٣٢، وسيشار إليه، الجالودي، تطور السلطنة.

[٢]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٣أ، وانظر: الراوندي، راحة الصدور، ص١٤٥؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٢.

[٣]. الراوندي، راحة الصدور، ص١٤٩-١٥٠؛ وانظر: الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٣.

[٤]. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ص٢٤، وسيشار إليه ابن الأثير، الكامل.

وانتهز السلاجقة فرصة النزاعات الأسرية التي ثارت بين أبناء السلطان محمود الغزنوي بعد وفاة والدهم سنة (٤٢١هـ/١٠٣٠م) [١] فخاضوا معارك مع الغزنويين أحرز فيها السلاجقة انتصارات عدة، منها ما كان في سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) حيث تمكنً السلاجقة بعد النصر من السيطرة على اقليم خراسان وامتلاكهم مدينة نيسابور[٢]، وإزاء ذلك بادر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالاتصال مع السلطان طغرلبك يحذره من الفتن ونشر الفوضى والفساد، ويأمره بمخافة الله والكف عن المعاملة السيئة للاهالي فاستجاب السلطان إلى طلباته[٣]، وكان ذلك بداية اتصالات عباسية سلجوقية استمرت مدة طويلة من الزمن.

وبقي الغزنويون يتحينون الفرص لاسترجاع ما فقدوه من ممتلكات، ودارت بينهم وبين السلاجقة معارك جديدة كان من أعنفها موقعه دندنقان سنة (٤٣١هـ/١٠٣٩م) حيث انتصر السلاجقة في هذه المعركة[٤]، وشعروا بقوة نفوذهم وأدركوا أهمية حصولهم على تفويض من الخلافة العباسية يمكنهم من ممارسة حكمهم بصورة شرعية، فأرسلوا إلى القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) معلنين له الطاعة والولاء ومطالبين بمنحهم التفويض بالسلطة[٥]. ولكن الخليفة لم يمنحهم هذا التفويض إلاّ في سنة (٤٣٥هـ/١٠٤٤م) عندما أرسل إليه طغرلبك مرة ثانية يذكره بولائه وطاعته للخلافة العباسية ويشعره بمكانة السلاجقة بعد أن حلّوا مكان الدولة الغزنوية في الجهة الشرقية من بلاد الخلافة العباسية[٦]. وكانت استجابة الخليفة القائم بأمر الله لرغبة السلاجقة رهينة شروط منها، تقديم الولاء والطاعة الخالصين للخلافة العباسية، والتزام السلاجقة بدفع عوائد مادية تدفع كل سنة إلى خزينة الخلافة، وبعد

---

[١]. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٥.

[٢]. ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٤.

[٣]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٥ب، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥.

[٤]. الراوندي، راحة الصدور، ص١١٣؛ وانظر:، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١١، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٥.

[٥]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٥ب؛ وانظر: الراوندي، راحة الصدور، ص١٦٦.

[٦]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٨٥.

الموافقة أرسل إلى طغرلبك بتفويض شرعي يعطيه الحق في السلطنة وممارسة شؤون دولته[1].

وأمام ازدياد هجمات السلاجقة على الأهواز التي ترتب عليها أعمال قتل وتدمير توجه جماعات منهم نحو بغداد وأساؤوا إلى الأهالي، فأرسل الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) رسالة إلى السلطان يأمره بإنهاء حالة الفوضى التي عمت البلاد، وقد لقي طلب الخليفة القبول عنده، الأمر الذي يجعل الخليفة يضفي عليه ألقاباً زادت من رفعته ومقامه لدى الخلافة وردّ السلطان على ذلك بإرسال الأموال والهدايا إلى القائم بأمر الله[2].

والملاحظ أن فتوحات السلاجقة اتسعت حيث زادت رقعة سيطرتهم إلى أن وصلوا إلى مشارف بلاد العراق، وقد حرص سلاطين السلاجقة منذ الوهلة الأولى على كسب رضى الخليفة، لذا فإن فتوحاتهم كانت تسجل بإسمهم وخطبهم تقرأ لهم. أمّا العباسيون فقد توسّموا في جموع السلاجقة ما يحقق أمانيهم في الدفاع عن الخلافة وحمايتها أمام قوة البويهيين الذين تغلغل نفوذهم في الدولة منذ زمن.

ويبدو أن السلاجقة قد طمعوا في دخول بغداد إذ أن الظروف جاءت في صالحهم ومواتية لتحقيق أهدافهم بعد الانقسامات والخلافات التي حدثت بين كبار موظفي الدولة من قادة جيش ووزراء، وظلَّ أمرُ هذه النزاعات يستفحل إلى أن نتج عنه ما يُعرف "بفتنة البساسيري"[3] أو ثورته التي عدَّت الأعنف من نوعها في ذلك العصر.

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٨٥؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٩.

(2). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٥.

(3). البساسيري: أبو الحارث أرسلان بن عبدالله البساسيري التركي مقدّم الاتراك ببغداد، ينسب إلى بلدة بساسير في فارس كان في بداية الأمر مملوكاً للبويهيين، ثم أصبح من أبرز قادة جيوشهم، ثار على الحكم العباسي وخطب ببغداد للفاطميين أصحاب المذهب الشيعي، انظر: ترجمته، ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج١، ص١٩٢.

فقد زادت الأحقاد وتمكنت بين كلٍّ من وزير الخليفة رئيس الرؤساء ابن المسلمة[1] وأحد كبار قادة الجيش البويهي أبو الحارث المظفر أرسلان البساسيري، وكان السبب في ذلك أن الخليفة القائم بأمر الله استمال القائد البساسيري وغدا من خواصه وأحد المقربين إليه فقد "عظم أمره واستفحل شأنه لعدم نظرائه من مقدمي الاتراك المسلمين، واستولى على البلاد وانتشر ذكره، وطار اسمه، وتهيبته أمراء العرب والعجم ودعي له على كثير من المنابر العراقية وبالأهواز ونواحيها، وجبى الأموال، ولم يكن القائم يقطع أمراً دونه، ولا يحل ولا يعقد الاّ عن رأيه" فلما علا شأنه اثار حفيظة ابن المسلمة الذي حقد عليه هذه المكانة والسلطة فاخذ يسعى به إلى الخليفة ويحرضه عليه[2].

وبعد هذه الحظوة التي غدت للبساسيري عند القائم بأمر الله سرعان ما انقلبت إلى عداوة بعد أن أُسر إلى الخليفة بخيانة هذا القائد، ووقر في علمه أن له مراسلات واتصالات مع الفاطميين في مصر[3]، وزادت نقمته عليه بعد أن أساء البساسيري في معاملة الخليفة فلم يكن يراعي له حرمة ولا ذمة[4]. فلما شعر الخليفة بتماديه وسوء نيته وأنه عازمٌ على نهب دار الخليفة والقبض عليه –وفق ما جاء في الروايات–، أمر بطرده من منصبه كقائد للجند التركي في الجيش البويهي[5].

ولتفادي أيِّ خطرٍ قد يهدد الخليفة أو سلطته، رأى القائم بأمر الله أنه لابد من اتخاذ إجراءات احتياطية من شأنها وقف البساسيري ومنعه من القيام بأي عملٍ يزيد من قوته، لذلك سارع إلى الاستنجاد بالسلطان "طغرلبك" ليكون معيناً له على وقف التمرد، ولقي طلب الخليفة

---

[1]. ابن المسلمة: علي بن الحسن بن أحمد أبو القاسم ابن المسلمة، تولى الوزارة للخليفة القائم بأمر الله، ولقبه رئيس الرؤساء شرف الوزراء جمال الورى، وكان صاحب علم ومعرفة، مات مقتولاً على يد البساسيري وعمره اثنتين وخمسين سنة، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٤٣.

[2]. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، دت، ج٩، ص٣٣٩-٤٠٠؛ سيشار إليه، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٩٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٠.

[4]. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٨.

[5]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧١.

استجابة سريعة من السلطان السلجوقي الذي احتج بأن مقدمه إلى بغداد ما سببه الاّ لتقديم الطاعة والولاء للعباسيين، وقتال أهل الشام أنصار الخلافة الفاطمية، ثم فتح طريق الحج بين العراق ومكة[1]، ويبدو أن السلاجقة قد وجدوا في استنجاد الخليفة بهم فرصة لدخول بغداد والاقتراب من مركز الدولة في بغداد.

ولما علم البساسيري بالمراسلات التي تمت بين السلطان طغرلبك والخليفة القائم بأمر الله زادت مخاوفه فهرب من بغداد ونزل في الرحبة من أجل توحيد قواه[2]، وجمع صفوفه وتمكنً من استقطاب عدد من أمراء الأطراف إلى جانبه بعد أن أطمعهم بالمال والسلطة[3]، ثم أرسل إلى الفاطميين يستغيث بهم طالباً منهم العون والمدد مقابل أن يخطب لهم على منابر البلاد التي يخضعها لحكمه[4]، ولربما أن الخلافة الفاطمية قد وجدت في ثورة البساسيري فرصة طالما انتظرتها لتحقيق أهدافها في نشر المذهب الشيعي والقضاء على العباسيين أنصار المذهب السني.

وصلت جموع السلاجقة إلى بغداد في سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) فاستقبلوا استقبالاً حافلاً حيث خرج الوزير رئيس الرؤساء ابن المسلمة لاستقبال السلطان، ومعه أعيان رجال الدولة وكبارها، ثم قدَّم له الخليفة خلعاً تشرّف بلبسها، وزاد بها رفعة ومكانة بعد أن خوطب بلقب "ركن الدين ملك الإسلام والمسلمين، برهان أمير المؤمنين"[5] .

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧١.

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧١؛ وانظر: الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٨، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٤.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث، (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٤.

[4]. الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران (ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م) مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية، تحقيق عارف تامر، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٢٧؛ وسيشار إليه، الشيرازي، مذكرات داعي الدعاة.

[5]. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م)، الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية، ليدن، ١٩٧٢م، ص١٩٢؛ وسيشار إليه، ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٤٩.

أمّا البساسيري فقد وصل إلى الموصل وحين دخلها أعلن الخطبة فيها باسم الفاطميين[1]، فلمّا علم السلطان السلجوقي بذلك خرج إليه لتأديبه، فسار طغرلبك بنفسه يقود قواته إلى الموصل واسترجعها من أرسلان البساسيري وأعاد فيها الخطبة للعباسيين وعين عليها أخاه إبراهيم ينال نائباً عنه[2].

وبعد عودة طغرلبك إلى بغداد أُستقبل استقبالاً حافلاً، وحظي بمقابلة الخليفة الذي وصفه بعبارة تعظم قدره إذ خاطبه بـ: "أمير المؤمنين، حامدٌ لسعيك، شاكرٌ لفعلك، زائد الشغف بك، وقد ولاّك ما ولاّه الله تعالى من بلاده، وردَّ إليك مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاّك، وأعرف نعمته في ذلك، واجتهد في عمارة البلاد، وصلاح العباد، ويسر العدل، وكفَّ الظلم"[3].

ولكن السلطان طغرلبك لم يهنأ طويلاً بإقامته في بغداد فسرعان ما بلغه نبأ تمرد أخيه إبراهيم ينال في الموصل وعصيانه لطاعته التي هي مستمدة من طاعة الخليفة، وكان ذلك بتأثير من القائد البساسيري الذي أطمع ينال إبراهيم بالسلطة والأموال الوفيرة وحرضه على الثورة[4].

أدرك العباسيون ما كان يدّبره خصمهم البساسيري من مؤامرات يمهدُ من خلالها ايقاع النزاعات بين افراد البيت السلجوقي، فسار الوزير رئيس الرؤساء ابن المسلمة إليهم وحذّر طغرلبك مما يحاك ضده للإيقاع بينه وبين أخيه بقوله: "قد راسلتك أيها السلطان عند وقوع الأرجاف عليه بعصيانه عليك بأن لا تقبل فيه قول قائل، ولا تُعجّل عليه فللناس أغراض

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٢، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٢.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣١، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٣.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٨٨-٤٨٠هـ) ص٢٥.

[4]. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩، ص٤٠٠؛ وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤١-٤٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٣١.

يبلغونها بك ويتسوفون بها عندك ... وما بلغني عنه إلاّ الطاعة الخالصة والمحبة الصادقة والمولاة المؤكدة"[1].

وأمام إصرار السلطان في الخروج لقمع تمرد أخيه، استغل ذلك أرسلان البساسيري وجهزّ نفسه لدخول بغداد، بعد أن خلت من القوات السلجوقية، فوصلها في سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، وقبض على الخليفة القائم بأمر الله وارسله رهينة عند الأمير العقيلي قريش بن بدران[2]، ثم قبض على خصمه الوزير ابن المسلمة وشَهَرَهُ أمام العامة، وألحق به شتى أصناف العذاب ثم قتله[3]، وأقام الخطبة للفاطميين في بغداد[4]، وقد عبَّر الأصفهاني عن سوء الأحوال التي حلّت بالخلافة العباسية فقال: في حوادث سنة (٤٥١هـ/١٠٥٩م): "كانت سنة كادت لنور الله مطفئة، فإنه دعي إلى الداعي بمصر مصراً، ولم تجد الخليفة بمقره من دار الإمامة مقراً، وحصل من تلك الحادثة بالحديثة وتوالت منه إلى طغرلبك إمداد كتبه المستصرخة المستغيثة وهو مشغولٌ بحرب أخيه مهموم بما هو فيه ..."[5].

رجع طغرلبك إلى بغداد بعد القضاء على ثورة أخيه فهمَّ بمطاردة البساسيري وقواته وظلَّ يتعقبه حتى ظفر به وقتله وبعث برأسه إلى الخليفة[6].

---

(1). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٧.

(2). الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩، ص٤٠٢، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٢-٣٣؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٤-١٩٥.

(3). الشيرازي، مذكرات داعي الدعاة، ص٢٢٢؛ وانظر: الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي (ت٥٨٤هـ/١١٨٨م) تاريخ الفارقي أو الدولة المروانية؛ تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٥٥؛ وسيشار إليه الفارقي، الدولة المروانية؛ الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ١٢أ.

(4). الخطيب البغدادي، ج٩، ص٤٠٢؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٢، الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥٦.

(5). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ١٢أ+ب.

(6). الخطيب البغدادي، ج٩، ص٤٠٣؛ وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٧، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٨، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٦٧.

ثم أرسل السلطان إلى الخليفة وأعاده إلى حاضرة ملكه في ذي القعدة من سنة (٤٥١هـ/١٠٦٠م)، وهكذا تمّ القضاء على فتنة عظيمة لو أنها نجحت لقضت على الخلافة العباسية، واستأصلت شأفتها لولا السلاجقة وسلطانهم طغرلبك الذي عدّ نفسه قائداً زمنياً وحامياً للخليفة صاحب السلطة الدينية.

إزاء ذلك سادت علاقات الود والاحترام المتبادل بين كلٍّ من السلطان والخليفة منذ وصول السلاجقة إلى بغداد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م)، وبقي الخليفة القائم بأمر الله محافظاً على سلطته ونفوذه رغم أنه المستنجد المستغيث بالسلاجقة، وحين أعمل الجند السلطاني السلب والنهب في بغداد وعاثوا فساداً في أموال الناس وممتلكاتهم، ثار الأهالي، وزاد تذمرهم وشكواهم[1]، فبعث الخليفة إلى طغرلبك يأمره بكف أذى الجند عن العامة، فأجاب السلطان "ما أنا إلا الخادم الطائع في كلّ حال"[2]، وعمل السلطان على توثيق علاقته بالخليفة فوافق على تزويج ابنة أخيه من الخليفة القائم بأمر الله في سنة (٤٤٨هـ/١٠٥٦م) [3].

وابتداءاً من سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) أخذت العلاقات تتغير وتأخذ مساراً جديداً بين الخلافة والسلطنة، فقد شعر السلاجقة بنفوذهم ومكانتهم، وكيف لا وهم الذين قضوا على البساسيري وساهموا في تدعيم أركان البيت العباسي وتثبيت وجوده، ومن هذا المنطلق بدأ السلطان طغرلبك بالخروج عن نطاق صلاحياته وأخذ يفرض وجوده بالقوة على الخليفة وحاشيته، وسرعان ما تبلور هذا النفوذ إلى الواقع العملي، فنجد السلطان يطالب الخليفة ببذل الأموال، وتخصيص جزء من مالية خزانة الدولة ليتم صرفه على الجيش السلجوقي المقيم في بغداد[4]، بل أن السلطان تمادى وسيطر على مالية الدولة وأصبح المتحكم بها، واكتفى بالسماح

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٧٢.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٤.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٨.

[4]. الحسيني، محمد بن محمد بن النظام، (ت٧٤٣هـ/١٣٣٤م)، العراضة في الحكاية السلجوقية، تحقيق عبد النعيم حسنين، وحسين أمين، جامعة بغداد، ١٩٧٩م، ص٤٢، وسيشار إليه الحسيني، العراضة.

للخلفاء أن تكون لهم اقطاعات معينة تخصص لنفقاتهم[1].

ولتحكيم قبضته منع السلطان الخليفة من تشكيل جيش خاص به، وجرّدوا الخليفة من اتخاده هذا الحق، وغالباً ما كان الخليفة يستنجد بأمراء الأطراف والعامة من اهل بغداد إذا لم يتوفر جيش سلجوقي للدفاع عنه عند التعرض لخطر يهدده في حال غياب السلطان وجيوشه، وهذا ما حدث سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٢م) عند وفاة طغرلبك وإعلان مسلم بن قريش الثورة على الخلافة العباسية فكاتب الخليفة أمراء الأطراف لنجدته[2].

وبحرمان الخليفة من حقه في إدارة شؤون خلافته المالية والعسكرية تجرد من أي سلطة زمنية قد تعينه في الدفاع عن نفسه لذلك غدا بلا حول ولا قوة إلا بالسلطان.

وأخذ السلاجقة يتدخلون في إدارة شؤون الخلافة العباسية، فكانوا يعينون من يريدون ويعزلون من يريدون حتى من حاشية الخليفة دون مقاومة تذكر، ولتشديد قبضتهم جعلوا لهم في بغداد داراً أطلق عليها دار المملكة يقيمون فيها مع حاشيتهم كلما قدموا إلى بغداد، هذا عوضاً عن نوابهم الدائمين المشرفين على ضبط الأمور السياسية والإدارية والمراعين لأعمال السلاجقة هناك.

وعلى أي حال نستطيع القول أنّ العلاقة التي جمعت بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانت أفضلُ حالاً من العلاقة العباسية- البويهية، وربما أنّ ذلك يعود إلى التوافق المذهبي السنّي لكلاً من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[3].

وعلى الرغم من هذا التوافق المذهبي إلاّ أنه من الطبيعي أن يحرص الطرفان على إبقاء علاقة الودّ والاحترام المتبادل بينهما، لأن في ذلك دعم للخلافة والسلطنة على حد سواء، وتحقيق لمصالح متبادلة بين الطرفين، كما أن المشاورة بين الخليفة والسلطان ما هي إلاّ محاولة لإبقاء الصلة بين صاحب الشرعية في الحكم وصاحب القوة والنفوذ الزمني.

---

[1]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٧.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٠٦.

[3]. الجالودي، تطور السلطنة، ص١٠٣.

الفصل الأول

أصول بني جهير وظهورهم على مسرح الأحداث:

- المبحث الأول: النسب

- المبحث الثاني: مشاركتهم في الحياة العامة:

  - المطلب الأول: العقيليون "بنو عقيل في الموصل".

  - المطلب الثاني: المرداسيون: "بنو مرداس في حلب".

  - المطلب الثالث: المروانيون: "بنو مروان في ديار بكر"

الفصل الأول

أصول بني جهير وظهورهم على مسرح الأحداث

بنو جهير من البيوتات التي أشتهرت بالرئاسة والوزارة، وهم إحدى الأسر التي لعبت دوراً بارزاً في أحداث الحياة السياسية والإدارية، حيث ساهم أفرادها في تدعيم أركان الدولة العباسية في أثناء فترة سيطرة السلاجقة على مقدرات الخلافة، ويبدو أن أحد نسّاخ تحفة الوزراء قد أشار في هامش نسخته إلى كفاءتهم ووصفهم بالبلاغة وحسن التدبير في سياسة الملك والرعية[1].

المبحث الأول: النسب

ينتسب بنو جهير إلى أبي نصر "فخر الدولة" محمد بن محمد بن جهير وقد أورد كلٌ من السمعاني وابن الأثير توضيحاً لهذه التسمية فذكرا أنّ نسبة الجَهيْرِيّ إنما تعود إلى "محمد بن محمد بن جهير" وبنيه[2]، وأضافت إليه بعض المصادر نسبة الثعلبي[3]، أو التغلبي[4] إشارة إلى القبيلة التي ينتمي إليها.

---

(1). الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علي الراوي وابتسام الصفار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م، ص١١٦.

(2). السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت٥٦٢هـ/١١٦٧م)، الأنساب، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، دن، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م، ج٣، ص٣٩٦، وسيشار إليه السمعاني، الأنساب، وانظر: ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، دط، ١٩٨٠، ج١، ص٣١٨، وسيشار إليه ابن الأثير، اللباب.

(3). ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٧، الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارناؤوط ومحمد العرقسوسي مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م، ج١٨، ص٦٠٨، وسيشار إليه الذهبي، السير؛ وانظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م) الوافي بالوفيات، فرانز شتاينر فيسبادن، ط٢، ١٩٦٢م، ج١، ص١٢٢، وسيشار إليه الصفدي، الوافي بالوفيات.

(4). الذهبي، شمس الدين محمد بن محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ج٢، ص٣٤٧، وسيشار إليه الذهبي، العبر.

والوارد في الأنساب في "جَهيْري" "بفتح الجيم وكسر الهاء وسكون الياء المثناه وبعدها راء"[١] والمدلول اللغوي لكلمة جهير مشتق من الفعل جَهَرَ ويقال جهير الصوت يعني ذو الصوت المرتفع وقد تدل أيضاً على حسن المنظر[٢].

ينحدر الجَهيْريّون من أصل عربي، فهم من قبيلة ثعلبة التي توطنت في العراق، ومؤسس هذه الاسرة فخر الدولة "محمد بن محمد بن جهير" من أهل الموصل حيث ولد بها ونسب إليها[٣]، ونشأ وترعرع فيها[٤]، وهناك بدأ حياته الإدارية الأولى، وبعد تقلب الأحوال به، وانتقاله بين أماكن عدة عاد إليها في سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) حيث توفي هناك[٥] ودفن في تل توبة الواقع قبالة الموصل[٦].

---

[١]. السمعاني، الأنساب، ج٣، ص٣٩٦؛ وانظر: ابن الأثير، اللباب، ج١، ص٣١٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣٤، العيني، بدر الدين ابو محمد بن أحمد بن الحسين بن يوسف (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط، ج١١، ورقة ١٠٠ب، وسيشار إليه العيني، خط، عقد الجمان؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) لب اللباب في تحرير الأنساب، تحقيق محمود عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م، ج١، ص٢٢٦.

[٢]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣٤؛ وانظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت، ج٤، ص١٥٠، مادة جَهَرَ؛ العيني، عقد الجمان، خط، ورقة ١٠٠ب.

[٣]. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص١٣١؛ انظر الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، دط، ١٩٨٢م، ج١، ص٢٠٠، وسيشار إليه الديوه جي، تاريخ الموصل.

[٤]. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦م، ج٣٣، ص١١٩، وسيشار إليه الذهبي، تاريخ الإسلام.

[٥]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٧٢ب، وانظر: البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ص٧٠، وسيشار إليه، البنداري، دولة السلاجقة، العيني عقد الجمان، خط، ورقة ١٠٠أ.

[٦]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٧، [illegible]؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣١؛ العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة ١٠٠أ.

وصفَ فخر الدولة بن جهير بأنه إداري بارع، تميَّز برجاحة عقله، وحسن تدبيره للأمور وضبطها[1] واشتُهر بالفصاحة والبلاغة وإكرام العلماء[2]، كما وصفه بعض المؤرخين بأنه كان من دهاة الناس[3].

اشتهر من هذه الأسرة إضافة إلى فخر الدولة أربعة من أبنائه[4] وهم: عميد الدولة "محمد بن محمد بن محمد بن جهير" (٤٣٥-٤٩٣هـ/١٠٤٣-١٠٦٦م) والثاني وهو زعيم الرؤساء "أبو القاسم علي بن فخر الدولة بن جهير" (ت٥٠٧هـ/١١١٤م) والآخر الذي أطلق عليه الكافي "أبو البركات جهير بن فخر الدولة بن جهير" (ت٤٩٤هـ/١١٠٠م) ثم حفيده المظفَّر الحسين بن علي بن فخر الدولة بن جهير (ت٥٤٩هـ/١١٥٦م)، وقد شغل جميعهم منصب الوزارة لخلفاء بني العباس طيلة الفترة الممتدة ما بين (٤٥٤-٥٤١هـ/١٠٦٢م-١١٤٦م) تخللها بعض الانقطاع والعزل أحياناً، وذلك باستثناء "أبي البركات جهير بن فخر الدولة" الذي تولى وزارة السلاجقة عند تتش بن ألب أرسلان لمدة وجيزة في سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م).

وقد عاصر الشاعر صرّدر[5] أربعة من أفراد بني جهير فجمعهم في أبيات من شعره

---

[1]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٧؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٨، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢.

[2]. خواندمير، غياث الدين بن همام الدين، (ت٩٤٢هـ/١٥٣٩م) دستور الوزراء، ترجمة وتعليق حربي أمين وفؤاد الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د.ط، ١٩٨٠م، ص ١٩٦، وسيشار إليه خواندمير، دستور الوزراء.

[3]. ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية دار صادر، بيروت، دط، ١٩٦٦م، ص٢٩٣، وسيشار إليه ابن الطقطقا، الفخري؛ وانظر: ابن العماد الحنبلي أبو الفرج عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/ ١٩٧٨م) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، تحقيق محمد عبد القادر الارناؤوط، دارابن كثير، دمشق، ١٩٨٩م، ج٥، ص٣٥٥، سيشار إليه ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب.

[4]. زامباور، ادوارد فون، معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمود، ترجمة سيدة الكاشف وآخرون، مطبوعات جامعة فؤاد الأول، دم، ١٩٥١م، ص٢٣-٢٤، وسيشار إليه زامباور، معجم الأنساب.

[5]. صرّدر: علي بن محمد بن الحسن بن علي بن الفضل ابو منصور الكاتب، كان شاعراً مجوداً بديعاً جمع بين رقة الحديث، وقوة اللفظ، جزيل الكلام مع بلاغة معناه، مدح الخليفة القائم بأمر الله ووزرائه فخر الدولة بن جهير وولده عميد الدولة، وله ديوان شعر، انظر ترجمته، ابن النجار، محب الدين محمد بن-

واصفاً شهرتهم في قوله[1]: [الكامل]

للّـه أربعـةٌ بهـم هـذا الـورى	وكـذا حكـوا أنّ الطبـائع أربـعُ
إنّ الخليفـة للزمـانِ وأهلِـهِ	طـودٌ مـن الحدثـانِ لا يتضعضـعُ
وبنـو جَهِـيْر دَوحـةٌ فـي مُلكـه	أفنانُهـا وغصونُهـا تتفـرعُ
بوزيرهـا، وعميدهـا، وزَعيمهـا	وجَهِيْرهـا ابـداً يُضـرُ ويُنفَـعُ

المبحث الثاني: مشاركتهم في الحياة العامة.

تدرج بنو جهير في مناصب عدة قبل وصولهم إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية، وتسلمهم منصب الوزارة عند خلفائها في سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) كما أنّهم تنقلوا في خدمة أسرٍ متعددة، ومن هذه الأسر التي خدموا معها: العقيليون، المرداسيون، المروانيون.

- المطلب الأول: العقيليون "بنو عقيل" في الموصل:

هم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بطنٌ من عامر بن صعصعة[2]، كانت مساكنهم بالبحرين ثم انتقلوا إلى العراق وملكوا الكوفة وبلاد الجزيرة الفراتية وتغلبوا على الموصل واستقروا بها[3]، وكان لهم دورٌ كبير في الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة التي سكنوها خلال القرن الخامس الهجري/ الحاديْ عشر الميلادي.

= محمد بن الحسن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) ذيل تاريخ بغداد، صححه قيصر فرح، وزارة المعارف، الحكومة الهندية، ١٩٧٨م، ج٣، ص٢٩٣؛ وسيشار إليه ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٣٨٥.

(1). صرّدر، أبو منصور علي بن الفضل (ت٤٦٥هـ/١٠٧٢م) ديوان صرّدر، دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، ١٩٣٤م، ص٧٣، وسيشار إليه صرّدر، ديوانه.

(2). السمعاني، الأنساب، ج٩، ص٢٢؛ وانظر: ابن الأثير، اللباب، ج٢، ص٣٥٠.

(3). القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م، ص٣٦٦؛ وانظر: المعاضيدي، خاشع، دولة بني عقيل في الموصل، مطبعة شفيق، بغداد ١٩٦٨، ص٤١-٤٢، الديوه جي، تاريخ الموّصل، ج١، ص١٤٩-١٥٠.

اشتد التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية على الموصل بعد ان خضعت لحكم الأسرة العقيلية، ولكنّ أمراء بني عقيل تذبذب ولاءهم تارة للعباسيين واخرى للفاطميين وذلك حسب ما تقتضيه مصالحهم التي تهدف إلى المحافظة علي مركزهم ووجودهم في المنطقة(١).

ويظهر هذا التردد في الولاء منذ عهد الأمير مقلد بن المسيب الذي يُعد المؤسس الأول للدولة العقيلية(٢) في سنة (٣٨٦هـ/٩٩٦م)، فقد بدأت علاقته مع العباسيين ودية بعد أن خلع عليه خليفتهم لقب "حسام الدولة" وأقرّه على ما بيده من أملاك(٣)، ولم يستمر "المقلد" على هذا النهج طيلة عهده إذ سرعان ما غيَّر موقفه ومال إلى الفاطميين(٤). ولما قُتل "المقلد" تولى ابنه "قرواش" حكم الإمارة العقيلية(٥) واستقر فيها خمسين سنة(٦) وسار على نهج أبيه في سياسته مع الدولتين العباسية والفاطمية فحاول التوفيق في علاقته معهما، ففي سنة (٣٩٦هـ/١٠٠٥م) جَلس له الخليفة العباسي ولقبّه "معتمد الدولة" وأقره على جميع أملاكه(٧)، ولكنّ "قرواشاً" كان يميل إلى الفاطميين ويتقرب منهم، فما لبث في سنة (٤٠١هـ/١٠١٠م) أن دعا للخليفة الفاطمي على المنابر وقطع الخطبة عن العباسيين(٨)، ورد الفاطميون على ذلك بإرسال التحف والهدايا والأموال التي قدّر ثمنها بحوالي ثلاثين ألف دينار(٩)، وقبل وصول رسولهم مُحمَّلاً بهذه الأموال إلى الموصل بلغهم أن العقيليين قد قطعوا الخطبة عنهم وأعادوها للعباسيين على أثر تهديد وصلهم من البويهيين(١٠).

---

(١). بيطار، أمينة، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دار دمشق، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٣٨، وسيشار إليه البيطار، موقف أمراء العرب من الفاطميين.

(٢). ابن الاثير، الكامل، ج٧، ص١٨١، وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٦٠-٢٦١.

(٣). ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص١٨٢.

(٤). العاضيدي، دولة بني عقيل، ص٧٧.

(٥). ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٠٩.

(٦). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٦٧.

(٧). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٩٦.

(٨). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٧٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٥٣.

(٩). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص؟ وانظر: المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص٨٧.

(١٠). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٧٧-٧٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٥٣-٢٥٤.

ووقع خلاف بين أفراد البيت العقيلي سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) بسبب التنافس على الحكم بين الأخوين قرواش وزعيم الدولة أبي كامل "بركة بن المقلد"[١] وذلك بتحريضٍ من قريش بن بدران الذي عمل على توسيع الخلاف بين أعمامه ليستأثر هو بالحكم[٢]، وبعد قتال بين الطرفين أدرك زعيم الدولة" انه لن يقوى على مخالفة أخيه لذلك سارع إليه طالباً السماح منه والعفو ومعترفاً به أميراً للعقيليين[٣] ولكنّ زعيم الدولة حظي بنفوذ في البلاد يفوق نفوذ أخيه فاستغل ذلك واستولى من جديد على إمارة قرواش" وحَجّر عليه ومنعه من التصرف[٤]، واقام الأمير "بركة" في الإمارة سنتين[٥] وبعد وفاته حلّ مكانه ابن أخيه قريش بن بدران.

وما أن ظهرت القوة السلجوقية على مسرح الأحداث سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٤م) حتى انحاز العقيليون إليهم معلنين الطاعة والولاء للعباسيين والسلاجقة، فاقرَّ السلطان "طغرلبك" أميرهم "قريش" على ما بيده من أملاك[٦]، وكسابقيه ما لبث أن مال إلى الجانب القوي ليعزز حكمه، فقد استغلَّ فرصة خروج السلطان طغرلبك من البلاد وطمع في الاستيلاء على بغداد، وتحالف مع البساسيري فدخلها في سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م) وأقام الخطبة فيها للفاطميين[٧]، ولم تدم الأوضاع على ما آلت إليه فقد إختلف بنو عقيل مع الداعية الفاطمي "هبة الله الشيرازي" على الأموال[٨] وأدى ذلك إلى تفرّق كلمتهم وتشتتهم من حول الفاطميين، وصادف في هذه الاثناء عودة السلطان طغرلبك بقواته العسكرية إلى الموصل فدخلها وأعادها إلى العباسيين[٩].

---

[١]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٩.

[٢]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٠؛ وانظر: الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٣.

[٣]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٠.

[٤]. ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص٥٥؛ وانظر: الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٤.

[٥]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٦٧.

[٦]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٦٧-٦٨.

[٧]. الشيرازي، مذكرات داعي الدعاة، ص١٣١-١٣٢؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٣.

[٨]. الشيرازي، مذكرات داعي الدعاة، ص١٥١-١٥٢.

[٩]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠.

وبعد وفاة قريش بن بدران سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م) خلفهُ إبنه شرف الدولة مسلم بن قريش على حكم الإمارة[١] وقد توترت العلاقة بينه وبين الخلافة العباسية سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) وذلك عند وفاة السلطان طغرلبك حيث نزل الأمير إلى بغداد، وعاث فيها فساداً وخراباً[٢]، وسرعان ما تحسنت علاقته مع السلاجقة عندما قوي أمر السلطان ألب أرسلان، حيث سار إليه شرف الدولة وتقرّب منه ودخل بغداد فقدم الخليفة القائم بأمر الله له الخلع كناية عن صفاء العلاقات[٣].

حكم مسلم بن قريش حتى سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) حيث خلّفهُ أخوه إبراهيم الذي لم يمكث طويلاً على حكم الإمارة فقد قتل في أثناء صراعه مع السلاجقة، وتقاسم أفراد الاسرة العقيلية إمارة الموصل وانقسم العقيليون فيما بينهم حتى زال نفوذهم وتلاشى حكمهم نهائياً من الموصل[٤].

بدأ فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير حياته الإدارية الأولى في موطنه الموصل، فقد دخل في خدمة أمراء بني عقيل[٥]، بعد أن كان مشتغلاً بالتجارة[٦]، واحتلّ مكانة مرموقة بين أهلها فقد وصفه الفارقي بأنه "من أجلّ أهل الموصل"[٧] ولولا ذكاؤه وفطنته وقدرته على تدبير الأمور وضبطها[٨]، لما استطاع أن يرقى لهذه المنزلة الرفيعة، وبذلك حاز على ثقة العقيليين فقرّبوه منهم، وشارك في مجالسهم ومحاضرهم[٩]، وكانت أول الوظائف التي شغلها لهم عند

---

(١). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩١.

(٢). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ)، ص١٠٦–١٠٧.

(٣). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٤.

(٤). المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص٢٠٢–٢٠٣.

(٥). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٧٢.

(٦). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(٧). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٧.

(٨). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٣٧٢؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٧. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢.

(٩). الصابيء، غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال (ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م) الهفوات النادرة الجارية على ألسن المتحفظين والسقطات الآتية من الفارين الغافلين، تحقيق صالح الأشتر، دن، دم، ١٩٦٧م، ص٦،

الأمير "قرواش بن المقلد" إذ أنه أوكل إلى ابن جهير مهمة الإشراف على أملاكه وأمواله[1].

وقد تعرَّض "فخر الدولة" في أثناء خدمته مع العقيليين إلى حقد وحسد الوشاة الذين سعوا به لدى الأمير "قرواش" ومنهم صهر ابن جهير المدعو "ابن أبي العقارب"[2] وذلك لعداوةٍ قديمة كانت بينهما[3]، ومع أننا لم نقف على أسباب تأصل هذه العداوة بين الطرفين إلاَّ أنه من المحتمل أن يكون للمكانة العالية التي بلغها ابن جهير في بلاط بني عقيل أثر في ذلك، فأراد صهره التخلص منه وإبعاده عن الموصل، وقد نجح فيما عزم عليه ويبدو أن ابن أبي العقارب كان له ولأسرته أهمية عند العقيليين، ويتضح لنا ذلك عندما هدَّد بالنزوح مع أهله عن البلاد إذا لم يستجب الأمير "قرواش" لطلبه في نفي فخر الدولة، وأمام إصراره المتواصل فارق "فخر الدولة بن جهير" الموصل إلى حلب[4].

وهناك من يؤكد أنَّ "فخر الدولة بن جهير" بقي مقيماً في الموصل ولم يغادرها إذ أنه دخل في خدمة الأمير "بركة بن المقلد العقيلي"[5] بعد النزاع الذي نشب بينه وبين أخيه قرواش

= سيشار إليه الصابيء، الهفوات النادرة؛ وانظر: ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دن، دمشق، دط، ١٩٨٨م، ج٣، ص١٢٨٠، سيشار إليه ابن العديم، بغية الطلب.

(1). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٧٢؛ وانظر: الزهراني، محمد بن مسفر، نظام الوزارة في الدولة العباسية في العهدين البويهي والسلجوقي (٣٣٤هـ/٥٩٠هـ) مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠، ص١٤٥، وسيشار إليه الزهراني، الوزارة في الدولة العباسية.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٢.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٧.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٨.

(5). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٢؛ وانظر: أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الأفضل بن شاهنشاه الأيوبي (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) المختصر في اخبار البشر، دن، دم، دت، ج٢، ص٢٠٠، وسيشار إليه أبو الفداء، المختصر؛ ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن محمد بن محمد الحضرمي الأشبيلي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، مج٣، ق٥، ص٥٧٨، وسيشار إليه، ابن خلدون، العبر.

بسبب التنافس على الحكم[1] والذي أسفر عن انتصار الأمير "بركة" على أخيه، وتقلده إمارة الموصل في الفترة الواقعة بين (٤٤٢-٤٤٣هـ/١٠٥١-١٠٥٢م) [2].

قرَّب الأمير "بركة بن المقلد" فخر الدولة بن جهير، وأوكل إليه مهمة جليلة حيث أوفده في سفارةٍ إلى ملك الروم[3] "قسطنطين التاسع" (٤٣٤-٤٤٧هـ/١٠٤٢-١٠٥٥م) وكان قد "حضر عند الملك قسطنطين رسل ملوك الأرض ...." [4] وذلك في سنة (٤٤٣هـ/١٠٥١م)، وكان من بينهم رسول المرداسيين أمراء حلب الذي سار إلى القسطنطينية بالمال المقرر عليهم للروم[5]، كما وصل إلى هناك أيضاً رسول المروانيين[6]. أما سفارة ابن جهير للعقيليين فإننا لم نقف على معلومات تساعدنا في معرفة أهدافها أو الأسباب التي دفعت آل عقيل لاختياره في هذه المهمة، إلاَّ أنه من المحتمل أن يكون الدافع من وراء هذه السفارة توثيق العلاقات بين الطرفين البيزنطي والعقيلي في خضَّم الاضطراب السياسي السائد آنذاك.

وقد عادت هذه السفرة بالخير الوفير على فخر الدولة بن جهير، ومن جملة هذا الخير الذي أصابه ما وصفه ابن الطقطقا حين قال: "فاعطاه -يقصد ملك الروم- عشرين ألف دينار، فكانت أصل غناه ونعمته"[7] هذا فضلاً عن الإحترام والتقدير اللذين حظي بهما عند الروم بفضل قوة شخصيتهُ[8]، وبقي ابن جهير في هذه الرحلة مدة استمرت منذ بداية الصيف إلى

---

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٤، وانظر: الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٣-١٦٤.

[2]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

[3]. الصابيء، الهفوات النادرة، ص١١٥-١١٦؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩؛ ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٥، ص٥٧٨.

[4]. العظيمي، محمد بن علي الحلبي (ت٥٥٦هـ/١١٦١م) تاريخ حلب، تحقيق وتقديم إبراهيم زعرور، دمشق، دن، دط، ١٩٨٤م، ص٣٤١، وسيشار إليه العظيمي، تاريخ حلب.

[5].ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م) زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق، دن، ١٩٥٤م، ج١، ص٢٦٨، وسيشار إليه ابن العديم، زبدة الحلب.

[6]. ابن العبري، أبو الفرج، الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ الزمان، جان موريس فييه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م، ص٩٧، وسيشار إليه ابن العبري، تاريخ الزمان.

[7]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٤.

[8]. الصابيء، الهفوات النادرة، ص١١٦؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٣.

بداية فصل الربيع من السنة التالية[1]، ولما عاد إلى الموصل وجد الأمور قد آلت إلى الأمير "قريش بن بدران" الذي سرعان ما ساءت علاقته "بفخر الدولة بن جهير"، ويبدو أن العداوة الفردية التي استحكمت بين الأمراء العقيليين قد أثّرت على مصالح ابن جهير فقد عدّه "قريش ابن بدران" من خواص "بركة بن المقلد" وبالتالي يجب عدم التعامل معه فاضطُر الجَهِيْرِيّ إلى ترك موطنه الموصل وغادر البلاد متوجهاً إلى حلب[2].

وبقي "فخر الدولة" مخلصاً للأسرة التي خدم معها، واكتسب عندها مهارة إدارية زادت من شهرته ومكانته، وسيتضح هذا الإخلاص في سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م) -وكان في هذه الفترة في خدمة المروانيين- فبعد وفاة الأمير قرواش بن بدران كاد النزاع ينشب بين أبنائه بسبب التنافس على الحكم، فما كان من "فخر الدولة" إلاّ أن توجّه إليهم لحلّ الخلافات، واستطاع جمْعَ صفوفهم بعد أن كادت تتفرق، وذلك بتأميره أبي المكارم شرف الدولة مسلم بن قريش عليهم[3]، كما وعزز صداقتهم بأمراء الأطراف المجاورين عن طريق المصاهرة، فزوّج أميرهم الجديد من ابنة نصر بن أبي نصر بن مروان[4]، وبذلك وثق الروابط بين العقيليين والمروانيين وبدورهم بنو عقيل ظلوا يقدرون مكانته وخدمته عندهم على المدى البعيد بدليل أنه عند وفاته سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) قام أمراء آل عقيل وأعيانهم بحمل جنازته وشيعوه وشاركوا في دفنه[5].

---

[1]. الصابيء، الهفوات النادرة، ص١١٧.

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٢؛ وانظر: ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٣، ص٣٢١-٣٢٢؛ المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص١٥٨.

[3]. ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م) التذكرة الحمدونية، مخطوط مكتبة أحمد الثالث، نسخة مصورة في مركز الوثائق الجامعة الأردنية، شرط ميكروفلم رقم ٦٠٩، ج١٢، ورقة ٥٥أ وسيشار إليه ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩١؛ ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٣، ص٣٢٠.

[4]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٥ب، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٧.

[5]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٧.

وإذا كان بعض الباحثين قد اشار إلى أن "فخر الدولة بن جهير" قد تولى منصب الوزارة عند أمراء بني عقيل[1]، فإننا لا نجد ما يؤكد ذلك في المصادر التي أمكننا الاطلاع عليها وإنما اقتصر ما جاء فيها على أنَّ ابن جهير دخل في خدمة هذه الاسرة فقط[2].

- المطلب الثاني: المرداسيون "بنو مرداس" في حلب :

المرداسيون فرع من بني كلاب، وبنو كلاب بطنٌ من عامر بن صعصعة من عرب الشمال، كانت مساكنهم في الجاهلية بجوار يثرب، ثم انتقلوا إلى اليمامة بعد الإسلام واسسوا لهم دولة هناك وبعد ذلك انتقلوا إلى الجزيرة الفراتية واستقروا فيها[3].

تمكنَّ المرداسيون من تأسيس نواة لدولتهم في المنطقة الشمالية من بلاد الشام، وجعلوا مركزها حلب في سنة (٤١٥هـ/١٠٢٥م)، وذلك بفضل الجهود التي بذلها زعيمهم صالح بن مرداس[4]، وقد أثار هذا الإجراء امتعاض الدولة الفاطمية التي كانت تبذل جهوداً كبيرة للمحافظة على إبقاء حلب تحت نفوذها بهدف تأمين حدودها الشمالية المتاخمة للدولة البيزنطية[5].

---

[1]. زكار، سهيل، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية "دراسة تتناول قيام الامبراطورية السلجوقية وأحوال الشام عشية الغزو الصليبي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٩٧٥م، ص١٩٣، وسيشار إليه زكار، مدخل إلى الحروب الصليبية.

[2]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٧-١٤٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٢.

[3]. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص١١١؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٧٨؛ عبد المولى، محمد أحمد، بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجية مع دولتي الفواطم والروم (٤١٥-٤٧٢هـ/١٠٢٥-١٠٨٠م) دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٨٥، ص١١-١٢، وسيشار إليه عبد المولى، بنو مرداس.

[4]. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) تاريخ دمشق المعروف بذيل تاريخ دمشق (٣٦٠هـ/٥٥٥هـ) مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م، ص٧٢؛ وسيشار إليه، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨.

[5]. عبد المولى، بنو مرداس، ص١٩٧.

تذبذب موقف أمراء القبائل العربية في شمال الشام من الفاطميين واختلف بحسب الأحوال والظروف، إلاّ أن العلاقات المرداسية-الفاطمية اتسمت في معظم الاحيان بطابع العدائية بين الطرفين(١)، وهذا ما جعل بنو مرداس يلجأون أحياناً إلى البيزنطيين ويدخلون في تبعيتهم ولكن إذا ما كانوا يشعرون بقوتهم فإنهم لا يتوانون في التخلص من هذه التبعية.

لم يسكت الفاطميون على سيطرة المرداسيين لحلب، وظلوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم والقضاء على إمارتهم، ولتحقيق ذلك أرسلوا جيشاً فاطمياً التقى مع المرداسيين في سنة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) بالقرب من الإقحوانة(٢) وتمكنّ الفاطميون من إحراز النصر بعد ان قتل صالح بن مرداس في هذه المعركة(٣)، فاستغلّ الروم هذه الأحداث لتعزيز وجودهم في المنطقة ظناً منهم أن بني مرداس منهكو القوى لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم فارسلوا حملتين عسكريتن إلى حلب الأولى في سنة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) (٤) والثانية في السنة التالية(٥)، وقد منيت هذه الحملات بالفشل الذريع، ومع ذلك فإن آل مرداس أدركو أنهم لن يستطيعوا الصمود طويلاً أمام الهجمات البيزنطية المتكررة على حلب لذلك عقدوا اتفاقية مع الروم في سنة (٤٢٢هـ/١٠٣١م) نصت على تبعية المرداسيين لملك الروم(٦).

استمرت العلاقات السلمية بين المرداسيين والروم حتى سنة (٤٢٦هـ/١٠٣٥م) فعندما شَعَر المرداسيون بقوتهم على أثر الضعف الذي ساد الدولة البيزنطية آنذاك(٧) بادروا بطرد

(١). البيطار، موقف أمراء العرب من الفاطميين، ص٣٦٠.

(٢). الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٧م) تاريخ الانطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس ١٩٩٠م، ص٤١١، سيشار إليه، الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٧٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٣٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٣١، والأقحوانة: بليدة في الشام من أعمال فلسطين بالقرب من طبرية، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٨٨.

(٣). ابن الأثير، الكامل، ج٧، ٣٣٣؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٨٨.

(٤). الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص٤١٢؛ وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٣٩-٢٤٠.

(٥).الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص٤١٤؛ وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٤٠.

(٦).الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص٤٢٢؛ وانظر: ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٥٧.

(٧).الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ص٤٣٠.

النائب الرومي من حلب[1] كدليل عن تحررهم من التعبية البيزنطية.

وجد الفاطميون فرصتهم سانحة لبسط نفوذهم على حلب من جديد، ولضمان حياد الدولة البيزنطية اتفق معهم الفاطميون على ان لا يساعدوا المرداسيين في حال دخولهم في نزاع مع الفاطميين[2]، فارسلوا على إثر هذا الاتفاق جيشاً فاطمياً تمكّن من اخضاع مدينة حلب، وبذلك عادت إلى ظلّ التبعية الفاطمية واستمرت طيلة الفترة الممتدة بين السنوات (٤٣٣-٤٥٢هـ/١٠٤٢-١٠٦٠م) [3].

لم يلتزم ثمال بن صالح بن مرداس بتقديم عوائد التبعية وامتنع عن إرسال الأموال المترتبة عليه إلى مصر[4]، مما أدى إلى تدهور العلاقات مع الفاطميين الذين ردّوا على ذلك بإرسال حملتين لتأديب المرداسيين الأولى كانت في سنة (٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ولما أخفقت بتحقيق أهدافها عززوها بحملة ثانية في السنة التالية[5] وبعد فشل الحملتين وإنهزام الدولة الفاطمية أدرك ثمال بن صالح انّ انتصاراته هذه لن تدوم طويلاً وأنه لن يقوى على مواجهة الفاطميين من جهة والروم من جهة أخرى، لذلك فإنه إتبع سياسة متوازنة مع كلا الدولتين[6] تمثلت بالصلح والمسالمة، فأرسل بسفارة محملة بالهدايا إلى مصر لإعلان الولاء والتبعية، فرد عليه الخليفة الفاطمي بإعطائه "توقيعاً بحلب وسائر أعمالها"[7] كما أرسل ثمال بن صالح رسولاً إلى القسطنطينية بالمال المقرر عليه في كل سنة[8]، وبعد ذلك أخذت النزاعات الفردية تعصف بافراد البيت المرداسي حتى انهارت الإمارة وتلاشت عن الوجود.

---

(1). ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص٩.

(2). ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٥٠-١٥١.

(3). عبد المولى، بنو مرداس الكلابيون، ص٩١.

(4). ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٥.

(5). ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٥.

(6). البيطار، موقف أمراء الأطراف، ص٢٧٠.

(7). ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٨.

(8). ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٨.

تقلّبت الأحوال بابن جهير إلى ان وصل إلى حلب وذلك في سنة (٤٤٢هـ/١٠٥٠م) وكانت في تلك الفترة تُحكَم من قِبلْ الاسرة المرداسية، وعند مجيئه تولى منصب الوزارة للأمير المرداسي "ثمّال بن صالح"[١] وكان ذلك بعد خروجه من عند العقيليين، ويبدو أن فخر الدولة بن جهير قد استغلَّ سوء العلاقات والعداوة المستمرة التي استحكمت بين أمراء الأطراف في كلّ من الجزيرة الفراتية وبلاد الشام الشمالي، للتنقل بين تلك المناطق، حيث كان النزاع بين الخلافتين العباسية والفاطمية قد اشتد واصبح التنافس بينهما كبيراً لاستقطاب هؤلاء الأمراء إلى جانبهم ولا سيَّما أن هناك خلافاً مذهبياً متمثلاً بالمذهب السني الذي يمثله العباسيون والمذهب الشيعي الذي يمثله الفاطميون، أمّا أمراء القبائل فإنهم كانوا متذبذبي الولاء والطاعة لكلا الدولتين، وذلك حسب ما تقتضيه مصالحهم وطموحاتهم الشخصية، مما أدّى إلى وجود تنافس وصراع مستمر بينهما.

وعمل فخر الدولة بجدٍّ في منصبه الجديد مما أدى لرفع منزلته عند الأمير "ثمال" فقرَّبه منه[٢]، "وفوّض أموره جميعها إليه، فاستقامت، وتضاعف ارتفاعه وضبط أمواله ..." [٣] ولكنَّ خصمه "ابن أبي العقارب" ظلَّ يلاحقه ويسعى به للمرداسيين[٤] ولما كان "ثمال بن صالح" من المحبين لابن جهير المقدرين لكفاءته، نبَّهه إلى ما يحاك ضده من مؤامرات فاستأذن "فخر

---

[١]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٢؛ ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٧٢، ابو الفداء المختصر، ج٢، ص٢٠٠؛ الذهبي، السير، ج١٨، ص٦٠٨؛ ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م) تتمة المختصر في اخبار البشر، المطبعة الحيدرية، النجف، ط٢، ١٩٦٩م، ج٢، ص١٠، سيشار إليه ابن الوردي، تتمة المختصر.

[٢]. الصابيء، الهفوات النادرة، ص٢٣٧.

[٣]. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٩؛ وانظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج٢، ص٦٤٦. وسيشار إليه، المقريزي، المقفى الكبير.

[٤]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٨.

الدولة" في الخروج وغادر حلب[1] بعد أن عزل عن منصبه في سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٥م)، فبلغت مدة وزارته للمرداسيين ما يقارب ثلاث سنوات قضاها في تكريس جهوده لخدمتهم.

– المطلب الثالث: المروانيون "بنو مروان" في ديار بكر

حكم المروانيون في إقليم ديار بكر الواقع في الجزيرة الفراتية وذلك بعد انقضاء الحكم الحمداني من تلك المنطقة، فأستغل شخصٌ يدعى باذ ابو عبدالله الحسين بن دوسك تدهور الوضع وسارع لبسط نفوذه عليها، فأسَّسَ بذلك نواة الإمارة المروانية التي ظلت قائمة حتى سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م) [2].

وتعاقب على حكم هذه الإمارة عدد من أفراد هذه الاسرة إلى أن آلت إلى أحمد بن مروان "نصر الدولة"[3] أعظم أمراء هذه الدولة على الإطلاق حيث استمر في حكم المروانيين ما يقارب ثلاث وخمسون سنة[4]، وعلا شأنه وعظم قدره، وتقررت شؤون دولته مع ما عُرف عنه من فعل الخير وعدل في الرعية[5] ولتثبيت دعائم حكمه بادر إلى توثيق علاقته مع من جاوره من الأمراء متخذاً من علاقات المصاهرة أساساً لذلك، إذ أنه تزوج من بنت شرف الدولة قرواش بن المقلد العقيلي[6].

ولم يكن الأمير "احمد بن مروان" بمنأى عما يدور من أحداث واضطرابات سياسية في بغداد، كثورة البساسيري وما أحدثته من تغيير على مجرى الأحداث، وقد أثبت ابن مروان

---

[1]. ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٩؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج٢، ص٦٤٦؛ زكّار، سهيل، إمارة حلب، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت، ص١٧٠، وسيشار إليه زكّار، إمارة حلب.

[2]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٦٠-٦١.

[3]. أبو نصر بن مروان الكردي، صاحب ديار بكر وميافارقين، حسن السياسة، كثير الحزم كانت دولته مزدهرة ويملك الكثير من الأموال، وله اهتمامات كثيرة بالعلم والعلماء، رخصت الاسعار في زمانه وتظاهر الناس بالرخاء، وعاش ما يقارب ٧٧سنة؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٧٠-٧١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩١-٩٢.

[4]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٧٨.

[5]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٣.

[6]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٢١.

اخلاصه للعباسيين في خضمّ أحداث هذه الثورة ورفض الاستجابة للإغراءات التي قدّمها له الفاطميين في سبيل استقطاب ولائه لهم بعد المراسلات التي قاموا بها[1]، وعزز ابن مروان صداقته تلك بإرساله التحف والهدايا إلى بغداد وإيوائه السيدة زوجة الخليفة القائم بأمر الله وولدها "الأمير عدة الدين" اللذان ساراً إلى ديار المروانيين للاحتماء هناك من وجه البساسيري[2].

وبعد وفاة الأمير أحمد بن مروان اندلعت الثورات والحروب الداخلية بين أبنائه على حكم الإمارة المروانية، وظلت هذه النزاعات الفردية تعصف بأركان البيت المرواني حتى أنها فتحت المجال أمام قيادات خارجية للتدخل في شؤونها الداخلية، وانهار حكم هذه الاسرة على أيدي السلاجقة، وبالأخص على يد وزيرهم السابق فخر الدولة بن جهير[3].

توجه فخر الدولة بعد خروجه من حلب إلى ملطية[4] وأقام بها مدة[5]، ولكنه لم يستسلم بسهولة لما آلت إليه أيامه، لأنه تمرّس في الحياة الإدارية، ومارس الشؤون السياسية، لذلك اتجه بأنظاره صوب أمراء بني مروان حكّام ميافارقين[6] وبالأخص إلى الأمير نصر الدولة "أحمد بن مروان" وبدأ بمراسلته عن طريق القاضي "ابو علي بن البغل[7]" قاضي آمد[8]، وطلب منه التوسط له مع الأمير "نصر الدولة" للقدوم إليه والدخول في خدمته، فرفض الأمير

---

(1). الشيرازي، مذكرات داعي الدعاة، ص١٧٦.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥٩؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٩٥.

(3). زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص٩٢-٩٤.

(4). ملطية: بلدة مشهورة تتاخم الحدود بين الشام وبلاد الروم، انظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله بن عبدالله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجنيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، ج٥، ص١٩٢-١٩٣، وسيشار إليه، ياقوت الحموي، معجم البلدان.

(5). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٣؛ انظر ابن خلدون، العبر، مج٣، قسم٥، ص٥٧٨.

(6). ميافارقين: اشهر مدينة بديار بكر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥.

(7). أبو علي بن البغل: أبو علي الحسن بن علي الآمدي من أكابر أهل آمد، وأجلّهم مكانة، وهو من الأثرياء فكان له أموال وعقارات كثيرة، كما أنه من المقربين عند الأمراء وله حرمة ومنزلة، انظر الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٦.

(8). آمد: مدينة مشهورة من مدن دياربكر، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٦.

المرواني طلبه هذا في بداية الأمر وقال: "لو كان فيه خير لما خرج من بلده"[1]، والحقيقة أن نصر الدولة كان متحاملاً على ابن جهير لأمورٍ جرت بين "فخر الدولة" ورسول ابن مروان في بلاط ملك الروم أثناء سفر فخر الدولة لبركة بن المقلد العقيلي هناك، حيث تقدّم على الرسول المرواني قائلاً: "أنا أستحق التقدم عليه، لأن صاحبه يؤدي الخراج إلى صاحبي"[2] وفي هذا احتقار لمكانة المروانيين الذين عدّهم ابن جهير خاضعين لسلطة أمراء آل عقيل.

وجاءت الظروف في صالح "فخر الدولة" وذلك عندما خلا منصب الوزارة المروانية بعد وفاة وزيرهم ابن المغربي[3]، فارسل "نصر الدولة" إلى القاضي ابن أبي البغل يطلب منه استدعاء "فخر الدولة بن جهير" إلى آمد ليسلمه منصب الوزارة المروانية[4]، فلما قدم إليه سأله الأمير "نصر الدولة" :"كيف أمنتني وقد فعلت برسولي ما فعلت عند ملك الروم فرد فخر الدولة: حملني على ذلك نصح صاحبي فأعجب به الأمير واستوزره[5]" وكان يتوفر فيه من الصفات ما يحمل الأمراء على استيزاره، فقد عرف بالحزم والعقل السديد الراجح[6]، وكان للشهرة التي بلغها عند المروانيين وقبلها عند العقيليين أثرٌ في تطلّع المروانيين إليه، ومراسلته بالوزارة لهم.

وتعارضت الآراء بين المؤرخين حول تاريخ وزارة فخر الدولة عند المروانيين، فالفارقي المؤرخ المرواني يذكر بأنه تسلم منصبه في حدود سنة (٤٣٠هـ/١٠٣٨م) أو ما

---

[1]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٨.

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٣.

[3]. ابن المغربي: أبو القاسم الحسين بن علي، من الرؤساء المعروفين بحسن الإدارة، تسلم الوزارة للفاطميين ثم وزارة البويهيين، ودخل في خدمة العقيليين، وانفصل عنهم ثم وزر للمروانيين حتى آخر حياته، انظر الفارقي، الدولة المروانية، ص١٢٨-١٣٠؛ ابن العديم، بغية الطلب، ج٣، ص١١٣٥.

[4]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٩-١٥٠؛ وانظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، (ت٧٧٤هـ/١٢٧٣م)، البداية والنهاية في التاريخ، دار الكتب العلمية بيروت، ط٣، ١٩٨٧م، ج١٢، ص٩٣، سيشار إليه، ابن كثير، البداية والنهاية.

[5]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٣.

[6]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١.

يقاربها[1]. بينما يرى ابن العديم أن فخر الدولة خرج من حلب متوجهاً إلى المروانيين في سنة (٤٤٦هـ/١٠٥٤م) [2]، وهذا ما أكَّده الذهبي أيضاً بقوله: أن ابن جهير وزر لهم في نفس عام (٤٤٦هـ) [3]، وبالرغم من أن "الفارقي" هو أقرب المؤرخين ذكراً للأحداث إلا أن روايته ضعيفة، ولا يؤخذ بها على اعتبار أن إبن جهير في هذه الفترة يعني سنة (٤٣٠هـ) كان في خدمة بني عقيل وانه بقي عندهم حتى عام (٤٤٣هـ/١٠٢٨م)، ثم خرج إلى حلب ووزر هناك للأمير ثمال المرداسي سنة (٤٤٣-٤٤٦هـ/١٠٥١-١٠٥٤م)، فهذا ينفي أن يكون قد وزر لابن مروان في هذا الوقت المبكر الذي أشار إليه الفارقي.

ولقي فخر الدولة بن جهير ترحيباً كبيراً من الجميع عند قدومه إلى المروانيين فقد خرج القاضي ابن أبي البغل وأهالي آمد وكبارها لاستقباله وأكرموا وفادته وأغدقوا عليه الأموال وألطاف الهدايا، ثم تابع سيرهُ متوجهاً إلى ميافارقين حيث الأمير نصر الدولة أحمد بن مروان. وقد حمل معه هدايا كثيرة للأمير وجميع حاشيته وخدمه[4].

وبتسلمه المنصب الجديد تمكّن ابن جهير من إظهار كفاءة وقدرة إدارية كبيرة[5] فأُعجب به الأمير "نصر الدولة" وأحسن إليه وأكرمه وقرَّبه منه[6] وأغدق عليه من الأموال الشيء الكثير، فأثرى عنده ثراءاً كبيراً[7]، ثم أنعم عليه بمنحه لقب "كافي الدولة"[8] كما سعد به أهل البلاد من العامة والخاصة وكانوا يتفاخرون ويتباهون بوزارته لهم[9].

---

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١.

(2). ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٢٦٩.

(3). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١.

(5). خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦.

(6). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٣.

(7). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣؛ وانظر: خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦.

(8). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٥ب؛ وانظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(9). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨١؛ وانظر: ابن شدّاد، عز الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الخاص في الجزيرة=

وبدوره "فخر الدولة" استطاع ضبط الأمور، وأحسن سياسته مع الرعايا فعدل بينهم، وقربهم منه عن طريق بذل الأموال وإغداقها عليهم[1] فنال بذلك رضاهم وثقتهم ومحبتهم وغدا عندهم صاحب نفوذٍ كبير، وأصبح كما يقول الفارقي: "وحصل إليه الحلّ والعقد، وفوضت إليه جميع الأعمال"[2] ووصف ابن خلكان ما آل إليه أمر فخر الدولة فقال: أنه كان "نافذ الكلمة مطاع الأمر"[3].

وخلال مدة وزارته للمروانيين التي امتدت طيلة السنوات (٤٤٦-٤٥٤هـ/١٠٥٤-١٠٦٢م) أظهر ابن جهير فيها براعة وتنظيماً شمل نواحي عدة؛ فمن الناحية العمرانية، ساهم في عمارة البلاد[4]، وقام بإنجازات، منها بناؤه المسجد الجامع الذي يسمى مسجد الشيخ، كما بنى داراً وبجانبها حمّاماً وفندقاً لخدمة المسافرين[5]، وتولى كذلك عمارة المصنع الذي أمر "نصر الدولة" ببنائه وقد تميّز بحسن عمارته ومتانة بنيانه[6].

كما برع "فخر الدولة" في تنظيم الأمور المالية حيث إطلّع على خزائن المروانيين وثرواتهم[7]، وكان يتوكل بجمع الأموال من أصحابها في أيام الحروب[8]، فملك بذلك خبرة جيدة. وستتضح أهمية هذه الخبرة عند الحديث عن سياسته المالية في المنطقة عندما عيّن عليها والياً للسلاجقة.

وكان لابن جهير نشاط واهتمام بالناحية العسكرية وإن لم يشر إلى ذلك بنصٍ صريح الا أن أقوال بعض المؤرخين تؤيد ذلك، فابن حمدون يشير إلى أن الثغور قد وصفت بكثرة

=الفراتية، تحقيق يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨م، ج٣، ق١، ص٣٧٠، وسيشار إليه، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة.

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١.

(3). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٧٢.

(4). ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص١٥٣.

(5). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٤٢.

(6). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٦٨-١٦٩.

(7). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٣.

(8). ابن العديم، بغية الطلب، ج٣، ص١١٣٠.

العمران والضبط عند وفاة الأمير "نصر الدولة" أمير ميافارقين في سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م) [١]، وذلك في أثناء وزارة فخر الدولة بن جهير، ويذكر ابن العديم أنه كان في ايام "احمد بن مروان" سلاح كثير وجيش عظيم بلغ تعداده عشرة آلاف رجل وأربع عشرة داراً للمرابطين وكلُّ ذلك في وزارة فخر الدولة بن جهير لابن مروان[٢].

أخلص ابن جهير في خدمته للمروانيين، ولم يتوانَ في سبيل الحرص على مصلحتهم من الإيقاع بالقاضي "ابن أبي البغل" الذي كان له الفضل بوصول بني جهير إلى المروانيين، وكان ذلك عندما سمع بأن هذا القاضي يحاول إستمالة الناس إليه في آمد بالكلام والمال، فعمل فخر الدولة على تحريض الأمير نصر الدولة عليه وطالبه بنقله من آمد إلى ميافارقين ليبقى تحت نظره وبالفعل تمَّ إحضاره[٣] وهو في واقع الأمر تحت رقابة ابن جهير، وإذا كان في هذا الإجراء ما يشير إلى حرص فخر الدولة على مصلحة دولته، فلا يفوتنا ذكر ما كان يرمي إليه هذا الوزير من نقل القاضي ووضعه تحت رقابته، فيبدو أنه قد خشي من ازدياد نفوذ ابن أبي البغل، واجتماع الناس حوله مما يترتب عليه منافسته في المكانة والجاه لابن جهير الذي غدا الرجل الثاني في البلاط المرواني بعد الأمير، وهكذا كان لابدَّ من التخلص من أي منافس له ولعلَّ هذه الحادثة فيها دلالة على أنَّ فخر الدولة كان على اطلاع بما يدور في المناطق التابعة للحكم المرواني ومتابعاً لإخبارها، فعندما علم بنبأ القاضي ابن أبي البغل سارع لوقفه عما كان يخطط له.

كما ساهم فخر الدولة بن جهير في تنشيط السياسة الخارجية للدولة المروانية، فقد كان للصفات التي تميَّز بها من رجاحة العقل وقدرة في التدبير أثر كبير في مبادرة امراء الأطراف المجاورين لديار بكر لاستقطاب صداقته[٤] فراسلوه وهنأوه بما وصل إليه من منزلة ومكانة

---

[١]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٥ب.

[٢]. ابن العديم، بغية الطلب، ج٣، ص١١٣١.

[٣]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٤-١٧٥؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٦٤-٣٦٥.

[٤]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

عظيمتين، وخاطبوه بلقب الشيخ الأجل، الناصح، كافي الدولة[1]، وبذلك كسب ثقة الأمراء المجاورين للدولة المروانية وصداقتهم، وعلى إثر ذلك انهالت عليه وفود الشعراء بالتهنئة والمديح[2].

ومن المواقف السياسية لابن جهير في أثناء وزارته للمروانيين هو ما فعله عندما لجأت السيدة زوجة القائم بأمر الله إلى ميافارقين هروباً من البساسيري حيث بقيت مقيمة عند الأمراء المروانيين حتى هدأت الأوضاع في بغداد، ولما ارادت العودة حمّلها ابن مروان من الأموال والهدايا ما قيمته مائتا ألف دينار[3] ويقول الفارقي في هذا الصدد: "فحصَّل لنصر الدولة بذلك من الصيت والذكر والاسم ما ليس بقليل، وكان المرتب لذلك فخر الدولة بن جهير"[4].

وبعد وفاة الأمير نصر الدولة أحمد بن مروان ساس فخر الدولة الأمور أحسن سياسة وآلت مقاليدها إليه[5]، وأصبح الآمر الناهي، فهو الذي استقدم الأمير نظام الدين -أصغر أبناء الأمير نصر الدولة- وبايعه بالإمارة وهنأه بها معلناً بذلك ولاءه وطاعته[6]، وكان هذا الإجراء حرصاً منه على المصالح المروانية لأن الأمير نظام الدين رغم صغر سنه إلا أنه عرف بسداد الرأي وحسن التدبير[7].

وسرعان ما دبَّ النزاع بين أفراد الأسرة المروانية، وحدث الإنشقاق بين صفوف أفرادها بسبب التنافس على الحكم، وثارت القلاقل بين الشقيقين "نظام الدين" وأخيه الأكبر سعيد فتدخَّل فخر الدولة في هذا النزاع وتمكن من حلِّه، وضبط الأوضاع بعد إجتماعه مع الأمير سعيد وتحذيره من سوء العاقبة وما تجرّه الحروب من الدمار على الدولة، ولم يكتف بذلك بَل

---

(1). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥٩.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥٩-١٦٠.

(5). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٤؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٦٦.

(6). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٥ب؛ وانظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٢؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٦٧.

(7). ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٦٧.

أرضاه بالأموال وأقطعه مدينة آمد[1]، ومال ابن جهير إلى جانب نظام الدين فسفَّر له أمواله خارج البلاد[2]، ومن الطبيعي أن يقرَّه الأمير الجديد وزيراً له، فنظَّم فخر الدولة أمور المروانيين على ما كانت عليه من الازدهار والتقدم أيام "نصر الدولة"[3] ولكنه لم يستمر طويلاً في وزارته لدى الأمير الجديد.

وإذا كان لابد من الحصول على تفويض شرعي يخولُ أمراء الدول من ممارسة سلطاتهم في إماراتهم فقد شرع فخر الدولة بن جهير في تحصيل هذا التفويض من مصدر السلطة الشرعية -الخليفة العباسي- للامير الجديد من أجل تثبيت سلطته في بلاده ودعمها، وردَّ عليه الخليفة القائم بأمر الله برسالة فيها استجابة بتأميره نصر بن احمد بن مروان على ميافارقين وذلك في سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) [4]، ويبدو واضحاً من خلال ما ورد في رد الخليفة على طلب فخر الدولة بن جهير السابق المكانة التي نالها عند الخليفة القائم بأمر الله فقد بدا بمخاطبته بالرئيس فقال: "وصل ما أصدره الرئيس ناطقاً بما لا يزال متوفراً على إحكام مبانيه، وإلحاق تواليه فيه بمبادية ...." [5] كما يشيد الخليفة بسداد رأيه وحسن تدبيره، فيضيف قائلاً: "... ووقعت الإجابة الشريفة إلى كلِّ ما أقترح في بابه مما استدل به على سداد الرأي وصوابه، واعيد رسوله فلان نجيح المسعى ظافراً بكلِّ ملتمس ومبتغى..."[6]، فقد كان الخليفة مقدراً للجهود التي قام بها ابن جهير في العمل على استقرار الأوضاع في ديار المروانيين.

---

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨٠-١٨١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٢؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ص١١٩.

(2). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(3). ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص١٧٢.

(4). عقلة، عصام مصطفى، الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة، دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الاردنية، ١٩٩٧م، ص٨٨، وسيشار إليه عقلة، الخلافة العباسية.

(5). ابن الموصلايا، أمين الدولة العلاء ابن الموصلايا (ت٤٩٧هـ/١١٠٤م)، رسائل أمين الدولة، دار الكتب الوطنية تونس، رقم ١٤٧١٢، نسخة مصورة في مكتبة جامعة اليرموك، ميكروفلم، ورقة ١٩٢ب، وسيشار إليه، ابن الموصلايا، رسائل امين الدولة.

(6). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ١٩٣أ.

وبذلك كانت وزارته لبني مروان مرحلة مهمة في حياة فخر الدولة بن جهير، لأنها أعطته شهرة بلغت الآفاق، كما أنه زاد خبرة في ممارسة الشؤون السياسية والإدارية وهذا سيكون له أثرٌ هامٌ في حياته المستقبلية، فضلاً عن ذلك فقد غدا صاحب أموال طائلة فزاد بهذا الثراء نفوذاً وجاهاً.

ومن خلال استعراض المناصب التي شغلها بنو جهير ممثلين برب هذه الاسرة، فخر الدولة، نستطيع القول أنهم كانوا من طلابي المناصب الإدارية والمجد السياسي. ونلحظ هذا من خلال اشتغالهم عند العديد من الأسرة الحاكمة وفي مناطق متعددة، كما أنهم استطاعوا الوصول إلى ما كانوا يصبون إليه بفضل قدرتهم الإدارية وحنكتهم السياسية وتفكيرهم السليم بمصالحهم، وبذلك وضعوا أولى لبنات بناء مجدهم السياسي الذي سرعان ما سيكتمل بناؤه بوزارتهم للخلفاء العباسيين.

الفصل الثاني

وزارة بني جهير للخلفاء العباسيين

- المبحث الأول: نظرة مجملة للتدخل السلجوقي في الوزارة العباسية.
- المبحث الثاني: الوزراء من بني جهير وأحداث الدولة العباسية.
  - المطلب الأول: وزارة فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير (٤٥٤-٤٧١هـ/١٠٦٢-١٠٧٨م).
    - وزارته للخليفة القائم بأمر الله (٤٥٤-٤٦٧هـ/١٠٦٢-١٠٧٤م).
    - وزارته للخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٧١هـ/١٠٧٤-١٠٧٨م).
  - المطلب الثاني: وزارة أبي منصور عميد الدولة محمد بن محمد ابن محمد جهير (٤٧١-٤٩٣هـ/١٠٧٨-١٠٩٩م).
    - وزارته للخليفة المقتدي بأمر الله (٤٧٢-٤٧٦هـ/١٠٧٩-١٠٨٣م).
    - وزارته للخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٤٩٣هـ/١٠٩٤-١٠٩٩م).
  - المطلب الثالث: وزارة أبي القاسم علي بن محمد بن جهير للخليفة المستظهر بالله (٤٩٦-٥٠٧هـ/١١٠٣-١١١٣م).
  - المطلب الرابع: وزارة المظفر الحسين بن علي بن محمد بن جهير للخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٥-٥٤١هـ/١١٤٠-١١٤٦م).
- المبحث الثالث: الألقاب التي لقب بها وزراء بني جهير في أثناء وزارتهم للعباسيين
- المبحث الرابع: نوع الوزارة التي تقلدها بنو جهير للعباسيين.
- المبحث الخامس: موقف العامة في بغداد من وزارة بني جهير.

الفصل الثاني

وزارة بني جهير للخلفاء العباسيين

المبحث الأول: نظرة مجملة للتدخل السلجوقي في الوزارة العباسية

بدخول السلاجقة بغداد سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) بدأت الدولة العباسية مرحلة جديدة من مراحل بنائها، واسترجع الخليفة بعض صلاحياته التي فقدها أثناء السيطرة البويهية، ويصف ابن الطقطقا حال الوزارة فيها بقوله: "لم يبقَ لها -يعني الخلافة- رونق ولا وزارة، وتملك البويهيون، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم"[1] وألغى البويهيون منصب الوزارة العباسية واكتفوا بتعيين كاتباً لإدارة شؤون الخليفة[2]، وبذلك ضاع منصب الوزارة وفقد هيبته.

وفي العصر السلجوقي عاد للخليفة حقه في اتخاذ واختيار وزيرٍ له[3] ومع ذلك بقي السلاجقة يتدخّلون في نصب الوزير العباسي وخلعه حسب مصالحهم[4]، وقد انعكس حال الخلافة على حال الوزارة فإذا كان الخليفة قوياً ذو نفوذ وسلطة أثّر ذلك في وزيره والعكس

---

(1). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٨٨.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٤٣-٤٤؛ وانظر: اليوزبكي، توفيق سلطان، الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية (١٣٢-٤٤٧هـ)، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، ط٢، ١٩٧٦م، ص٢٥٢؛ الشريف، حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م، ص٥٧٩، سيشار إليه، الشريف، العالم الإسلامي؛ الخالدي، فاضل، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، مجلة الأقلام، ج١٠، سنة ٣، ١٩٦٨م، ص٦٥، وسيشار إليه: الخالدي، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي.

(3). أمين، حسين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص١٨٩؛ وسيشار إليه حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي؛ وانظر: للمؤلف نفسه، نظام الحكم في العراق في العصر السلجوقي، مجلة سومر، ع٢٠، ١٩٦٤م، ص٢١٤، وسيشار إليه حسين أمين، نظام الحكم في العراق؛ klausner. carla: The Seljuk Vezirate a study of civil apministration 1055-1194; Distributed for the center for middle eastern; Studies of harvard university, 1973, p27.

(4). حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص١٨٩.

صحيح. ويمكن القول أنه في هذه المرحلـة تقلّص نفـوذ الـوزراء بتقلـص نفـوذ الخلفـاء[١]، ولا سيّما أن السلطان هو المستبد على الخليفة في هذا الوقت[٢].

شكّل منصب الوزارة أهمية كبيرة في هذه المرحلة واعتـبر مـن أهـم المنـاصب الإداريـة سواء كان ذلك بالنسبة للخلفاء أم السلاطين[٣]، وذلك لأن "أزمّة أمور الملوك بأكف الـوزراء"[٤] وإدراكاً لأهميـة هـذا القـول بـادر السـلاطين بجعـل وزيـر الخليفـة تابعـاً لهـم، لا يقـوى علـى معارضتهم، وإن فعل ذلك فإنه معرَّضٌ للطرد والعزل عن منصبه[٥].

ومن ناحية أخرى فقد تمادى سـلاطين السـلاجقة بتدخلهـم فـي شـؤون الخلافـة إلـى حـدٍّ جعلهم يفرضون على الخلفاء وزراءهم، بل ارادو في بعض الأحيـان تعييـن وزراء مـن قبلهـم ليكونوا عيناً لهم في البلاط العباسي[٦]، وإذا كانوا قد تغاضوا في أحيانٍ كثيرة عن تقليد الخليفـة لمن يريده من الوزراء فإن ذلك يعود إلـى معرفتهـم مسـبقاً بـأن هـؤلاء الأشـخاص لا يشـكلون خطراً على المصالح السلجوقية في بغداد[٧].

ترتب على وجود وزيرين إحد هما للسلطان، وآخر للخليفة حدوث احتكاك دائم بينهما[٨]،

---

[١]. الخالدي، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص٦٨.

[٢]. ابن خلدون، العبر مج٤، ق٣، ص٣٢٢.

[٣]. عباس إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة كمال حلمي، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٤م، ص٤٣، وسيشار إليه إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة.

[٤]. الطرطوشي، محمد بن الوليد بن محمد الفهري (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) سراج الملوك، تحقيق جعفر البيـاتي، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٠م، ص٢٢٤، وسيشار إليه الطرطوشي، سراج الملوك.

[٥]. حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص١٩٠؛ وانظر: بيات، فاضل مهدي، السياسة السلجوقية فـي العـراق، مجلـة المـؤرخ العربـي، ع١٨، ١٩٨١، ص١٠٤، وسيشـار إليـه بيـات، السياسـة السـلجوقية فـي العراق.

[٦]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٠أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٤٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمـان، حـوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٤؛ الخـالدي، الـوزارة فـي العهديـن البويهـي والسـلجوقي، ص٦٦.

[٧]. بيات، السياسة السلجوقية في العراق، ص١٠٦.

[٨]. الزهراني، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص١١٩، وانظـر: شـندب، محمـد حسـين، الحضـارة الإسلامية في بغداد (٤٦٧-٥١٢هـ)، دار النفائس، بغـداد، دت، ص٨٨، وسيشـار إليـه شـندب، الحضـارة الإسلامية.

وتنافس مستمر من أجل الوصول لمكانة خاصة في نفس كلٍّ من الخليفة والسلطان، وكان الوزير السلجوقي أعلى شاناً ونفوذاً من نظيره العباسي فإذا ما غضب عليه فإنه يتدخل مباشرة لعزله[١]، وكان هذا النفوذ مستمداً من نفوذ السلاطين العظام[٢].

كما حظي الوزير السلجوقي بالاحترام والتقدير من الخلفاء بقدر يفوق تقديرهم لوزرائهم فكان الوزير السلجوقي يتقدم في الدخول على الخليفة قبل وزيره[٣]، وشعر وزراء السلطنة بهذه الأهمية بعد أن فوض سلاطينهم زمام أمور دولتهم من حلٍّ وعقد لهم[٤].

وقد جاهر الوزراء السلاجقة بالعداء والكراهية لنظرائهم العباسيين وكثيراً ما هدّدوهم بالعزل والمصادرة، وليس أدلُّ على ذلك من الرسالة التي وجّهها السلطان ألب أرسلان بإيعاز من وزيره نظام الملك[٥] إلى الوزير العباسي فخر الدولة بن جهير في سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م) وجاء فيها: "أيها الوزير، إن أصحابنا العائدين من بغداد يذكرون إنفاقك بحوائجهم وأغراضهم، ويجب أن تزول عن هذه الطريق وتحول عن هذه الخلائق وإلاّ كاتبنا الحضرة الإمامية بالكراهية لك التي تقضي الإستبدال بك ..." [٦].

ولمحافظة الوزراء العباسيين على مناصبهم كان يجب عليهم أن يحصلوا على رضى كلٍّ

---

(١). الشيرزي، عبد الرحمن بن عبدالله بن نصير بن عبد الرحمن (ت ٥٨٩هـ/١١٩٣م)، المنهج المسلوك في سياسة الملوك، دراسة وتحقيق علي عبدالله الموسى، مكتبة المنار، عمّان ١٩٨٧م، ص١٩، وسيشار إليه الشيرزي، المنهج المسلوك؛ وانظر: حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص١٩١.

(٢). الشريف، العالم الإسلامي، ص٥٧٥.

(٣). الحسيني، العراضة، ص٤٢، وانظر: إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص١٨٩.

(٤). الحسيني، العراضة، ص٤٨.

(٥). نظام الملك: الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس الطوسي، ولد سنة (٤٠٨هـ/١٠١٧م) كان من أعظم وأشهر وزراء السلاطين السلاجقة فقد وزر للسلطان ألب أرسلان ولولده ملكشاة وهو من أولاد الدهاقين، كان محباً للعلم واشتغل في الفقه والحديث وحفظ القرآن في صغره ودرس الفقه على المذهب الشافعي واشتهر ببناء المدارس والأربطة وأهمها المدارس النظامية انظر ترجمته في، ابن العديم، بغية الطلب، ج٥، ص٢٤٧٨-٢٥٠٠؛ السبكي، تاج الدين ابو نصر بن علي بن الكافي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي وشركاه، مصر، ١٩٦٥م، ج٤، ص٣٠٩-٣١٠، وسيشار إليه السبكي، طبقات الشافعية.

(٦). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٧٧.

من العميد[1] والشحنة[2] اللذين كانا يقومان بإبلاغ السلطان ووزيره عن تصرفات الوزراء العباسيين وتحركاتهم[3] ومما لا شك فيه أن ذلك لم يُعدّ شرطاً أساسياً اعتمده الوزراء، ولكن يبدو أنهم كانوا حريصين على إبقاء علاقتهم جيدة مع نواب السلطنة في دار الخلافة العباسية على اعتبار أنهم ممثلو السلطان ووزيره لدى الخلافة، وأي سوء فهم معهم ينعكس أثره على العلاقة مع السلطان السلجوقي ووزيره. وإذا كانت مرتبة الوزير العباسي دون مرتبة نظيره السلجوقي[4]،فإن هذا الدنّو لا يصل إلى الحد الذي وصفه أحد الباحثين[5] بقوله: إن الوزير نظام الملك كان يقول: "أنا إذا قمت لبعض شأني بادر وزير الخليفة لتقديم نعلي"[6] ويبدو أن هذا الباحث قد أخطأ عندما نسب هذا القول إلى نظام الملك لإن صاحب هذه المقولة هو فخر الدولة بن جهير وقالها مخاطباً ولده عميد الدولة وزير الخليفة في هذا الوقت فاصبح الوضع هنا مختلفاً إذ لا حرج في ان يخاطب الوالد ولده بهذه الطريقة[7].

ويرى أحد الباحثين أن الوزارة العباسية قد انتعشت في هذا العصر، واستعادت هيبتها وكانت أفضل حالاً مما هي عليه الوزارة السلجوقية، بحيث أصبح وزير الخلافة يمارس نشاطه

---

[1]. العميد: منصب إداري عرف في بغداد زمن السلاجقة يعينه السلطان مباشرة ويتمتع بصلاحيات واسعة، ويشرف على مدينة مثل بغداد أو البصرة، ومن المهام الموكلة إليه ضمان مدينة بغداد وعمارتها والمحافظة عليها وعلى الأمن والنظام فيها، والنظر في المظالم ومحاربة المفسدين وترتيب قامة السلطان في بغداد، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٢؛ حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص٢٠٢؛ بيات، السياسية السلجوقية في العراق، ص١٠٨.

[2]. الشحنة: منصب إداري أيضاً يكون صاحبه بمثابة الوالي أو النائب عن السلطان في بغداد وهو الذي يدبر المصالح السلجوقية هناك ومن مسؤولياته ضبط الأمن والنظام وتسكين الفتن التي تثار بين الأهالي، وكان احيانا يتعدى اختصاصاته ليقوم بأعمال عسكرية واسعة. انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٧، ٢٧٧؛ ج١٧، ص٥، حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص٧٠.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٥٦،١٧٧؛ وانظر: بيات، السياسة السلجوقية في العراق، ص١٠٥.

[4]. الذهبي، السير، ج١٩، ص١٧٦.

[5]. الجالودي، تطور السلطنة، ص١١٠.

[6]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢.

[7]. عقلة، الخلافة العباسية، ص١١٥.

بحرية على الرغم من وجود بعض المعوقات أمامه في بعض الأحيان[1]، وقد بالغ الزهراني فيما يرويه، لأن الوزارة العباسية رغم انتعاشها النسبي هذا إلا أنها لم تبلغ الدرجة التي بلغتها الوزارة السلجوقية، وسيتضح ذلك بشكلٍ أوضح من خلال استعراض وزارة بني جهير للخلفاء العباسيين وأثر الوزراء السلاجقة فيها.

المبحث الثاني: الوزراء من بني جهير وأحداث الدولة العباسية:

لم يمكث "فخر الدولة" طويلاً في الوزارة المروانية بعد وفاة "نصر الدولة"، وسرعان ما غادر ميافارقين متوجهاً إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية ليبدأ فيها مرحلة جديدة من مراحل حياته الإدارية، ولابد لنا من دراسة الأوضاع والظروف التي حملته على مغادرة ديار المروانيين وهيَّأت له المقام في بغداد.

بقيت الأحوال مستتبة في الدولة المراونية إلى حين وفاة "نصر الدولة" أحمد بن مروان في سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م) فنشب النزاع بين افراد الأسرة وتفرقت كلمتهم بسبب التنافس على حكم الإمارة المروانية، وبقي الصراع قائما إلى أن انتهى بتقسيم البلاد بين الأبناء، وأخذت قوة المروانيين تسير في طريق الإنحدار إلى أن تلاشت في النهاية[2]، وبعد هذه الأحداث المضطربة التي شهدتها المنطقة وعاشها فخر الدولة بن جهير مع أسرته، لم يعد يأمن على نفسه، ووجد أن من مصلحته البحث عن مكانٍ يكون أكثر أماناً بالنسبة له للعيش فيه، فالتمس مطلبه هذا في بغداد وادرك أن فيها ما يحقق طموحاته ومصالحه.

أما الحال في بغداد فكان غير مستقر نسبياً حيث ساءت العلاقات العباسية – السلجوقية في هذا الوقت (٤٥٣هـ/١٠٦١م) وذلك بعد رفض الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) مصاهرة السلطان "طغرلبك" الذي رغب في الزواج من ابنة

---

[1]. الزهراني، الوزراة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص١٣٩.

[2]. زكّار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص٩٢.

الخليفة[١]، ولكنَّ الخليفة إضطرَّ مجبراً تحت تهديد وضغوط السلاجقة للموافقة على هذا الزواج[٢] وقد أثار ذلك استهجان المؤرخين فيقول ابن الاثير: "وهذا ما لم يجر للخلفاء مثله فإن بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساءوهم فعله"[٣].

أما بالنسبة للوزارة العباسية فإنَّ القائم بأمر الله عند عودته إلى بغداد بعد قتل البساسيري لم يكن له وزير فأرسل في طلب ابن دارست[٤] ليوليه وزارته[٥]، وتمَّ له ذلك في سنة (٤٥٣هـ/١٠٦١م) لكنَّ هذا الوزير لم يلبث طويلاً فعزل عن وزارته على حدِّ قول الذهبي "لعجزه وضعفه"[٦] بينما يرى آخرون أنه عزل بتدبير من السلاجقة وعلى رأسهم وزيرهم "عميد الملك الكندري"[٧] الذي كان كارهاً استقدامه[٨]، فأقنع السلطان طغرلبك بعزله في وقت كان فيه الخليفة لا يملك من زمام الأمور شيئاً، وبدا ضعيفاً أمام سلطة السلاطين العظام الذين يملكون السيطرة على مقررات الدولة دون الرجوع إلى الخليفة[٩]، وبعزل "ابن دارست" غدا منصب الوزارة شاغراً مما حدا بالخليفة البحث عن شخص كفوء يستطيع تحمل مسؤولية هذا المنصب ويتمكن من القيام بأعبائه في هذا الوقت، فاتجه بأنظاره صوب ابن جهير وزير

---

[١]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٥؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٨١-٨٢.

[٢]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٥-١٦٦؛ وانظر: الراوندي، راحة الصدور، ص١٧٦، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٢-٩٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٨٢-٨٣.

[٣]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣.

[٤]. ابن دارست: علي بن الحسين بن أحمد بن محمد الشيرازي، من كبار أهل فارس وعظماء شيراز عرف بفصاحته وبلاغته وجمال خطة ولطافة عباراته، دخل في خدمة البويهيين وقربه الخليفة القائم بأمر الله منه، (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م)، انظر: خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٥.

[٥]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٥ب؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ١٨ب؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٧.

[٦]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

[٧]. عميد الملك الكندري: محمد بن منصور أبو نصر الكندري، وزير طغرلبك، كان له فضل وشعر، وقتل على يد السلطان ألب أرسلان سنة (٤٥٧هـ/١٠٦٥م)، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٩٢.

[٨]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٤٨.

[٩]. حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص١٦٢.

المروانيين، ومن هنا بدأ نجم "فخر الدولة" يسطع على مسرح الأحداث فيقول الشاعر[1]. [السريع]

قالوا:" وزيرانِ، هَوَى نَجمُ ذا   ونَجْمُ هذا قَدْ علا طالِعا

وأورد عددٌ من المؤرخين أن "فخر الدولة بن جهير" هو الذي راسل القائم بأمر الله ورغب في خدمته[2] بناءً على الأحوال التي كانت سائدة في ميافارقين ذلك الوقت، وهذا ما أكدّه ابن الطقطقا بقوله: "فسمت همته -يعني فخر الدولة- إلى وزارة الخليفة فارسل سراً إلى القائم وعرض عليه نفسه[3]" بل أن بعضهم قد أجمع على أنه بذل مالاً كثيراً في سبيل الوصول إلى هذا المنصب[4] وأن قيمة ما بذله قد وصل إلى ثلاثين ألف دينار[5]، ومع ذلك نجد من يشير إلى أن الخليفة القائم بأمر الله هو الذي ارسل في طلب "فخر الدولة" ليوليه وزارته[6] ويؤكد ذلك قول الشاعر صرّدر[7]:[الطويل]

أجابَ بـه اللّـهُ الخلافـة إذ دعـت   وزيراً فكان من أجـنِّ ضميرُها
بـه غصَّ ناديهـا وأشـرق سَـعْدُها   وأفعمَ واديها وسُـدّت ثُغورُهـا

---

(1). صرّدر، ديوانه، ص٦٦.

(2). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٥؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص١٧٢؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ج٣٣، ص١١٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢؛ ابن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٥، ص١٢٨، وسيشار إليه، ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، . Klausner, The Seljuk Vezirate. p28

(3). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٤.

(4). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ، وانظر: للمؤلف نفسه، الخريدة، القسم العراقي، ج١، ص٨٨، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(5). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

(6). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٦أ؛ وانظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨١؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦.

(7). صرّدر، ديوانه، ص٥٨.

ويبدو أن طموح ابن جهير قد التقى مع رغبة الخليفة القائم بأمر الله ، فابن جهير طمع في الوزارة العباسية لا سيما وأنَّ ذلك يزيده رفعة ومكانة ومقاماً لا يضاهيه فيه أحد، واتصاله بالخليفة يعني أنه كان مطّلعاً على الأحداث وليس ببعيد عن مسرحها، فلما وجد فرصة مناسبة تحرك بسرعة لاغتنامها ليأخذ له دوراً على هذا المسرح، وإذا كان الخليفة هو الذي بادر بالاتصال مع "فخر الدولة" وزير المروانيين فهذا يُعدّ تكريماً له وتقديراً لشهرته التي بلغ صيتها الآفاق، وفي الوقت نفسه يظهر لنا مدى حرص القائم بأمر الله على مصلحة الدولة، فأراد استخدام أشخاص عرفوا بالكفاءة الإدارية والسياسية، وخاضوا تجارب سابقة فكان ابن جهير من بينهم.

وبناءً على ذلك أرسل القائم بأمر الله رسولاً من دار الخلافة إلى ديار بكر لاستدعاء فخر الدولة إلى بغداد، وطلب منه الاجتماع مع ابن جهير سراً[١]، واحتج بأنه يحمل رسالة إلى ابن مروان[٢]، فلما وصل الرسول شوّق فخر الدولة إلى الوزارة العباسية ورغبةُ فيها[٣] فسارع الوزير إلى الخروج من ديار المروانيين بعد ان وزّع أموالاً كثيرة على الأهالي قبل خروجه من هناك[٤]، ثم أظهر أنه يريد توديع رسول الخليفة فخرج معه، وظلَّ مصاحباً له حتى وصل إلى بغداد[٥]، ولما بلغ الأمير "نظام الدين" هروب ابن جهير خرج خلفه ليردّه فلم يتمكن من اللحاق به[٦]، وكان برفقته حين خرج من ميافارقين أبناؤه عميد الدولة وزعيم الرؤساء[٧]، وقد

---

(١). ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٩٤.

(٢). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٢٠.

(٣). خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦.

(٤). ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٩٤.

(٥). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ، وانظر: الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٨٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣.

(٦). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٥، ويرى الفارقي بإن الأمير نظام الدين المرواني هو الذي بعث الوزير الجهيري إلى الخليفة القائم بأمر الله بعد أن طلب منه ذلك وأنه حمّله التحف والهدايا والالطاف إلى الخليفة، فكان ذلك برضاه، أنظر الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨١.

(٧). الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٨٨؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩.

عدّ صردر هذا الانتقال بمثابة الهجرة النبوية فقال[1]: [الطويل]

فلم تكُ إلاّ هِجرةً يثربيّة حقيقٌ على رهطِ النبيِّ شُكُورها

المطلب الأول: وزارة فخر الدولة "محمد بن محمد بن جهير" (٤٥٤-٤٧١هـ/١٠٦٢-١٠٧٨م)

خدم "فخر الدولة" محمد بن جهير خليفتين من أشهر خلفاء بني العباس وهم "القائم بأمر الله" والمقتدي بأمر الله (٤٦٧هـ/٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤م) وتولى لهما منصب الوزارة منذ وصوله إلى بغداد سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) ومكث فيها حتى سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) فكانت مدة وزارته للخليفتين حوالي خمس عشرة سنة وشهراً[2]، تخللها العزل والانقطاع أحياناً، وتعد الوزارة من أشرف المناصب وأعلاها منزلة، فقد وصفها الطرطوشي بقوله: "أشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة"[3] ونهض فخر الدولة بن جهير بالوزارة أحسن نهوض[4] وهذا ما يؤكده الشاعر صردرّ بقوله[5]: [الطويل]

أعدتَ إلى جسم الوزارة رُوحَهُ وما كان يُرجَى بعثها ونُشورُها
أقامت زماناً عند غيركَ طامِثاً وهذا الزمان قُرءُها وطُهورُها

ويقول أيضاً[6]:[الطويل]

ومَنْ ذا "كفخر الدولة" إستامها له وما كلُّ نجم في السماءِ مُنيرُها
الآنَ رأينا في مجالسِ عزّها مجالسَ تُملأ بالعَلاءِ صُدورُها

---

[1]. صردر، ديوانه، ص٦٠.

[2]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٥؛ وانظر: ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين الشيباني (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق مصطفى جواد؛ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٢، ج٤، ق٣، ص٣٦٤، وسيشار إليه ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب.

[3]. الطرطوشي، سراج الملوك، ص٢٢١.

[4]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣؛

[5]. صردر، ديوانه، ص٦٠-٦١؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٩.

[6]. صردر، ديوانه، ص٥٩.

ولعلَّ أجمل ما قيل في وصف وزارة "فخر الدولة" قول أحد الشعراء[1]:[البسيط]

أمُّ الـــــوزارة أمٌّ جَمَّـــــةُ الولـــــد   لكـنْ بمِثلـكَ لـم تحبـلْ ولـمْ تَلـدِ

- وزارته للخليفة القائم بأمر الله (٤٥٤-٤٦٧هـ/١٠٦٢-١٠٧٤م)

أجمع المؤرخون على أنَّ الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" هو الذي استوزر فخر الدولة "محمد بن جهير واستقدمه في سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) لهذا الغرض[2]، وينفرد ابن العمراني بذكر أن الخليفة المقتدي بأمر الله هو أول من وزر له فخر الدولة[3]. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن المقتدي جلس على عرش الخلافة العباسية سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م)، فهذا يعني أن ابن جهير لم يُسْتَوْزَر للعباسيين قبل هذا التاريخ، ومع أن المؤرخ ابن العمراني هو أقدم المؤرخين المعاصرين للأحداث إلا أننا نجد في روايته هذه معارضة لما اتفق عليه جموع المؤرخين فالحذر واجب في مثل هذه الحالة.

ابتهج الخليفة "القائم بأمر الله" بقدوم الوزير "فخر الدولة" واستقبله بفرح وسرور واحتفل به في شهر ذي الحجة من سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) [4] واغتنم قدومه فأوكل إليه أمر الاستقلال بمهام الوزارة[5]، وذلك لما يتوافر فيه من الصفات التي تؤهله لذلك، فقد اشتهر بالفصاحة

---

(1). الباخرزي، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م) دمية القصر وعصرة أهل العصر، تحقيق محمد التونتجي، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٧١م، ج١، ص٣٢٦.

(2). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ٨٧أ؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١٧؛ الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨١، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٣؛ ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م) مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق، مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، بغداد، دط، ١٩٧٠م، ص٢٠٩؛ وسيشار إليه ابن الكازروني، مختصر التاريخ؛ الأربلي، عبد الرحمن سنبط بن قنيتو (ت٧١٧هـ/١٣١٧م) خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك، تصحيح مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٤، وسيشار إليه الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك.

(3). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

(4). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٥، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٤٩.

(5). خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦.

والبلاغة والعلم[١]، وكان فاضلاً مهيباً[٢]، عرف بشجاعته ومعرفته وحسن تدبيره[٣]، كما أنه مَهَرَ في فن الاستيفاء والسياق[٤]، وكان عمره حين وزَرَ للعباسيين ستاً وخمسين سنة، ولهذا أهمية فقد اشترط فيمن يتولى هذا المنصب أن يكون شيخاً، لأن الشباب "لا يملك من التجربة ما يملكه الشيخ"[٥]، فضلاً عن كل هذا فقد كان متمرساً في الحياة الإدارية وصاحب خبرة وتجارب كثيرة في خدمة الأمراء والدول، وعدّت هذه الميزة من الأمور الهامة التي يجب مراعاتها عند اختيار الوزراء[٦].

ومن الواضح أن ابن العمراني كان متحاملاً على بني جهير، فيرى أنَّ "فخر الدولة" لم يصل لهذا المنصب لا لفضل أو كفاية، وإنما لكثرة ما بذله من أموال في سبيل بلوغ غايته[٧]، ونحن لا ننكر ما بذله ابن جهير من أموال ليتقرب من الخليفة، وهذا ما جاء باعتراف منه عندما أراد القائم بأمر الله عزله عن وزارته في سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) [٨] ولكنَّ هذا لا يعني أن يكون الدافع الرئيسي الذي حمل الخليفة على اتخاذ ابن جهير وزيراً له، متجاهلاً ما كان يتمتع به هذا الوزير من مكانة، وما يتميز به من الصفات الحسنة التي أهّلته لحمل مسؤولية

---

[١]. الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٤٧.

[٢]. الذهبي، السير، ج١٨، ص٦٠٩.

[٣]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٢٨.

[٤]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦؛ والاستيفاء: منصب إداري يتولاه شخصٌ يشترط فيه أن يكون ذا ذهن صافي ونظرة واعية وسمعة حسنة، عارفاً بأسرار المعاملات ودقائق الحسابات، ومن المهام التي أنيطت به إدارة جميع أموال الديوان، وضبط الحسابات وأوراق الدخل والمنصرف، وضبط الخراج والضرائب والزيادات والعلاوات، ويحتاج هذا المنصب إلى خبرة إدارية وكفاءة عالية، ويحظى صاحبه بالاحترام والتقدير؛ انظر القلقشندي، أحمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشا، شرح محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧م، ج١١، ص٣٥٠؛ وسيشار إليه القلقشندي، صبح الأعشى؛ وانظر: إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص٤٨-٥١.

[٥]. الغزالي، ابو حامد، محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محمد أحمد دمج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دط، ١٩٨٧م، ص٢٧٥، سيشار إليه الغزالي، التبر المسبوك.

[٦]. الغزالي، التبر المسبوك، ص٢٧٦.

[٧]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

[٨]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٢.

الوزارة، كما لا يخفانا الحال من أنَّ الخليفة في هذه المرحلة كان بحاجة إلى وزيرٍ قوي يسانده ويساعده في تحمُّل أعباء الحكم.

وبوصول "فخر الدولة بن جهير" إلى بغداد رتَّبَ الخليفة مراسيم خاصة إحتفاءاً بتوليه المنصب الجديد، فعندما استقرَّ رأي القائم بأمر الله على إسناد منصب الوزارة إليه بعث يستدعيه إلى دار الخلافة[1]، ثم أقام مدة في باب النوبى[2]، وفي اليوم المقرر لتعيينه حضر معه كبار رجال الدولة من قضاة وحجّاب ورؤساء دواوين وغيرهم من الخدم والحاشية[3]، ثم شافهه الخليفة باختياره وزيراً له، وخلع عليه خِلْعَ الوزارة[4] التي شملت جبة وسيفاً ومركباً وعمامة مذهبه، ولحاف سقلاطون، ودراعة، وأعطاه دواة من صندل محلاة[5]، ولم يبخل "القائم بأمر الله" بإكرام وزيره، فقد أثنى عليه وذكر خصاله الحميدة أمام الحضور ليرفع من شأنه، ولقبه فخر الدولة شرف الوزراء[6].

سار الوزير -بعد هذا الاحتفال- من دار الخلافة إلى مقر الوزارة والناس من العامة وكبار رجال الدولة بين يديه[7]، ولما جلس في دست الوزارة قرأ كاتب الإنشاء ابن

---

[1]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ورقة ١٥٥أ؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٤٩.

[2]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٤٩؛ وباب النوبى أحد أبواب دار الخلافة ببغداد، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٥١.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٤٩.

[4]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣؛ وانظر: ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٩٤.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٤٩، والسقلاطون: هو ثياب مصنوعة من الكتان الموشى بالحرير، انظر: الخطيب، مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م، ص٢٥٢.

[6]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧٦؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٠.

[7]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٠أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٦؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٤٩.

الموصلايا[1] كتاب عهده بالوزارة الذي بيّن الخليفة فيه أسباب استيزاره.

وقد جاء فيه: "وبعد فإن أمير المؤمنين حين عدم الكفاة بحضرته، المرتضين بخدمته، وتحقق ما عليه محمد بن جهير من صحة الدين وخلوص المعتقد واليقين، وما يأوي إليه من الكفاية والعفاف والتنزه عن كلّ ما يذمُّ من الخلال ويعاف، وكملت فيه الأوصاف والأدوات التي جمعت بين كلّ سجية رضية، وصفة مرضية، استوجب أناته أفضل مراتب الخلصاء وأوجه منازل الأصفياء، فقلده الوزارة، وخصّه من الطول ما يعلى مناره، وعوّل عليه في الوساطة بينه وبين رعيته، وخاصته وعامته، وأمره بتقوى الله"[2]، ولعلَّ ما ذكره الخليفة من تعداد لصفات تجسدت في شخص الوزير فخر الدولة بن جهير جاءت مطابقة لبعض الصفات التي كان يجب أن تتوافر في وزراء هذا العصر[3].

وكانت العادة المتبعة بعد ذلك أن يرسل الوزير إلى الخليفة كتاباً يتضمن شكره على ثقته بذلك الوزير ويبلغه فيه أنه تسلم منصبه الجديد[4]، وعلى الرغم من عدم وجود نص فيما يتعلق بالوزير "فخر الدولة" فإنه على الأرجح أن يكون قد أخذ بهذا الإجراء الشكلي، ونستدل من وصف تسلم ابن جهير لمنصب الوزارة، على المراسيم التي اتبعت خلال العصر السلجوقي في تقلد الوزراء العباسيين لهذا المنصب.

---

[1]. ابن الموصلايا، العلاء بن الحسن الملقب أمين الدولة، كاتب الإنشاء ببغداد، كان نصرانياً فاسلم سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م) ومكث في الرئاسة ما يقارب خمس وستين سنة، فصيح العبارة، كثير الصدقة، له رسائل مشهورة واشعار فائقة ناب في الوزارة عدة مرات، ووقف ملكه على وجوه البر والخير، أنظر حوله ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٨٩؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الهند، ١٩٥٢م، ج٨، ق١، ص١١-١٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢١٧-٢١٨؛ الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) عيون التواريخ، مخطوط، ج١١، حوادث السنوات (٤٣١-٥٢٣هـ)، ورقة ٦٢ب.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٤٩-٢٥٠، نقلاً عن رسائل ابن الموصلايا.

[3]. الطوسي، نظام الملك الحسن بن علي بن اسحاق (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) سياست نامه أو سير الملوك، ترجمة يوسف بكار، دار الثقافة، الدوحة، ط٢، ١٩٧٨م، ص٢٧٤، وسيشار إليه، الطوسي، سياست نامه.

[4]. حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص١٩٤.

استقر فخر الدولة بن جهير في وزارة الخليفة القائم بأمر الله، وساس أمورها بمهارة وحنكة وكان خير معين للخليفة على إدارة شؤون البلاد، ولكنه ما لبث أن طُرد عن منصبه في شهر ذي القعدة من سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) بمحضرٍ من الدامغاني[1] قاضي القضاة في بغداد[2]، وتعود أسباب العزل إلى ذنوبٍ ارتكبها في حق الخلافة[3]، عاتبه عليها الخليفة "القائم بأمر الله" وتتمثل فيما يلي: إنّ الوزير قد ماطل في تسديد ما بقي عليه من أموال بذلها للوصول إلى منصب الوزارة العباسية[4]، واتُّهم بأنه راسل مسلم بن قريش العقيلي واستقدمه إلى بغداد، وذلك عقيب وفاة السلطان طغرلبك السلجوقي سنة (٤٥٥هـ/١٠٦١م)، وأنّ العقيلي قد كلّف الدولة أموالاً كثيرة ليكفَّ جيشه عن الخراب والدمار في بغداد[5]، ومما نسب إليه استهتاره بأوامر الخليفة وقراراته، فكان يطبق منها ما يريد ويغفل ما لا يريد[6]، وعدَّ ذلك جرأة لم يقدم عليها وزير قبله[7]، أمّا السبب الرابع فعزاه الخليفة إلى دخول الوزير عليه بدون استئذان منه،

---

[1]. الدامغاني: هو محمد بن علي بن الحسين بن عبد الملك، ولد سنة (٤١٨هـ/١٠٢٧م) وبرع في الفقه والحديث وكان بليغاً فصيحاً كثير العبادة قرّبه الخلفاء وباشر عمله في هذا المنصب مدة ثلاثين سنة وقيل بإن سيرته كانت حسنة وأفعاله محمودة، انظر: ترجمته في ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٤٩-٢٥٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٣٨.

[2]. ابن البناء، الحسن بن أحمد البغدادي (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م)، يوميات (مذكرات) ابن البناء، تحقيق ونشر جورج مقدسي، نشرت في مجلة:

Bulletin of the School of oriental and African studes University of London. vol XVIII, 1956, P242 ،

وسيشار إليه، ابن البناء، يومياته.

[3]. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ق٣، ج٤، ص٣٦٣.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٠.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥١.

[6]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥١.

[7]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٥١.

وأن فخر الدولة كان يردد دائماً قوله "ما يجب أن يدخل هذا المكان غيري"[1] وهو فعل منافٍ لآداب السلوك عند الملوك، ثم أنكر عليه إرساله إلى السلطان ألب أرسلان وطلبه منه الخلع ثم لبسها في الدار العزيزة[2] دون موافقة الخليفة على ذلك[3]، ومن أسباب عزله أيضاً اتهام فخر الدولة بن جهير للخادم عفيف القائمي[4] أنه راسل الفاطميين في مصر ورغب في الالتحاق بهم والانحياز إليهم وعاتبه قائلاً: "الكتاب المكتتب عن عفيف الخادم أجلّ الخدم في الدار، وأخصُّهم بالخدمة الشريفة إلى المصريين عليهم لعائن الله والملائكة والناس أجمعين في الانحياز إليهم، والالتحاق بهم وإن كان من الهوس الذي لا التفات إليه، والهذيان الذي لا اعتماد عليه، وأجر الله تعالى على جميل عوائده في الوقوع على هذه الفعلة الردية والفكرة المشتملة على كلّ بلية ورزية[5]" .

وأخيراً أعرب الخليفة عن غضبه وامتعاضه من جرّاء إرسال الوزير فخر الدولة ولده عميد الدولة بن جهير إلى بلاط السلاجقة للشفاعة له عندهم والاستظهار بالسلطان لإبقائه في منصبه الوزاري[6].

وجميع هذه الأمور آنفة الذكر فيها استهتار بشخص الخليفة وامتهان لكرامته واستصغار من قيمته، لذلك وجد الخليفة مبرراً لعزل وزيره عن منصبه لإن العزل إذا كان من غير سبب

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥١.

[2]. الدار العزيزة: دارٌ عظيمة السعة وهي دار الخلافة ببغداد، أصابها الحريق والهدم في عهد الخليفة المقتدر بالله، انظر الصابيء، هلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م، ص٧٠٨، سيشار إليه، الصابيء، رسوم دار الخلافة.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٧؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥١.

[4]. عفيف القائمي، هو من أجل خدام الخليفتين القائم والمقتدي، كان راغباً في الخير وسماع الحديث، خرج إلى خراسان رسولاً مع أبي اسحاق الشيرازي، وسمع الحديث من مشايخ بغداد كما سمع منه بعضٌ آخر، (ت ٤٩٠هـ/١٠٩٦م)، انظر السمعاني، الأنساب، ج١٠، ص٣٦.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٥١.

[6]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٥١.

كان خارجاً عن السياسة[1].

وبالرغم من أنّ ابن الجوزي وحفيده السبط قد اتفقا على انّ القائم بأمر الله هو الذي عزل فخر الدولة بن جهير عن وزارته، وعدّدا الأسباب التي حملته على ذلك، إلاّ أن هناك من يرى بأن الوزير السلجوقي "نظام الملك" كان وراء هذا العزل نظراً للمكانة الرفيعة التي بلغها "ابن جهير" في البلاط العباسي، فضلاً عن بلاط السلاجقة[2]، ولابد من الوقوف على هذا القول على اعتبار أن السمة الغالبة على هذا العصر هي التدخل السلجوقي السافر في شؤون الخليفة ولا سيّما في وزارته، وفي الحقيقة أنّ "فخر الدولة" قد وصل إلى مكانة رفيعة عند السلاجقة، فكان السلطان "ألب أرسلان" إذا ما بعث برسالة إلى الخليفة أرفقها بأخرى مماثلة إلى وزيره "الجَهِيْرِيّ"[3]، ومن مظاهر اهتمام السلطان بوزير الخليفة أيضاً أنه أنعم عليه بخلع تشرّف بلبسها أمام الخليفة وكبار رجال الدولة، وبعث له خطاباً أشاد فيه بخصاله الحميدة جاء فيه: "لمّا اتضح للسلطان الأعظم ... لطف محلّك يا فخر الدولة أبا نصر بن محمد بن جهير، وتأثل مكانك وتخصيصك بشريف آراء أمير المؤمنين فيك بما تجاوزت به مراتب من تقدمك من أمثالك وأكفائك، رأى أن يحبوك بما تقصد به التقرب إلى الخدمة الشريفة، ومضايقة الأراء في اعتمادك بالآلاء الجسيمة، ونقابل مواقفك في الخدمة التي وضحت دلائلها، وراقت من الأقذاء مناهلها، ومقاصدك الرضية التي أتيت عن حميد الجلال ...."[4]. ويبدو ان هذه المكانة التي حظي بها "فخر الدولة بن جهير" قد أثارت حفيظة نظيره الوزير السلجوقي نظام الملك وحقده، كما لا يستبعد أنها أثارت أيضاً غيرة وحسد الخليفة نفسه.

ويبدو أنّ الخليفة القائم بأمر الله قد اضطرّ إلى خلع وزيره عن وزارته وقد دعته

---

[1]. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م) قوانين الوزارة وسياسة المُلك، دراسة وتحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٩٥، وسيشار إليه الماوردي، قوانين الوزارة.

[2]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٤، وانظر: خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦-١٩٧.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١١٣.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٠.

الضرورة إلى ذلك، ونستدل على هذا القول من خلال ما يلي: عندما أراد الخليفة عزله بعث إليه يقول: "معلومٌ يا محمد بن محمد بن جهير أنه لم يظهر لك خيانة في دولة ولا مال، ولكن ﴿لكلِّ أجلٍ كتاب يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أمُّ الكتاب﴾ [1]" ومن المعروف أنَّ الخيانة من الأسباب التي توجب العزل[2]، وبما أنَّ القائم بأمر الله قد أقرَّ بعدم خيانة وزيره فهو لا يملك تبريراً لعزله، ثم أنه لما رغب في إعادته ثانية إلى منصبه سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) أخرج إليه الخليفة منشوراً جاء فيه[3]: "... ولما اتفق من انفصالك يا فخر الدولة شرف الوزراء أبا نصر صفي أمير المؤمنين عن الخدمة، ما كان أمر الله فيه قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً، وخلا منصب الوزارة ممن يستقر فيه، ويستقل بتدبير الأمر وتوليه، واتضح أنك أولى أكفائه، وأوفى الناهضين باعبائه، وأحقُّ باحكام مراتر الصنيعة وإحصافها، ..." [4] ونجد الخليفة بهذا القول يشيد بكفاءة وزيره ويعترف بحسن سيره وسيرته، ويجعل إقدامه على عزل فخر الدولة أمرٌ تم بقضاء الله وقدره، ومن ناحية أخرى فقد كان الوزير ابن جهير مدركاً ومقتنعاً تماماً أن هناك من دبَّر لاقصائه عن منصبه، وهذا ما جاء على لسانه مخاطباً الخليفة قائلاً "الله بيني وبين من غيَّر قلبك عليَّ يا أمير المؤمنين"[5].

وهكذا نخلص إلى نتيجة وهي أنَّ للسلاجقة أثرٌ في عزله عن منصبه، وعلى رأسهم وزيرهم النابه نظام الملك، فكان الخليفة بذلك ضعيفاً إلى درجة إنحنى فيها أمام رغبات السلاجقة ونفوذهم دون أن يقوى على مجابهة سلاطينهم العظام.

أظهر فخر الدولة بن جهير تمسكاً شديداً بوزارته، وحاول الدفاع عن نفسه وتبرير ما نسب إليه من تهم، فأجاب عن عدم سداده ما استحق عليه من أموال للخلافة منذ توليه الوزارة

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨هـ/٤٨٠هـ) ص٢٥٣.

[2]. الماوردي، قوانين الوزارة، ص١٩٦.

[3]. لم يرد في نص المخطوط إشارة إلى تاريخ هذا المنشور وإنما رجحَ ذلك التاريخ المذكور الباحث، عصام العقلة، انظر، العقلة، الخلافة العباسية، ص١٧٥.

[4]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢١ب.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨هـ/٤٨٠هـ) ص٢٥٣.

بإنه لم يطالب بها، وأنه لو طلب منه ذلك لبادر إلى سدادها دون تباطؤ. أما عن استقدامه لمسلم العقيلي فإنه يرى أن عمله هذا كان من أجل مصلحة الخلافة، وخوفاً من اضطراب أحوالها بعد وفاة السلطان "طغرلبك" ولما ظهر من هذا الأمير سوء تدبير ردّه عن بغداد، وبرّر عدم تنفيذه لجميع أوامر القائم بأمر الله بإن في ذلك تخفيف من أعباء خزينة الدولة وأنه لو نبّهه إلى ذلك لامتنع عن فعله، وإذا كان يدخل على الخليفة دون استئذان ولم يرغب بدخول أحد غيره على الخليفة فإن ذلك لخوفه من الحاشية والأتباع الذين يشيعون كل ما يدور من حديث في بلاط الخليفة بين صفوف العامة، أمّا لبسه للخلع السلطانية التي أرسلها له ألب أرسلان فإن هذا الأمر يعد شيئاً هزيلاً لا قيمة له إذا ما قورن بالهدايا السلجوقية التي ترسل للخلفاء، وأنكر فخر الدولة بشدة أنه اتهم عفيف القائمي بمراسلة الفاطميين في مصر –القوة المناوئة للعباسيين– وأنه لا يعلم بالكتب التي نسبت إليه وكانت تحوي على مراسلات بين عفيف القائمي والخلفاء الفاطميين[1].

أخذ الوزير يتودد إلى الخليفة ويتوسل إليه لإبقائه في منصبه إلى درجة أنه بكى بكاءً شديداً[2]، وحاول الإعتذار عما بدر منه[3] ولكن بدون جدوى، ورغم ذلك فقد كان الخليفة كريماً معه حيث سمح له ببيع غلاّته وعقاره والتصرف بأمواله[4]، ولم يمكّن أحداً منه ولا من أمواله[5]، ثم غادر فخر الدولة بن جهير بغداد قاصداً نور الدولة دُبَيْس بن صدقة[6] المزيدي

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨هـ/٤٨٠هـ) ص٢٥٢.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦؛ وانظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨هـ/٤٨٠هـ) ص٢٥٢.

[3].ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٧؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨هـ-٤٨٠هـ) ص٢٥٣.

[5]. ابن البناء، يومياته، مج١٨، ص٢٤٤.

[6]. أبو الأغر دبيس بن صدقة بن منصور المزيدي، الملقب نور الدولة، كان جواداً كريماً له معرفة بالأدب والشعر، دخل في خدمة مسعود بن محمد بن ملكشاه، ثم قتله السلطان المذكور ودفن في ماردين، انظر ترجمته في، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٦٣-٢٦٥.

والي الفلوجة[1].وبعد خروجه كثرت الأطماع في الوزارة وطلبها من لا يصلح لها[2]، فقررها الخليفة لأبي يعلى الروذْراوري، ولكنه مات قبل وصوله إليها[3]، وعدَّ الذهبي ذلك بأنه من حظِّ فخر الدولة بن جهير وسعادته[4]، ولما أراد الخليفة استيزار علي بن عبد الرحيم احتجَّ الناس على ذلك، واستاءوا من قدومه لأنه كان من أنصار البساسيري، وكتبوا منشورات ألصقوها في الجوامع تضمَّنت اللعنة لمن يسعى في وزارته[5]، كما أن زوجة الخليفة القائم اعترضت عليه لأنه نهب مالها أثناء فتنة البساسيري[6].

بقي القائم بأمر الله دون وزير مدة من الزمن، ذلك لأنه لم يعثر على شخص مناسب ليَلِيَ هذا المنصب الإداري الهام[7]، ويقول ابن الفوطي أن الخليفة لم يجد بداً من إعادة فخر الدولة بن جهير[8] الذي كان يواصل في هذه الأثناء السؤال بالعفو عنه، وبذل مالاً قيمته خمسة عشر ألف دينار فأعفاه القائم بأمر الله منها وأجيب إلى طلبه[9]، ويؤكد ابن الجوزي أن زوجة الخليفة أرسلان خاتون قد ساهمت في عودة الوزير، وبذلت مجهوداً للشفاعة له عند زوجها[10]، كما يعزو المؤرخون سبب عودته إلى الوزارة بشفاعةٍ من الأمير المزيدي دُبَيْس

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٦، والفلوجة: قرية من قرى سواد بغداد تقع قرب عين التمر، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٢٧٥.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١١.

[3].ابن البناء، يومياته، مج١٨، ص٢٤٣. وانظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٧أ، الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٩أ؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص١٣٧.

[4]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٢٠.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١١؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٩أ؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٦.

[6]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٩أ؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٤.

[7]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢١ب.

[8]. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ق٣، ج٤، ص٣٦٣.

[9]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١١؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٤.

[10]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١١.

ابن مزيد[1]، أمّا خواندمير فيذكر أنه عاد إلى منصبه من جديد بعد أن اتصل بالوزير "نظام الملك" واستسمحه وطيب خاطره وأرضاه[2]، وعلى الارجح أن تكون هذه الأمور مجتمعة قد ساعدت فخر الدولة بن جهير في العودة إلى منصبه برغبة ملحّة منه في ذلك، مع أنَّ الذهبي تفرَّد وذكر أنَّ الخليفة هو الذي بعث إليه يسترضيه -وهو عند بني مزيد- ويطلب منه العودة إلى وزارته في بغداد[3].

عاد فخر الدولة الى الوزارة بعد انقطاع دام مدة أربعة شهور[4]، فهنأه الخليفة بعودته وفرح به وخاطبه قائلاً: "وقف على ما أنهيته وحصولك واستقرارك بمقر عز خدمتك من الديوان، مشمولاً بعز خدمتك الخدمة الشريفة، وقد أكمل الله لك بيمن بركتك كل بغية، وأعادك إلى أفضل ما عهدته، وليس فيما جرى بقادح في موضعك فأكثر حمد الله على ما أولاك"[5] واكتفى فخر الدولة بالإجابة : "الحمد لله جامع الشمل بعد شتاته، وواصل الحبل بعد بتاته"[6] ثم خلع عليه الخليفة خلعاً تشريفية تكريماً له، وأخرج مرسوماً في حقه افتتح بحمد الله والثناء عليه، ثم مدح للخليفة وبيان عظمته، وذكر فيه ما يتحلى به الوزير من صفات حملت القائم بأمر الله على إعادته إلى وزارته، وكيف أنه خصّه بهذا المنصب ففضّله على غيره ممن سعوا للحصول عليه[7].

وبتسلمه الوزارة من جديد هنأه الشعراء بعودته وباركوا له ذلك، وعلى رأسهم الشاعر

---

(1). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج١٢، ورقة ١٥٧أ؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٩أ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٦؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٣٧؛ ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٥٧٢.

(2). خواندمير، دستور الوزراء، ص١٦٩.

(3). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٢٠.

(4). دائرة المعارف الإسلامية، إعداد وتحرير، إبراهيم زكي وآخرين، دار الشعب، القاهرة، دت، مج١٣، ص٨، مادة جهير.

(5). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١١.

(6). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١٢.

(7). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ٢٠ب-٢٣أ؛ وانظر: نص المنشور كاملاً في الملحق رقم٣.

المختص ببني جهير صرّدرّ حيث نظّم قصيدة طويلة بهذه المناسبة مطلعها[1] [الرجز]

قد رَجَعَ الحقُّ إلى نصابه ... وأنتَ من كلِّ الورى أولى بهِ
ما كنتَ إلاّ السَّيفَ سلّتهُ يدٌ ... ثُمّ أعادتهُ إلى قرابه
هزّته حتى أبصرتْهُ صارماً ... رونَقُه يُغنيهِ عَنْ ضِرابهِ
أكرمْ بها وزارة ما سُلِّمت ... ما استُودِعت إلاّ إلى أربابهِ
مَشُوقةٌ إليك مُذْ فارقتها ... شوق أخي الشيب إلى شبابهِ

وهكذا عاد ابن جهير واستقر في وزارته طيلة عهد الخليفة القائم بأمر الله، وقد سادت علاقات الود والاحترام المتبادل بين الطرفين، واحتلَّ كلٌّ منهما مكانةً خاصة في نفس الآخر فلما مرض الخليفة لم يكن "فخر الدولة" يفارقه وظلَّ ملازماً له طيلة فترة مرضه[2] ولما مات حزن عليه حزنا شديداً وجلس مع إبنه عميد الدولة حافيين القدمين وقد مزّقا ثوبيهما وخلعا عمامتيهما[3]، وبلغ من محبة فخر الدولة وبنيه في نفس القائم بأمر الله أنه أوصى حفيده وولي عهده المقتدي بأمر الله بهم خيراً وقال: "يا بُنيَّ قد استخدمتُ في أيامي ابن أيوب وابن المسلمة وابن دارست وابن جهير -كلهم وزراء القائم- فما رأيت أصلح للدولة من ابن جهير وولده فلا تعدل عنهما"[4] وفي هذه الوصية تقدير وتكريم لمكانة بني جهير ورفعة لمنزلتهم بين سائر أرباب الدولة.

- وزارته للخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٧١هـ/١٠٧٤-١٠٧٨م)

بعد وفاة الخليفة القائم بأمر الله تولى حفيده وولي عهده المقتدي بأمر الله الأمر من بعده، في سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م)، وأخذ له البيعة الوزير فخر الدولة محمد بن جهير[5]، فأقره

---

[1]. صرّدر، ديوانه، ص٦٣؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١٢.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦١.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٣.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٢.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٢؛ وانظر: ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٠٩؛ الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الخزرجي (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) أخبار الدول المنقطعة تاريخ الدولة العباسية"، تحقيق محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، مكتبة دار المدينة المنورة، ١٩٨٨م، ص٢٧٩،=

المقتدي بأمر الله على وزارته[1]، بناءً على وصية من القائم بأمر الله[2]، وقام ابن جهير بوزارته الجديدة أحسن قيام، ودبَّر أمور الخلافة أفضل تدبير[3].

وبمرور أربع سنوات في خدمته مع المقتدي بامر الله عُزل "فخر الدولة" عن منصبه للمرة الثانية، وإذا كانت معظم المصادر التاريخية قد أجمعت في هذه المرة على أنَّ الوزير السلجوقي نظام الملك كان وراء هذا العزل، فإنّ الآراء قد تضاربت في السبب الذي حملة على ذلك، فبعضهم يرجع السبب إلى الفتنة التي نشبت بين الحنابلة والأشاعرة في بغداد سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م)، وقد نسبت إلى الوزير ابن جهير[4]، أما ابن كثير فيرى أنَّه عزل بسبب ممالأته على الشافعية[5]، بينما يذكر السيوطي أنه فقد منصبه لشذوذه عن الحنابلة[6]، ويذهب المؤرخ الفارسي خواندمير إلى أبعد من ذلك فيعزو السبب إلى أن الوزير السلجوقي نظام الملك حاول إبعاد نظيره ابن جهير لحسده إياه على ما وصل إليه من مكانةٍ ونفوذ واسعين في الدولة[7]، ويبدو أن نظام الملك لم يحسده بل خشي منه على المصالح السلجوقية. وأما السبب الخفي الآخر الذي لم يشر إليه بنصٍ صريح عند جموع المؤرخين هو أن نظام الملك كان

=وسيشار إليه الأزدي، أخبار الدول المنقطعة؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٦٨؛ ابن العبري، أبو الفرج بن هارون الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول، تصحيح وتعليق أنطوان صالحاني، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص١٨٦، وسيشار إليه ابن العبري، تاريخ مختصر الدول.

[1]. العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٤٩، وانظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٨أ ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٣.

[2]. الاصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٦أ؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ١٦٢؛ ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص١٢٠.

[3]. الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص٢٧٩.

[4]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٧أ؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٥-١٢٦؛ البنداري، دولة السلاجقة ص٥٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣٥، إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص١٨٩، وسيتم الحديث عن هذه الفتنة لاحقاً.

[5]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٧.

[6]. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ص٣٩٣، وسيشار إليه السيوطي، تاريخ الخلفاء.

[7]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٧.

يهدف من وراء عزل ابن جهير إلى وضع ولده مؤيد الملك في منصب الوزراة العباسية والدليل على ذلك أن سبط ابن الجوزي ذكر أن المؤيد هذا كان قد رشّح للوزارة بعد طرد فخر الدولة وغياب ابنه العميد عن بغداد، ويضيف قائلاً: أن مؤيد الملك أظهر التوبة من شرب الخمر وحمل مالاً إلى الديوان بقصد توليه الوزارة، فأعاده الخليفة وأنكر أن يكون قد جرى في هذا شيء[1].

ولتحقيق مراده وتنفيذ رغبته، أرسل نظام الملك الشحنة سعد الدولة[2] كوهرائين إلى بغداد وأمره بالقبض على بني جهير وحاشيتهم، وإلحاق الأذى بهم[3]،وأرفقه رسالة إلى الخليفة المقتدي بأمر الله تتضمن الشكوى منهم، ويطالب بعزل فخر الدولة لكراهة السلطان له[4]، فلما وصل الشحنة إلى بغداد أمر بضرب الطبول على بابه[5]، فعدَّ الخليفة هذا العمل إمتهاناً لكرامته واستهتاراً بمركزه ثم طالب الكوهرائين الاجتماع بالخليفة من غير حضور الوزير، وبرفض الخليفة لهذا الطلب، أظهر سعد الدولة سوء الأدب وأمر أصحابه بحرق دار الخلافة ونهبها، ثم حضر إلى باب الفردوس[6] وقال : "إن سلّم الوزير إليَّ وإلاّ دخلت وأخذته وإن كلّمني إنسانٌ

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢١٠-٢١١.

[2]. سعد الدولة، خادماً كبيراً للسلاجقة عينٌ شحنة في بغداد وكان له نفوذ وسلطة كبيرة، وكان حليماً كريماً حسن السيرة، لا يعلم أنه ظلم أحد، كان دائم الصلاة والعبادة خدم البويهيين والسلاجقة وأصبح مقرباً من السلاطين فخدمهم بصدق وإخلاص، انظر ترجمته، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٦-٥٧، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٤؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص١٢٣.

[3]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص٥؛ ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٤٧٦.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٦؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٥-١٩٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٥.

[5]. لم تجر عادة ضرب الطبول للصلوات بالحضرة إلاّ للخليفة، ثم بعد ذلك لولاة العهد وأمراء الجيوش، وعدا ذلك غير مسموح به، الصابيء، رسوم دار الخلافة، ص١٣٦.

[6]. باب الفردوس أحد أبواب دار الخلافة، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٢٤٨.

قتلته"[1].

وأظهر المقتدي تمسكاً شديداً بوزيره، ورفض عزله أو تسليمه ويقول ابن حمدون: فأبى -يعني الخليفة- إلاّ الوفاء له"[2] وحاول مراوغة الشحنة وأخبره أنّ فخر الدولة ليس بوزير وأن ولده عميد الدولة هو الوزير في الأصل ووالده ينوب عنه في الوزارة لأن "عميد الدولة" سفر في رسالة من الخليفة إلى السلطان السلجوقي[3]، فلم يقتنعْ سعد الدولة بهذه الحجة، وبقي مصراً على تسليم الوزير له، ولما رأى فخر الدولة ما وصلت إليه الحال وأنه عاجز الدفاع عن نفسه، وأن الخليفة لا يقوى على حمايته، بادر هو بطلب إعفائه من الخدمة واعتزل المنصب ولزم داره[4]،فكان بذلك من خيار الوزراء الذين يبعدون حكامهم عن الوقوع في حربٍ في وقت يمكن أن ينصلح فيه الحال بلا قتال يودي بحياة كثيرين[5].

وإذا ما تتبعنا العلاقة بين الوزيرين نظام الملك وفخر الدولة نجد أن الوزير السلجوقي كان يتربّص للإيقاع بابن جهير، فمثلاً في سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م) حاول عزله وأرسل سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد لمصادرة إقطاع فخر الدولة، وحاول إيغار قلب الخليفة والسلطان عليه وذلك باتهامه بذكر السلطان ألب أرسلان بكلام قبيح، ولكنّ القائم بأمر الله كان متأنياً وتمسك بوزيره فبعث إلى السلطان يطلب إليه إعادة النظر فيما عزم عليه من طرد ابن جهير

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٨؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠)، ص١٩٥-١٩٦.

(2). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج١٢، خط، ورقة ١٥٨ب.

(3). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٨ب، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٨؛ الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ؛ ونيابة الوزارة منصبٌ استحدث في العصر السلجوقي في العراق، يساعد صاحبه الخليفة بتحمل أعباء الوزارة أثناء غياب الوزير، انظر فهد، بدري، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣، ص١٩٩، وسيشار إليه فهد العراق في العصر العباسي.

(4). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٨؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ؛ البنداري دولة السلاجقة، ص٥٥؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٧، ويذكر البعض أنّ الخليفة هو الذي أمره بلزوم داره، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٥.

(5). الغزالي، التبر المسبوك، ص٢٧٨.

ومصادرة أملاكه[1]، ويبدو واضحاً أن السلاجقة كانوا يسارعون في القضاء على أي قوة من أي جهة كانت في بغداد للمحافظة على وجودهم ومصالحهم في دار الخلافة.

وفي سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) تغيّر نظام الملك على الوزير ابن جهير، وإذا كانت هناك إشارة إلى أن السعاة والوشاة هم الذين حرضوا على الإيقاع بفخر الدولة، فإن الأمر يتعدى ذلك، إذ إنّ نظام الملك كان حريصاً على مصلحة الدولة السلجوقية، وإذا ما شعر بأي خطر سارع لقمعه، ولكنّ الوزير الجَهِيْرِيّ سرعان ما تدارك الوضع وأرسل ابنه "عميد الدولة" لإصلاح الحال مع السلاجقة وتطييب خاطر نظام الملك[2]، وكان اختيار الوزير لولده في هذه المهمة اختياراً جيداً نظراً لعلاقات المصاهرة التي ربطت بين عميد الدولة ونظام الملك.

وتجددّت العداوة بينهما في سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) ذلك أن أهل بغداد هجوا الوزير السلجوقي "نظام الملك" لأعمال ارتكبها في حق كوهرخاتون[3]، وحرّض على قتلها[4]، كما أنهم غضبوا عليه لأنه اغتصب أراضي من أصحابها في بغداد، فقال حين سمع هذا الهجاء: "ما أقام هذه الشناعة عليَّ إلاَّ فخر الدولة بن جهير"[5].

ولما علم فخر الدولة ما كان يحاك ضد أهله من مؤامرات وأدرك أن الوزير السلجوقي نظام الملك كان سببها، أرسل ولده عميد الدولة مرة ثانية إلى استرضاء السلاجقة لعلمه أن الأمور لن تهدأ ولا تتحسن إلاَّ إذا كسب رضى الوزير نظام الملك وصداقته، وقد تمكن ولده من إصلاح الوضع وتهدئة الخواطر وتوثيق الروابط -بعد أن قطعت مدة منذ وفاة زوجة عميد

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٣٨؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٥٦.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٤؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٦٨.

(3). كوهرخاتون: عمة السلطان ملكشاة وأخت ألب ارسلان كانت دينة عفيفة صادرها الوزير نظام الملك لما مات أخوها ألب أرسلان وأخذ منها أموالاً كثيرة، ثم سعى بها إلى السلطان ملكشاة فقتلها، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٦.

(4). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٧٦.

(5). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٧٦؛ وانظر: ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٠١.

الدولة زبيدة ابنة نظام الملك-، وذلك بمصاهرة نظام الملك من حفيدة له في سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) [(١)].

عاد عميد الدولة إلى بغداد وهو يحمل بشرى رجوع والده إلى منصبه، وبوصوله وجد أنّ الخليفة قد استخلف في وزارته "أبي شجاع الرَوذْرَاوري[(٢)]، ولما أبلغ الخليفة المقتدي بأمر الله رغبة السلاجقة في إعادة والده إلى الوزارة رفض ذلك[(٣)]، ثم عزل عميد الدولة عن منصبه في نيابة الوزارة وقال: مخاطباً إياه: "قد أعدناك إلى والديك ولا مراجعة لك بعد اليوم في خدمتنا"[(٤)]، وكان السبب في ذلك كما يقول ابن الجوزي: "وقدم الوزير إلى بغداد وقد تغيّر قلب الخليفة له لأفعال الفقهاء الأعداء"[(٥)]، ولكن يبدو أن السبب كان أقوى من ذلك إذ أنه قد يكون لمسير بني جهير إلى السلاجقة للتقوي والاستظهار بهم على الخليفة المقتدي بأمر الله قد ترك عنهم انطباعاً سيئاً في نفس الخليفة فصبَّ جام غضبه عليهم، وعزل الوالد والولد عن منصبيهما.

وهكذا يتضح لنا تدخل السلاجقة في شؤون الخلافة العباسية، لا سيما فيما يتعلق بوزارتها، وهذا يبين لنا مدى الضعف الذي وصلت إليه مؤسسة الخلافة في هذا الوقت، وإذا كان من الخلفاء من يحاول الاستقلال ببعض الأمور، فإنهم سرعان ما يستجيبون للأوامر

---

(١). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٥؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٥.

(٢). أبو شجاع: محمد بن الحسين بن محمد ولد سنة ٤٣٧هـ، تولى وزارة العباسيين عدة مرات، كان حازماً على أهل الذمة وكانت أيامه انظر الأيام وأحسنها، سافر إلى الحج سنة ٤٨٨هـ فمات هناك ودفن في البقيع؛ الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣٤-١٣٥؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٣). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٩ب؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٥.

(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٧٩.

(٥). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩.

السلطانية من جديد.

وقد أنيطت بالوزير فخر الدولة في هذه المرحلة مهمات عظيمة، فكان عليه تحمل أعباء الحكم بمساعدة الخليفة ومشاركته في إدارة شؤون الدولة وإصلاح أحوالها؛ لأن إصلاح الأحوال أمرٌ مستحق على الوزير وفسادها منسوب إليه[١]، وأهم الأعمال التي قام بها ابن جهير هي سفارته المتكررة الواحدة تلو الأخرى للخلفاء العباسيين لدى البلاط السلجوقي والعمل قدر الإمكان على توثيق العلاقات بين الطرفين[٢]، وهذا ما سيتسع الحديث عنه في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

وبناءً على ترجيح الباحث عصام العقلة في إعادة إحدى الرسائل الواردة في رسائل أمين الدولة ابن الموصلايا إلى الوزير فخر الدولة بن جهير[٣]، فقد ورد في متنها إشارة إلى ما كان يوكل إليه من مهمات وزارية، كما أن الباحث اشار إلى تلك المهمات في أثناء تطرقه للحديث عن مؤسسة الوزارة بوصفها مؤسسة من المؤسسات الإدارية في بغداد[٤]، ومن هذه الأعمال سفارته بين الخليفة ورعاياه[٥]، وقيامه ببعض الأمور المالية المتعلقة بالخلافة[٦]، وإشرافه على وكلاء الخليفة[٧]، والتصرف ببعض الشؤون الإدارية في بغداد الخارجة عن نطاق مهام نائبي السلطان العميد والشحنة[٨]. ولا يفوتنا الحديث عن مباشرة الوزير القيام بالمراسيم والتشريفات الرسمية والعامة، مثل استقبال الوفود وتوديعها والجلوس للتهنئة والعزاء، فمثلاً في سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) ولد للأمير عدة الدين ... المقتدي مولود فجلس فخر الدولة للتهنئة فيه[٩].

---

[١]. الماوردي، قوانين الوزارة، ص٨٣.

[٢]. Klaunser, the seljuk vezirats, p28

[٣]. عقلة، الخلافة العباسية، ص١٦٦، هامش رقم (١).

[٤]. عقلة، الخلافة العباسية، ص١١٦.

[٥]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ٢٣أ.

[٦]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٦أ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٠.

[٧]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٦ب.

[٨]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٦ب.

[٩]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١٤.

ولما مات القائم بأمر الله جلس أيضاً فخر الدولة للعزاء به[1]، كما أنه أخذ البيعة لولاة العهد، فقد كان المتولي في سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) لأخذ ولاية العهد من القائم بأمر الله لحفيده المقتدي بأمر الله[2].

ومن الطبيعي أن يتقاضى الوزير راتباً منتظماً من الدولة، لأنه يتقلد منصباً من مناصبها الإدارية[3]، وبالرغم من عدم توافر معلومات كافية عن مقدار الراتب الذي خصص للوزير فخر الدولة شهرياً فإن ابن العمراني أشار إلى مقدار راتبه اليومي فقال: "إنَّ راتبه كل يوم ألف رطل لحم، هذا سوى الشوايا والدجاج والحلواء والفاكهة"[4] وأضاف يروي "أن ابن جهير كان في كل يوم نيروز يفصل مائة وعشرين جبة ومثلها عمامات للرؤوس، وأنه كان في كل ثلاثة أيام يخلع جبة وعمامة، وكل يوم يجدد قميصاً ولا يعود للبسه مرة ثانية"[5]، ومع ما في هذه الرواية من المبالغة وتصويرها لحياة النعيم والبذخ والترف التي نعم بها الوزراء في هذا الوقت، فإنها تُعطينا صورة عن الإمكانات المادية التي يمكلها الوزير وهي دليل على أنه كان يتقاضى راتباً لقاء خدمته في منصب إداري من مناصب الدولة.

إضافة إلى ما خُصص للوزراء من رواتب جارية فقد كان لهم دخولٌ أخرى متمثلة بالإقطاعات والأملاك الواسعة، فكان الوزير ابن جهير يملك إقطاعات كبيرة، ولكنها كانت مهددة بمصادرتها من السلاجقة إذا ما حدث بينهم وبين الوزير ابن جهير خلاف[6]، وفضلاً عن هذا كله فقد حظي الوزير بالخلع الثمينة من الخلفاء والسلاطين على حدٍ سواء[7].

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٣.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٢؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢١؛ ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢٠٩؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٨٦.

(3). الزهراني، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص١٢٨.

(4). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

(5). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

(6). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٤؛ انظر الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٠أ، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١١٧،١١٩،١٥٥.

(7). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧١؛ انظر سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٠، ٢١٤، ٢٤٩، ٢٥٥.

- المطلب الثاني: وزارة أبي منصور "عميد الدولة" محمد بن محمد بن محمد بن جهير (٤٧١-٤٩٣هـ/١٠٧٨-١٠٩٩م)

أبو نصر محمد بن محمد بن محمد بن جهير الملقب "عميد الدولة"[(١)]، هو الابن الأكبر للوزير فخر الدولة بن جهير، وصفه بعض المؤرخين بصفات جليلة القدر، حتى ضاهى الخلفاء بما اتّسم به من هذه الصفات، فقد عرف عنه الوقار والهيبة وجودة الرأي والعفّة[(٢)]، وكان حليماً قليل العجلة[(٣)] فاضلاً حصيفاً[(٤)] وشجاعا مهيباً[(٥)]، وفصيحاً مفوّهاً، خبيراً كافياً[(٦)]، حسن التدبير[(٧)] صاحب رئاسة[(٨)]، عظيماً في الدول[(٩)]، ذا شهامة وصرامة[(١٠)]، وهو من أهل العلم والأدب، فهو شاعر له "ترسّل جيد وتواقيع وجيزة[(١١)]، ويروى أنه فاق والده فخر الدولة بالشهرة والجاه[(١٢)].

ومع أنه كان متحلياً بكل هذه الخصال فإنه وصف بميله إلى التكبر[(١٣)] وكلماته معدودة، ومن يحظى منه بكلمة يفرح بها فرحاً شديداً، حتى يقال: إنه خاطب شخصاً يُدعى "أبا نصر بن

---

(١). الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩١.

(٢). الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩١؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص١٦٧.

(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٩؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٦.

(٤). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٢٦؛ وانظر: القمي، عباس، الكنى والألقاب، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٧٠م، دط، ج٢، ص٤٨٥.

(٥). الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٦٨.

(٦). الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٦٨؛ وانظر: ابن تغري بردى، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٦٤.

(٧). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٩.

(٨). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٧٢.

(٩). ابن تغري بردى، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٦٤.

(١٠). الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩١.

(١١). ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٦٤.

(١٢). خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٩.

(١٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠؛ وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٠.

الصباغ"[1] مرة فقال له: "اشتغل وتأدب وإلاّ كنت صباغاً بغير أب" فلما خرج ابن الصباغ هنأه من عنده من الحضور بأن الوزير تكلّم معه بهذا[2]، بل أنّ بعضهم يذهب إلى أشدّ من ذلك في وصف تكبره، فيقول ابن العمراني: إنّ خادماً صحب عميد الدولة من أصفهان إلى بغداد فلم يكلمه سوى أربع عشرة كلمة فقط، وأن له خادماً آخر لم يكلمه إلاّ مرة واحدة في يومٍ صبّ عليه ماءً حاراً، فأمره أن يستدعي الحاجب فلما حضر أمره العميد أن يأمر الخادم بمزج الماء[3]، ولعلّ ما ذكر في حق "عميد الدولة" من الروايات التي تظهر عنده نزعة التكبُّر والتي أوردها ابن العمراني كان الهدف من ورائها تشويه صورته، أو تباين الناس في تقييم شخصه وهي مسألة عادية.

وخدم "عميد الدولة" ثلاثة من خلفاء بني العباس ووزر لاثنين منهم[4]، فالذين خدمهم هم القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) والمقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤م) والمستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٧٧-١١١٨م) أمّا اللذان وزر لهما فهما، المقتدي بأمر الله والمستظهر بالله، وتولى الوزارة المقتدية مدة تراوحت بين أربع سنين إلى خمس وهي الفترة الواقعة بين (٤٧٢هـ-٤٧٦هـ/١٠٧٨-١١٨٤م) ثم أعاده المقتدي سنة ٤٨٤هـ حتى وفاته، وأكد وزارته المستظهر مدة سبع سنوات منذ عام (٤٨٧هـ/١٠٩١م) حتى سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، فكان مجموع ما وزر للخليفتين ثلاث عشرة سنة وأشهراً، تخللها الانقطاع والعزل، وبذلك سطع نجمه على مسرح الأحداث فقيل[5]:[الوافر]

---

(1). ابن الصباغ: عبد السيد محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن جعفر المعروف بالإمام أبو نصر بن الصباغ الفقيه الشافعي عرف بفقيه العراقين له تصانيف كثيرة في الفقه والأصول، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢١٧-٢١٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٦.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠؛ وانظر: الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩٣؛ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص١٣١؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٧٢.

(3). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٣.

(4). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٩؛ وانظر: الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص١٩٢؛ العيني، عقد الجمان، خط، ج١٢، ورقة ١٢٧أ.

(5). صردر، ديوانه، ص٩٧.

أطلـــعَ اللـــه للخلافـــة نجمــــاً منـك عـن سَــعْدِكَ المخلّـد يُنبـي
دولـــةٌ مــذ دُعيــتَ فيهــا عميـــداً غَنِيَــتْ عَــنْ عَمودِهــا الطنـــبِ

- **وزارته للخليفة المقتدي بأمر الله (٤٧٢-٤٧٦هـ/١٠٧٩-١٠٨٣م).**

توافرت في عميد الدولة من المقومات والصفات الحميدة ما حمل الخلفاء على إستيزاره لهم، فبعد أن عُزل والده عن منصب الوزارة العباسية سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، رتّب الخليفة المقتدي في وزارته أبي شجاع الروذراوري وأرسل فخر الدولة بن جهير ولده عميد الدولة إلى السلاجقة لإصلاح حاله معهم، وقد نجح الابن فيما أوكل إليه، ونال رضى السلطان "ملكشاة" الذي خلع عليه خلعاً تشريفية، وبعث أخرى مماثلة لوالده فخر الدولة في بغداد[١] كناية عن صفاء الخواطر بين الطرفين.

ولما رجع عميد الدولة إلى بغداد رفض الخليفة إعادة بني جهير إلى خدمته من جديد، وربما كان السبب في ذلك يعود إلى محاولة المقتدي بأمر الله الخروج على نطاق الدائرة الضيقة التي حاصره فيها سلاطين السلاجقة، ولكنّ هذه المحاولة سرعان ما باءت بالفشل عندما أرسل الوزير السلجوقي نظام الملك رسولاً إلى دار الخلافة يُطالب الخليفة المقتدي بأمر الله بعزل الوزير أبو شجاع ويأمر بتولية هذا المنصب صهره عميد الدولة بن جهير[٢].

ومن الواضح أن لرباط المصاهرة الذي جمع بين الطرفين أثراً في ذلك وهذا ما عبر عنه نظام الملك بنص صريح وقال: "إنني ما رضيت عنه وزوجته بولدي، ورميت كلّ عداوة كانت من جهتي، وصافيته إلاّ لقرب من الخدمة"[٣]، فأذعن الخليفة للأوامر السلجوقية وأوعز إلى عميد الدولة بممارسة سلطاته الوزارية، في شهر صفر من سنة (٤٧٢هـ/١٠٧٩م)[٤]

---

[١]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٩٧.

[٢]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٠٠، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦، السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص١٣٧.

[٣]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث، (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٩٩.

[٤]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ، ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٤٧٦.

وعُدَّت المراسيم الخاصة للاحتفال بتعيينه وزيراً، حيث استدعاه الخليفة إلى دار الخلافة[1] وخلع عليه خلع الوزارة[2]، وقد وصف الشاعر صردر الجهود التي قام بها عميد الدولة للمحافظة على منصب الوزارة محتكراً في أسرته فقال[3]:[الكامل]

أيام جاهدَ في أبيه بهمّةٍ ... هَجَعَ الظلام وعينُها ما تَهجَعُ
حتى اطمأنَّ من الوزارةِ نافرٌ ... وثنى إليه ليتَها والأخْدعُ
واستُرجِعتْ عَذْراءَ لم يَنعمْ بها ... بَعْلٌ كما ارتَجَعَ الوديعةَ مودعُ

وأخرج الخليفة منشوراً فيه قرار تعيينه وزيراً من إنشاء أمين الدولة ابن الموصلايا تطيباً لخاطره، معتذراً فيه ممّا بدر منه في عزله عن الخدمة، ويبدو أن القلقشندي قد وقع في لبس عندما أشار إلى أنَّ هذا المكتوب قد صدر في عهد الخليفة القائم بأمر الله في سنة (٤٧٢هـ/١٠٧٩م) فمن المعلوم أن الخليفة القائم بأمر الله توفي منذ عام (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) وهكذا فإن هذا المرسوم كان في عهد الخليفة المقتدي بأمر الله، كما أشار القلقشندي إلى أن نص الخطاب أصدر لفخر الدولة وليس لابنه عميد الدولة، وبعد إمعان النظر فيه نرجح أن يكون ذلك موجه للوزير عميد الدولة لأن معظم المصادر التاريخية تورد أن عميد الدولة هو من تولى الوزارة في هذه السنة المذكورة وليس والده، ومما يدلل لنا على ذلك ما ورد في نص الخطاب من ذكرٍ للقب "تاج الوزراء" وبعد البحث في ألقاب بني جهير تبين لنا أنه لم يتلقب أحداً بهذا اللقب سوى عميد الدولة، وقد حوى بعد تعظيم الذات الالهية والإشادة بالخليفة وصفاته الحميدة الأسباب التي دعت المقتدي بأمر الله أن يسترجع ابن جهير إلى خدمته، ذاكراً صفاته وأعماله الجليلة في خدمة الدولة العباسية[4].

---

(1). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٩٩.

(2). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ، البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٧.

(3). صردر، ديوانه، ص٧١.

(4). القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٣٤-٢٣٧؛ وانظر: حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية، سلسلة وثائق الإسلام مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٤م، ج٣، ص١٤٤-١٤٨، وسيشار إليه حمادة، الوثائق السياسية. وانظر: النص كاملاً ملحق رقم ٤.

وقد كان عميد الدولة مؤهلاً لحمل مسؤولية الوزارة، لأن الخلفاء اعتمدوا عليه في كثير من الأحيان قبل توليه وزارتهم، إذ أنيطت به مهمات إدارية في الدولة ومنها: أنه كان مسؤولاً في وظيفة الإنهاء والمطالعة[1]، كما باشر الإشراف على إقطاعات الخليفة القائم بأمر الله[2]، والأهمُّ من هذا كله المنصب المهم الذي تسلمه عند الخلفاء وهو منصب نيابة الوزارة، فقد ناب عميد الدولة عن والده فخر الدولة بن جهير في الوزارة العباسية في سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨)[3]، وهذا ما تؤكده إحدى الوثائق الرسمية التي خرجت من ديوان الإنشاء ذلك الوقت وخاطب الخليفة وزيره فخر الدولة قائلاً: "وجدد من تجميل ولديك، وتمييز محمد الأكبر منهما بما اقتضاه وارتضاه خدمته، وانتضاؤه منهُ للمناب عنك من استوثق مضاءة ونهضته حتى علم كونه مبرزاً في الكفاية على أكفائه إلى جانب السعادة التي استحق به مزيد الاشتمال في أثنائه ..."[4] ويعدُّ بذلك أول من شغل هذا المنصب في تاريخ الدولة العباسية على أنه منصب دائم[5].

كما حظي عميد الدولة أيضاً بتوليه الوزارة لولاة العهد، فقد وزر للمقتدي بأمر الله عندما كان ولياً للعهد وجاء سبب اختياره قول الخليفة: "ثم إن أمير المؤمنين –يعني القائم بأمر الله –أعمل فكره فيمن ينظر لولي عهده ويزر، ويقوم من خدمته بما يرتدي فيه بأثواب السداد ويأتزر، فلم يجد أكفى ولا أوفى ولا أحق بالرتبة ولا أولى من عميد الدولة أبي منصور محمد بن محمد بن جهير ..."[6] وعوضاً من كلِّ هذا كان عميد الدولة سفيراً دائماً للخلفاء في البلاط السلطاني[7] وكان موفقاً فيما كان يوكل إليه من مهمات وهذا أدى لرفع منزلته عند الخلافة

(1). الأصفاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٣٠ب، وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٧.

(2). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٣٠ب، وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٧.

(3). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢٢ب، وانظر: الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٨٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨، جواد، مصطفى، عميد الدولة بن جهير، مجلة لغة العرب، السنة التاسعة، ١٩٣١م، ص٣٧، وسيشار إليه جواد، عميد الدولة بن جهير.

(4). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢٢ب.

(5). عقلة، الخلافة العباسية، ص١٢٢.

(6). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٣٦أ.

(7). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٦.

والسلطنة.

وقد مدحه الشاعر صردر عند توليه نيابة الوزارة بقصيدة طويلة بدأها بأبيات من الغزل جاء فيها[1]:[الكامل]

قد بانَ عُذرُكَ والخليطُ مُسودِعُ	وهوى النفوس مَعَ الهوادج يُرفَعُ
لكَ حيثما سَمَتِ الركائبُ لفتنةٌ	أتُرى البدورُ بكلِّ وادٍ تطلُعُ!

ويصف قوة بأسه وعزيمته فيقول[2]: [الكامل]

ولـه عزائمُ ضاقَ عنها ذَرْعَهُ	كالسيل غصَّ به الطريقُ المَهيع
شوسٌ إذا ما استدعتْ أنابيبَ القنا	أبصرتَها من سُرعة تتزعزعُ

وبذلك وضع عميد الدولة بن جهير البذرة الأولى التي ظل يسقيها من جهده وكفاحه، وسرعان ما حصل منها على نتائج مثمرة[3]: [الكامل]

غَرَسَ الصنائعَ فاجتنى ثمراتِها	شكراً، وكلٌّ حاصدٌ ما يزرعُ
عيدانُ مجدٍ لا تلين لغامرٍ	وجبالُ عزٍّ مَروُها ما يُقْرَعُ
ومناقبٌ يقضي لها متعنتٌ	في حكمه ويجيزها متتبِّعُ

ويبدو أن عميد الدولة بن جهير كان يتمتع بدرجة كبيرة من الدهاء والفطنة، إذ أنه أدرك أهمية كسب ودّ الوزير السلجوقي نظام الملك وصداقته، وتمكّن من فرض احترامه على السلاجقة، فكان الوزير نظام الملك من أشدّ المعجبين بشخص عميد الدولة ويصفه دائماً بالأوصاف العظيمة[4]، ويستشيره في أموره ، ويقدّمه على كفاة الدولة وأعيانها[5]، بل إنه كان

---

[1]. صردر، ديوانه، ص٦٧.

[2]. صردر، ديوانه، ص٧١.

[3]. صردر، ديوانه، ص٧٠.

[4]. الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩٢؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٩٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣١.

[5]. الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩٣؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣١.

يردد قائلاً: "وددتُ لو أني ولدت مثله"[1] ويقول أيضاً: "ما أحسد أحداً إلاّ فخر الدولة على ولده"[2].

ويصف صردر مكانته عند نظام الملك فيقول[3]: [الطويل]

ولاقيت ربَّ التاج يَرفعُ حُجْبَه ويطرُد، ما ناجيته، التيهَ والكبرا
وحاورتَه حتى شغفتَ فؤادَه ألا ربّما كان البيانُ هو السحرا
رأى فيك ما يهواه مجدا وسؤددا فما كنتَ إلا في مجالسهِ صدرا

وقد استغلّ "عميد الدولة" هذا التقارب مع الوزير السلجوقي فسارع إلى توثيق علاقته معه، ولم يجد أفضل من رباط المصاهرة ليُمتن به هذه العلاقة ويشدَّ به أزره، فتزوّج ابنة لنظام الملك اسمها "زبيدة"[4] وذلك في سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م)[5] وبعد وفاتها في سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) [6]، شَعَرَ عميد الدولة بأن عرى النسب قد أذنت بالانقطاع، فبادر إلى تجديد الروابط بزواجه من حفيدة الوزير السلجوقي نظام الملك في سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) [7]، وكانت ابنة رئيس جرجان واسمها صفية[8]. وبذلك حافظ على علاقته الجيدة مع السلاجقة، وقد وصف لنا صردر الصهار الأول الذي ربط بين عميد الدولة ونظام الملك فقال[9]: [الطويل]

ومن رأيه الميمونِ عقدُ حبالهِ بحبلك حتى قد شددتَ به أزْرا
لئن كنتَ أنتَ "المشتري" في سمائهِ علوّا لقد قارنتَ في افقهِ "الشّعْرَى"
فأصبحتُما "كالفرقَدين" تناسُباً فأكرمْ بذا حَمْواً وأكرم بذا صِهراً

---

[1]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٦.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٩.

[3]. صردر، ديوانه، ص٨٢.

[4]. زبيدة: ابنة الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس، وهي ابنة الوزير نظام الملك، وزوجة الوزير عميد الدولة بن جهير تزوجها(٤٦٢هـ) وتوفيت سنة (٤٧٠هـ)،انظر الصفدي،الوافي بالوفيات،ج١٤، ص١٩٤.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٩؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ، الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٧؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٦؛ جواد، عميد الدولة بن جهير، ص٢٩٨.

[6]. الاصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩٠؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢.

[7]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٧.

[8]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢.

[9]. صردر، ديوانه، ص٨٢.

وبالرغم من أنَّ ابن تغري بردي يقول: "أنَّ عميد الدولة كان في المحلّ أعظم ونظام الملك في المال أكثر"[1] فإن في هذا القول شيء من المبالغة لأن المكانة التي كانت للوزير نظام الملك لا تقلُّ عن مكانة عميد الدولة الوزير العباسي، هذا إن لم تكن أعلى منها.

وقد أدرك عميد الدولة النفوذ والسطوة اللذين تمتَّعَ بهما نظام الملك وزير السلاجقة، وعَرَف أهميتهُ ومكانته والصلاحيات الواسعة التي أناطه بها السلاطين العظام، فأيقن بذلك مدى أهمية كسب صداقة شخصية مثل نظام الملك إلى جانبه، ولا شكَّ في أن المصاهرة الجَهيْرِيَّة -النظاميَّة قد عادت بالخير الوفير على بني جهير[2]، وسيتضحُ ذلك عند وقوف نظام الملك إلى جانب صهره عميد الدولة ومساندته ودعمه المستمر لـه، وتثبيت أقدامه في منصبه الوزاري لدى الخلفاء العباسيين وشفاعته له في مواقف كثيرة.

واستقرَّ عميد الدولة في وزارته للمقتدي بأمر الله حتى عام (٤٧٦هـ/١٠٨٤م) عندما طرده الخليفة عن منصبه[3]، وبعث إليه رسالة جاء فيها: "انصرف إلى دارك وخلِّ ما أنت منوط به من نظرك"[4] وقيل: إن سبب العزل يعود إلى الثقة المطلقة ببني جهير فاصبحوا مسؤولين عن كلِّ شيء يعارض الخليفة وحاشيته[5]، ويبدو أن هذه الثقة المطلقة قد منحها السلاجقة لبني جهير، مما ترتب عليه إثارة حفيظة الخليفة من التقارب الذي جمع بين السلاجقة أصحاب النفوذ والسلطة وبين بني جهير وزراء الخلافة، أما عميد الدولة فإنه اكتفى بالقول: "السمع والطاعة، قد كنتُ في الديوان متحملاً للأعباء، وأنا الآن متوفر عن الدعاء"[6].

---

(1). ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٠٦.

(2). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٧.

(3). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٣؛ الأربلي؛ خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٠٧؛ العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة ١٢٧.

(4). ابن الجوزي، المنتظم ج١٦، ص٢٢٧؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٧أ.

(5). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٧؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٠.

(6). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢١٩.

ولا نجد في هذا العزل أي تدخل للسلاجقة؛ لأن فخر الدولة والد الوزير عميد الدولة كان في السنة الماضية عندهم، وأخذ من السلطان عهداً ألاّ يمكّن الخليفة منهم أحداً أو أن يستبدلهم في خدمته[1]، وقد ثقلَ هذا العزل على نظام الملك حمو عميد الدولة[2] ولما عُزل قال ابن الهبّارية[3]:[الكامل]

ما حَطَّ قدرَهُمُ ولا أزرى بهمْ	عزلٌ عجِلْتَ به وأنتَ سديدُ
لَكنْ به ظَهرَتْ حقائقُ سَعْدِهم	والسّيفُ يبدي مساءَه التجْريدُ
والأُسْدُ أولى بالعَرين فَكمْ غدا	يختالُ في خِيسِ الخِلافةِ سِيدُ

وإذا لم يكن للسلاجقة يدٌ في طرد عميد الدولة عن وزارته، فإننا في نفس الوقت لا نلمسُ مبادرة سلجوقية للشفاعة له أو التوسط في إبقائه في منصبه، ولعلَّ السبب في ذلك يعود إلى أن فخر الدولة بن جهير قد اتَّصلَ مباشرة بعد عزل ولده بالسلاجقة ورغب في القدوم إليهم والدخول في خدمتهم[4]، وبدأت مصالح مشتركة تجمع بين الجهيريين والسلاجقة حالت دون إقدام نظام الملك في الضغط على الخليفة لإعادة وزيره إلى منصبه، وهذا ما سيتم الحديث عنه بالتفصيل في الفصل الثالث من هذه الدراسة.

وبعد رحيلهم عن بغداد في سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٤م) رتَّب الخليفة المقتدي بأمر الله أبا الفتح المظفر بن رئيس الرؤساء نائباً في وزارته[5]، وما لبث أن حلَّ مكانه أبو شجاع الروذراوري فهجاه أحد الشعراء قائلاً[6]: [الكامل]

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢١٤.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٠.

[3]. الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج٢، ص٧٤؛ وابن الهبارية هو محمد بن علي بن يعلى العباسي، أحد شعراء عصره، عرف عنه إقدامه بالهجو على أرباب المناصب وهو من الفضلاء، له كتابٌ سماه "فلك المعاني" جمع فيه نتفاً وطرفاً، أنظر ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٥٣-٤٥٧؛ سبط الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص٥٨،٦٠.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢١٩.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٧، والمظفر بن رئيس الرؤساء: أبو القاسم بن المسلمة كان بيته مجمع الفضلاء وأهل العلم والدين، وقد لازم أبو اسحاق الشيرازي وصحبه، (ت٤٩١هـ/١١٩٩م) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨٨.

[6]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١١٠-١١١.

ما استبدلوا ابن جهير في ديوانهم بأبي شُجَاعَ لِرِفْعةٍ وجلال
لكنْ رأوه أشحَّ أهلِ زمانه فاستوزروه لحفظ بيت المالِ

واستمر الروذراوري في وزارته حتى سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م) ثمَّ عُزل عنها بإشارة من السلطان ملكشاة الذي نقم منه تشدده في معاملة أهل الذمة[١]، وقيل: إنَّ سبب عزله إعتراضه لرجلٍ يهودي كان وكيلاً للسلطان ووزيره في بغداد[٢]، ويرى ابن تغري بردي -وهو متأخر- أن نظام الملك عزله ليولي ابنه مؤيد الملك مكانه في الوزارة العباسية[٣]، وقد فارق أبو شجاع وزراته وهو ينشد[٤]:[الوافر]

تولّاها وليسَ له عدّوٌ وفارقها وليس له صديق

وفي هذا كناية عمّا تعرض له الوزراء من المؤامرات وحقد الوشاة الذين لا يتوانون في اقتناص أي فرصة يجدونها للإيقاع بالوزراء.

وعند عزله ناب ابن الموصلايا -كاتب الإنشاء- في الوزارة العباسية[٥] وبعد مضيٍّ ما يقارب ثماني سنوات أقصى فيها عميد الدولة بن جهير عن وزارته عاد ليتولاّها من جديد في سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م)، وذلك بشفاعة من الوزير نظام الملك[٦] فهجاهُ ابن الهبَّارية هجاءً حاداً

[١]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٢؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٧٠أ؛ إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص٢٢٣.
[٢]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٤.
[٣]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٣٠؛ ومؤيد الملك: أبو بكر عبيد الله ولد سنة (٤٤٤هـ/١٠٥٢م) دخل مع والده في خدمة السلاجقة واستوزر لسلاطينهم بركياروق ومحمد بن ملكشاة إمتاز بالكفاءة ورجاحة العقل وكان ملاذ أهل الأدب والشعر توفي (٤٩٤هـ/١١٠٠م) أنظر ترجمته في الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٣١-١٣٣؛ إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص١٨٧-٢٩١.
[٤]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٣؛ وانظر: ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٥.
[٥]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٩ب-٧٠أ.
[٦]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٤؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٢١٦؛ ويذكر ابن خلدون أن الخليفة هو الذي أرسل في طلب عميد الدولة من عند السلاجقة ليعيده إلى الوزارة، ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٥٧٩.

قال فيه[1]:[البسيط]

قُـلْ للوزيـر ولا تعجبـك هيبتــهُ	وإن تعــاظَمَ واســتعلى بمنصبِــهِ
لولا ابنة الشيخ مـا استوزرت ثانيـة	فاشكر حراً صرت مولانـا الوزيـر بـه.

وفـي هذا الكـلام كثيرٌ مـن الصحـة، لأن عميـد الدولـة بـن جهـير كـان مدينـاً بـالفعل لنظام الملك في رجوعه إلى منصبه، بعد أن ساهم مع أسرته في خدمـة السـلاجقة طيلة الفترة (٤٧٦-٤٨٤هـ/١٠٨٤-١٠٩١م)، ويعدُّ ذلك من الفوائد التي عادت على بني جهير مـن جرّاء المصاهرة مع السلاجقة، فكأن عميد الدولة يجد منصبه شاغراً في أي وقت يريد العـودة إليـه أمكنه ذلك.

وهكذا عاد عميد الدولة إلى وزارته عند الخلفاء العباسيين، وظلَّ معززاً فيهـا طيلـة عهـد الخليفة المقتدي بأمر الله، ولماً مات الوزير "نظام الملك" السلجوقي سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) فقـد بنو جهير سنداً مهماً لهم ومعيناً وقف إلـى جـانبهم وقت الشدائد، فجلس صهـره عميـد الدولـة للعزاء به ثلاثة أيام[2]، كما خلع الخليفة على وزيره جبراً بمصابه بحماه الوزير نظام الملك[3].

---

(1). الأصفهاني، نصرة الفترة، خـط، ورقـة ١٠٣ب، وانظـر البنـداري، دولـة السـلاجقة، ص٩٩، وقـد وردت الأبيات في وفيات الأعيان كالآتي:

قـل للوزيـر ولا تعجبـك هيبتـه	وإن تعــاظم واســتولى لمنصبــه
لولا ابنة الشيخ ما استوزرت ثانيـة	فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣٢.

كما وردت الأبيات عند ابن العمراني كالآتي:

قـل للوزيـر إذا بـاهى برتبتــه	كـلّ البريــة واســتعلى بمنصبـه
لـولا صفية ما استوزرت ثانيــة	فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢.

ولم يرد في الفخري إلاّ البيت الثاني وفيه:

لولا صفيــة مـا استوزرت ثانيـة	فاشكر حراً صرت مولانا الوزير به

ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٦.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠٦؛ وانظر: السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٣٢٧.

(3). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٩.

- وزارته للخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٤٩٣هـ/١٠٩٤-١٠٩٩م)

بعد وفاة المقتدي بأمر الله سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) خَلَفَهُ في الخلافة العباسية ولي عهده أبو العباس المستظهر بالله، ويصف ابن الطقطقا حال الوزارة في عهده فيقول: "لم يكن للوزارة في عهده عظيم أبهة"[١] وكان قد أقرَّ الوزير السابق عميد الدولة في منصبه، وذلك بعد أن أخذ له البيعة بالخلافة[٢]، ويصفُ لنا الأبيوردي[٣] ما بذله الوزير من جهودٍ لأخذ هذه البيعة فقال[٤]: [الكامل]

ونَضَا وزيرُكَ عَزْمَةً عَرَبِيَّةً ... نَبَذَتْ إليكَ الأَمْرَ وَهْوَ وثيقُ
وَدَعَا لبَيْعَتِكَ القُلُوبَ فَلَمْ ... يَمِلْ مِنْها إلى أَحَدٍ سِواكَ فَرِيقُ
يَرْمي وَرَاءَكَ وَهْوَ مَرهوبُ الشَّذا ... وعَليكَ مُلْتَهِبُ الضَّميرِ شَفيقُ

وعن حُسْنِ رأيه تابع يقول[٥]: [الكامل]

رأيٌ يطلُّ على الخُطوبِ فتَنْجَلي ... عَنْهُ، وكَيْدٌ بالعدوّ يَحيقُ
لا زالَ مَمْدودَ الرِّواقِ عَلَيْكُما ... ظِلٌّ يَقيلُ العِزُّ فيهِ صَفيقُ

وقد فوضَّ المستظهر بالله أمور دولته إلى وزيره[٦]، فمهدَّ عميد الدولة أمورها وأحسن إلى الرعايا[٧]، وجعل له الخليفة حرية التصرف المطلق في خزائن أموال الدولة دون حساب

---

(١). ابن الطقطقا، الفخري، ص٨٩.

(٢). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢؛ وانظر: ابن العمراني، الانباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٠؛ العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة ١١١ب.

(٣). الأبيوردي: محمد بن أحمد الكوفي أحد قرّاء أبيورد خدم مؤيد الملك بن نظام الملك ومدح عميد الدولة بن جهير ثم تغيّر عليه وهجاه فسعى به ابن جهير إلى الخليفة وهرب إلى مصر؛ انظر ياقوت الحموي، شهاب الدين بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م، ج٥، ص٢٣٦.

(٤). الأبيوردي، محمد بن أحمد بن اسحاق (ت٥٠٧هـ/١١١٣م)، ديوان الأبيوردي، تحقيق، عمر الأسعد مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ج١، ص٢١٤، وسيشار إليه الأبيوردي، ديوانه.

(٥). الأبيوردي، ديوانه، ج١، ص٢١٤.

(٦). الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص٢٨٢.

(٧). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٠٧.

أو مراقبة[1]، فأصبح بذلك محلَّ ثقة الخليفة ومن أكثر المقرَّبين إليه، وقد وَصَفَ أحد الشعراء ما وصل إليه ابن جهير قائلاً[2]:[الكامل]

فاصعدْ هِضابَ المَجدِ إنَّكَ حُزتَها بالجاه والتمكين والإمكَان.

وبقي عميد الدولة متربعاً على كرسيِّ الوزارة العباسية طيلة ثماني سنوات وأحد عشر شهراً وأربعة أيام[3]، ليثبت في هذه المدة الطويلة حسن كفايته الإدارية، وإذا كان لنظام الملك أثرٌ في تثبيت وزارة بني جهير فإنه لم يكن العامل الرئيسي في محافظتهم على منصبهم طيلة وزارة عميد الدولة وأخيه علي بن جهير فيما بعد.

قبض "المستظهر بالله" على وزيره عميد الدولة وطرده من منصبه في سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، وتضاربت الآراء بين المؤرخين في السبب الذي جعَلَ الخليفة يتخذ هذا الإجراء في حق وزيره، فهذا ابن القلانسي –وهو أقدم المؤرخين ذكراً للأحداث– يقول: إنه عزل لمنكراتٍ نسبت إليه[4]، دون أن يشير إلى هذه المنكرات، أمّا ابن العمراني فيذكر أنه عُزل لأن المستظهر بالله نقم عليه لأشياء كان يعامله بها عميد الدولة أيام والده المقتدي[5]، وكثيرون هم الذين يعزون السبب إلى السلاجقة ممثلاً بشخص الوزير مؤيد الملك وزير ملكشاة ويذكرون أنه كان حانقاً على عميد الدولة للمرتبة الرفيعة التي بلغها في البلاط العباسي[6]، ويرى الذهبي أن الخليفة أقطع وزيره إقطاعاً مقداره ثلاثون ألف دينار فعمَّره عميد الدولة ثم سعى به رجال الدولة وكبارها عند الخليفة بأنه عمَّر إقطاعه وخرَّبَ إقطاع الخليفة فغضب

---

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢.

(٢). الأصفهاني، الخريدة، القسم المغربي، تحقيق محمد المرزوقي وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٣م، ص٣١٥.

(٣). ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٦٤.

(٤). ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩.

(٥). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٦.

(٦). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٥؛ وانظر: خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٧؛ ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٥٨٩؛ العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة ١٢٦.

عليه "المستظهر" وعزله[1].

والأرجح من بين هذه الآراء أن السلاجقة كانوا وراء عزله لعداوة قديمة كانت بينهما، وربما كانت العداوة قد استحدثت بين السلطان محمد بن ملكشاة وبين عميد الدولة بن جهير، لا سيما أن عميد الدولة كان من أنصار ومؤيدي سلطنة بركياروق المنافس القوي للسلطان محمد على الحكم السلجوقي فلعل السلطان محمد بن ملكشاة قد حنق على عميد الدولة موقفه السابق فلما وجد فرصة مناسبة أقدم على إيغار قلب الخليفة على وزيره ومن ثم قتله، كما قد يكون السبب الأموال التي حصّلها عميد الدولة في أثناء ولايته عليها من السلاجقة، فقد حاول السلطان بركياروق القبض عليه ومصادرة أمواله في سنة (٤٩٣هـ/١١٠١م) [2]، ويبدو أن ذلك الأمر قد تزامن مع سعاية الوشاة من رجال الدولة العباسية بالوزير عميد الدولة[3].

ثم صادر الخليفة أموال وزيره بعد أن عزله[4]، وأخذ منها خمسة وعشرين ألف دينار[5]، ولم يكتف بذلك بل صادر جميع أتباعه ونوابه وحاشيته[6]، وقبض على أخويه علي بن فخر الدولة وأبي البركات جهير بن فخر الدولة[7] ولما قُبض عليه شمَّتَ به أحد السعاة وبعث إلى الخليفة يحضهُ على قتله فأجاب الخليفة[8]:[الخفيف]

غيرَ ما طالبين ذَحلاً ولكنْ مالَ الدهرُ على أُناسٍ فَمالوا.

ومع ذلك تخلَّص منه الخليفة[9]، وأخرج ميتاً في شوّال من سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)

---

(1). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص١٦٨.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٣.

(3). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٧.

(4). الكتبي، عيون التواريخ، خط، ج١١، ورقة٤٨ب؛ وانظر: الزركلي، خير الدين، الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م، ج٧، ص٢٢.

(5). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٥؛ وانظر: النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٥٥.

(6). ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٩؛ وانظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٧٢.

(7). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٥.

(8). الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) عيون التواريخ، تحقيق، فيصل السامر وعبد المنعم داود، وزارة الأعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م، ج١٢، ص٨٣.

(9). العُظيمي، تاريخ حلب، ص٣٦١.

وحُمل إلى داره فغسّل ودفن بالتربة التي استجدّها في قراح ابن رزين[1]، ويشير المؤرخون إلى أن ميتته كانت قاسية، فقد أدخله الخليفة إلى حمامٍ وأغلق عليه الباب حتى مات[2]. ثم أحضر شهوداً ليشهدوا بأنه مات ميتة طبيعية، وقتل معه أخاه أبا البركات[3].

وكان عمره حين مات ستاً وخمسين سنة وشهوراً[4]، وكانت عادة قتل الوزراء وتعذيبهم ومصادرتهم كثيرة الوقوع في العصر السلجوقي[5]، وبعد قتل عميد الدولة بن جهير تشتت أفراد أسرته وبيع متاعهم ودورهم وأخذ ثمنه الوزير السلجوقي مؤيد الملك بن نظام الملك، ويعلق ابن الأثير على هذا الموقف فيقول "وهذا عاقبة خدمة الملوك"[6].

- المطلب الثالث: وزارة أبي القاسم "علي بن محمد بن جهير" للخليفة المستظهر بالله (٤٩٦-٥٠٧هـ/١١٠٢-١١١٣م)

بعد وفاة الوزير عميد الدولة بن جهير استوزر الخليفة المستظهر بالله عدداً من الأشخاص منهم سديد الملك[7] الذي تولّى الوزارة في سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م) ولكن سرعان ما عزل عنها في أواخر هذه السنة بسبب جهله بقواعد ديوان الخلافة[8].

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠، وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٧. وقراح ابن رزين: محلة من محال بغداد تقع في وسط بغداد من الناحية الشرقية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٣١٥.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠؛ وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٥؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣٣؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٧٢.

[3]. ابن العمراني، الانباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٧.

[4]. العيني، عقد الجمان، خط، ج١٢، ورقة١٢٧أ.

[5]. فهد، العراق في العصر العباسي الأخير، ص١٠٦.

[6]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٨-٢٠٩.

[7]. سديد الملك، أبو المعالي مفضل بن عبد الرزاق، كان يشغل منصب عارض الجند في أواخر عهد ملكشاة ثم خدم السلطان محمد بن ملكشاة الذي أوفده في مهمة إلى بغداد، فاختاره المستظهر ليزر له وفي عام (٤٩٥هـ/١١٠٢م)) عزله وحبسه؛ انظر، إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص١٤٢.

[8]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢١٧.

وأرسل المستظهر بالله -بعد عزل سديد الملك- في طلب أبي القاسم علي بن جهير ليوليه الوزارة وتمَّ ذلك في سنة (٤٩٦هـ/١١٠٢م) [1] وكان زعيم الرؤساء علي بن جهير مقيماً بالحِلّة المزيدية منذ هروبه من بغداد ولجوئه إليها على أثر تأزم العلاقات بين الخلافة وبني جهير، وإقدام الخليفة على قتل عميد الدولة، فبعد أن قُتل أخوه عميد الدولة خرج متنكراً ورحل عن بغداد[2]، ويذكر خواندمير أن غيابه الطويل هذا لم يكن عند أمراء الحلّة، بل كان مسجوناً عند الخليفة ولم يغادر دار الخلافة في بغداد[3]، والارجح هو ما قيل في احتمائه بالمزيدين لإجماع المؤرخين المعاصرين للأحداث على ذلك، ويقال: إنه أجاب دعوة الخليفة على كرهٍ منه[4] فقد امتنع من القدوم في بداية الأمر، ثم توسطه الأمير المزيدي صدقة بن منصور[5] ورافقه إلى بغداد ووعده أن يقف إلى جانبه ويحميه إذا ما تعرض للعزل عن الوزارة[6].

وتمتَّعَ أبو القاسم علي بن جهير بصفاتٍ أثّرت في صقل شخصيته وجذبت أنظار المستظهر بالله إليه ليوليه وزارته، فقد عرف عنه الرزانة، وجودة الرأي والكفاءة العالية[7]، وكان حسن التدبير والثبات[8]، وأهمُّ من كلِّ هذا أنه كان من رجال الإدارة إذ شغل منصب كاتب ديوان الزّمام[9] في بغداد أيام الخليفتين القائم بأمر الله والمقتدي بأمر الله منذ فترة مبكرة

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٨٠؛ وانظر: ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٧٨؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٧١.

(2). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٩٣ب، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٠٤.

(3). خواندمير، دستور الوزراء، ص٢٠٠.

(4). ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٨٣.

(5). صدقة بن منصور: أبو الحسن صدقة بن منصور بن دُبيس بن علي بن مزيد الأسدي الملقب سيف الدولة فخر الدين بن بهاء الدولة، صاحب الحلة السيفية كان يلقب بملك العرب وله بأس وسطوة وقوة وهيبة، اختلف مع السلطان محمد بن ملكشاة فقتل في سنة (٥٠٨هـ/١١١٤م)، انظر ترجمته في ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٩٠-٤٩١.

(6). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٩٤أ.

(7). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٤٢.

(8). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص٥٥؛ وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص٢٠٤.

(9). ديوان الزّمام: هو من مناصب الدولة الإدارية ويختص في النظر بالأمور المالية وقد وصف لنا ابن الساعي في مقامته في قواعد بغداد أهمية هذا المنصب وقال: "صاحب ديوان الزمام هو صدر صدور=

(٤٦٠هـ-١٠٦٨م)[١]، وظلَّ يشغل هذا المنصب مدة أربع عشرة سنة[٢]، ثم كان والياً للسلاجقة في ديار بكر بعد إخضاعها مع والده فخر الدولة سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٢م) [٣]، وهو من بيت رئاسة ووزارة[٤] ولا ننسى أنه وزيرٌ ابن وزير فهو معرقٌ في الوزارة[٥]، كما أنه من أفراد أسرة كان لهم باعٌ طويلٌ في خدمة الدول، ولابدَّ أن لهذا النسب العريق أثراً في استيزار العباسيين له، وفي ذلك يمدحه الشاعر قائلاً[٦]: [الكامل]

أعليُّ يا ابْنَ مُحمّد بْنِ مُحمّدٍ ... نسباً من الشمس المُنيرةِ أبينا
أعيا الثُّريا وهي كَفُّ سمائِها ... مِنْ دَوْحِ مجدِكَ أن تناولُ أغصُنا

وبذلك كان مهيئاً للقيام بأعباء الوزارة فلما وصل إلى بغداد سنة (٤٩٦هـ/١١٠٢م) جَلَسَ في دست الوزارة، وحضر عنده كبار رجال الدولة لتهنئته بالمنصب الجديد[٧] وأظهر الوزير الجَهيْريّ براعة وحنكة إدارية وسياسية، وكان خير معين وناصح للخليفة[٨]:[الكامل]

أظهرْتَ للمُستَظهر النُّصْحَ الذّي ... ما مسَّ عزْمَك دونَ غايتهِ ونَى
وابوك قبلَك من أبيهِ قبلَه ... قد حَلَّ حيث حَلَلْتَ تَبني ما بَنَى

=الإسلام وخالصة الإمام وسيد أصحاب الاقلام، وصاحب البلاد المؤتمن على الطارق والتلاد، الحاكم في السهل والجبل، المطاع الأمر إن قال أو فعل، فلا يدرك شأوه أصحاب المراتب، ولا ينال درجته أصحاب المناصب، لقربه من الخليفة، ومثوله عند السدة الشريفة في حالتي السفر والحضر، إن غاب شخصه أو حضر يتخصص بذلك عنهم، فإن جحدوا فضله فإنه تنزل لركوبه أرض الزوراء وترعد لهيبته فرائض الكبراء..." انظر ابن الكازروني، ظهير الدين محمد البغدادي، (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ص٢١-٢٢.

(١). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٧أ؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٤١؛ الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٢٨أ؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٦؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص٥٥.

(٢). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص١٣٤.

(٣). الفارقي، الدولة المروانية؛ وانظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص١٣٤.

(٤). ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص٢٠٤.

(٥). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥، ص٢١٠.

(٦). الأرجاني، ناصح الدين أبو بكر أحمد بن الحسين (ت٥٤٤-١١٤٩م) ديوان الأرجاني، تحقيق محمد قاسم مصطفى، منشورات وزارة الثقافة، العراق، ١٩٧٩م، ج٣، ص١١٤٠٧؛ وسيشار إليه الأرجاني، ديوانه.

(٧). ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٤، ص٥٩٠.

(٨). الأرجاني، ديوانه، ج٣، ص١٤٠٨.

فسَقى ثَـراه كجُودِ كفِّكَ -يا ابْنَـهُ-   غيْـثٌ، ودُمْــتَ كـذِكرِه أبــداً لنــا

خدم أبو القاسم علي بن فخر الدولة فترة تقارب ثلاث سنوات وبضع شهور(١)، ثم عزله الخليفة عن وزارته في سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) (٢) فاستجار ابـن جهير مـرة ثانيـة بـأمير الحلّـة "صدقة بن منصور"(٣) وبخروجه أمر الخليفة بهدم دار بني جهير التي كـانت بباب العامـة(٤)، ويذكر الصفدي أن علياً بن فخر الدولة قد غادر بغداد وتوجّه إلـى أصفهان عاصمـة السـلاجقة حيث وزر هناك للسلطان "محمد بن ملكشاة" ويضيـف قـائلاً: إنـه ظـلَّ مقيمـاً عندهم إلـى حيـن وفاته سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م) (٥)، وبـالعودة إلـى مصادرنـا فقد ثبت لدينا أن وزراء السـلطان محمد بن ملكشاة هم أبو بكر عبيد الله بن نظام الملك، ونصير الملك بـن مؤيـد الملـك، ومحمـد ابن الحسين المبيدي، وسعد الملك أبو المحاسن، وأحمد بن نظام الملـك(٦)، ولـم يـرد بينهـم ذكـر أحدٍ من بني جهير فلعل الصفدي قد وهم ولعل علي بن فخـر الدولـة، قـد تولـى للسـلاجقة أحـد المهام الإدارية التي لـه خبرة فيهـا. ويبـدو أن هـذا الوزيـر قـد سـار إلـى السـلاجقة مـن الحلـة المزيدية وليس بعد خروجـه مباشـرة مـن بغـداد، ثـم إن غيابـه لـم يستمر إلاً سـنتين فقـط؛ لأن الخليفة استدعاه في سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م) وأعـاده إلـى الـوزارة(٧)، وبعودتـه إلـى بغـداد ظـلَّ يشغل منصبه الوزاري حتى وفاته سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م) (٨).

---

(١). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٩٥ب، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢٤، الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص١٣٤.

(٢). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٩٥ب؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٤٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٧٩.

(٣). ابن الجـوزي، المنتظـم، ج١٧، ص١٠٠؛ وانظـر: الصـفدي، الوافـي بالوفيـات، ج٢٢، ص١٣٤؛ الذهبـي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص٨٠.

(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٠٠؛ وانظر: ابن الأثير، الكـامل، ج٨، ص٢٤٤؛ ابـن الجـوزي، مـرآة الزمان، ج٨، ق١، ص١٨.

(٥). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص١٣٤.

(٦). زامباور، الأسرات الحاكمة، ص٣٣٨، وانظر: إقبال، الوزارة السلجوقية، ص١٨٧-٢٦١.

(٧). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خـط، ج١٢، ورقـة ١٩٧أ، وانظـر: ابـن الأثـير، الكـامل، ج٨، ص٢٥٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٥٨.

(٨). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٥٧؛ وانظر: ابن الكازروني، مختصر التاريخ، ص٢١٨.

– المطلب الرابع: وزارة المظفر "الحسين بن علي بن محمد بن جهير" للخليفة المقتفي لأمر الله (٥٣٥-٥٤١هـ/١١٤٠-١١٤٦م)

بعد انقطاع دام ما يقارب ثلاثين سنة للجهيريين عن الوزارة العباسية، عادوا للظهور مرة أخرى ممثلين بأحد أفراد أسرتهم، وهو المظفر بن علي بن فخر الدولة بن جهير، ليثبت بذلك أن بني جهير لم يختفوا تماماً عن مسرح الأحداث السياسية في الدولة العباسية.

وتدرج المظفر –كسابقيه من أفراد أسرته– في مناصب الدولة الإدارية قبل وصوله إلى الوزارة، فقد عُيِّن في منصب الإستادارية[١]، وهو أول من حظي بشرف تولي هذا المنصب لدى خلفاء بني العباس، وهذا ما أكّده ابن إياس حين قال: "وأول من أطلق عليه الأستادار شخصٌ يُسمى المظفر بن جهير"[٢].

ولا نعلم مقدار الفترة الزمنية التي قضاها ابن جهير في منصب الاستادارية أو حتى سنة توليه لهذا المنصب، ومن المتوقع أن يكون قد شغل هذه الوظيفة قبل سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م)، فقد ذكر ابن الجوزي في حوادث هذه السنة أنّ الخليفة المسترشد قبض على أستاذ داره ناصح الدولة أبي عبدالله بن جهير وصادر ماله، وقرَّر عليه مبلغ أربعين ألف دينار[٣]، ثم أعاده في نفس السنة إلى منصبه[٤].

---

[١]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٧٨ب؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص٢٥٩؛ والاستادارية: منصبٌ إداري يوكل إلى صاحبه مهمة إدارة شؤون أمراء وحريم الأسرة العباسية وجميع ما تتضمنه دار الخلافة من موظفين وخدم، وهو المتوكل بحراسة هذه الدار والمتفقد لها ليلاً ونهاراً، وبلغ من أهمية صاحب هذا المنصب فيما بعد أن دعي له على المنابر في بغداد وهذا ما شاهده وسمعه الرّحالة ابن جبير، انظر: ابن جبير، ابو الحسين محمد بن أحمد الكتاني الاندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، مكتبة دار ابن الهلال، بيروت، دط، ١٩٨١م، ص٨١-٨٢؛ فهد، العراق في العصر السلجوقي، ص١٧٥.

[٢]. ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ج١، ق١، ص٣١٠.

[٣]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٥.

[٤]. ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٥٧.

وكان سبب الخلاف بينه وبين الخلافة يعود إلى مكاتبته للأمير دُبَيْس بن صدقة المزيدي الذي كان على خلاف مع العباسيين في ذلك الوقت[(١)]، ويبدو أنه بقي في الاستادارية حتى بعد وفاة المسترشد وخلافة الراشد، فقد ذكر عددٌ من المؤرخين في حوادث سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م) أن الخليفة الراشد قبض على استاذ الدار "أبي عبدالله الحسين بن جهير"[(٢)]، وكان ابن جهير هو المتولي لأخذ البيعة للخليفة الراشد[(٣)]، كما أن الخليفة قد اعتمد عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون الدولة في أثناء خدمته بالإستدارية، وقد عثرنا على نصٍ يبين ذلك، جاء فيه: "ليعتمد الحسين بن جهير مراعاة الرعية والاشتمال عليهم، وكفّ الأذى عنهم، وحمايتهم، فقد ظهر من الولد "غياث الدنيا والدين -يعني السلطان مسعود- متّع الله به في الخدمة ما صدق به الخدمة، فليجتمع وكاتب الزِّمام وكاتب المخزن على إخراج العمال إلى نواحي الخاص لحراستها، فقد ندب من الجناب الغياثي هذا شحنة لذلك، وليهتم بكسوة الكعبة، فنحن في أثر هذا المكتوب"[(٤)] فمن خلال هذا النص نستدل على المهمات التي أوكلت بالاستادار في هذا الوقت المبكر من ظهور هذا المنصب.

ونقل المظفر من منصب الإستدارية إلى الوزارة العباسية سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م)[(٥)] -في زمن الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٥-١١٦٠م)- بعد أن عزل

---

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٥.

(٢). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٧٥ب؛ وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٧؛ الأزدي، تاريخ الدول المنقطعة، ص٢٩٢، ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ج٤، ق١، ص٢٥٧؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٧٩.

(٣). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢.

(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٩٥؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦، ص٤٨.

(٥). العظيمي، تاريخ حلب، ص٣٩٥؛ وانظر: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٥٣٤؛ ابن الأثير، ج٨، ص٣٦٩، ويذكر بعض المؤرخين أن وزارته كانت سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) ومنهم، الفارقي، الدولة المروانية، ص٣٨؛ الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك،ص٢٧٦؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٨٦.

الخليفة المذكور وزيره ابن طراد الزيني[1] من منصب الوزارة في هذه السنة، وكان لشرف البيت وكرم المنشأ الذي نشأ عليه المظفر الجَهيْريّ أثرٌ في تطلع العباسيين لاستيزاره، لا سيّما أن والده كان وزيراً ابن وزير، فهو وارث لحالة نشأ عليها ودرب على ممارستها، إضافة إلى ذلك فهو من النبلاء والفضلاء المحبين للعلم والتصدّق[2].

واستمرّ المظفر في منصبه مدة سبع سنوات[3]، أي حتى سنة (٥٤٢هـ/١١٤٧م) وقد عبَّر مؤرخ عاصر وزارته عن فترة الركود التي سادت منصب الوزارة في أثناء وزارة المظفر بن جهير، وأكد هذا بقوله: "وما تمشى له أمر الوزارة -يعني المظفر بن جهير- فاستأذن في الحجّ ولزم بيته"[4]، ولا يجوز لنا التسليم بهذا الكلام على اعتبار أن الخلافة العباسية بدأت في هذه المرحلة تستعيد شيئاً من هيبتها ونفوذها المفقود منذ زمنٍ بعيد، فالخليفة لم يعد يخشى التدخل السلجوقي في وزارته، فهو حرٌّ التصرف مع وزرائه يعزل من يشاء ويولي من يشاء، ولو كان ابن جهير من ضعاف الوزراء لما أبقى عليه المقتفي لأمر الله في وزارته مدة سبع سنوات وهي ليست بالمدة القصيرة ولو أنه لم يتمكن من إدارة هذا المنصب لعزله الخليفة في وقت أبكر من ذلك، فقوة الوزير مستمدة من قوة الخليفة في هذا الوقت.

ولم نقف على السبب الذي من أجله عُزل الوزير، بل كان قد حجَّ في أثناء وزارته في سنة (٥٤١هـ/١١٤٦م) [5]، ورآه ابن الجوزي في الحجّ ووصفه قائلاً: "وكنت في الحج تلك السنة ومعي الزوجة والأطفال وكنت أرى الوزير -يعني المظفر بن جهير- في طريق مكة متواضعاً"[6]، ثم عاد إلى بغداد وبعد عزله ظل مقيماً فيها إلى أن توفي في سنة

---

[1]. ابن طراد الزيني: هو أول وزراء المسترشد، جرت بينه وبين المقتفي وحشه بعد أن وزر له فاستجار بالسلطان وأقام عنده واضمحلّ أمره فيما بعد، وقد أنفق أمواله في وجوه البر والإحسان، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٨؛ ابن الطقطقا، الفخري، ص٣١٠.

[2]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص٣٠٥.

[3]. الذهبي، العبر، ج٣، ص١١، وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص٣٠٥.

[4]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٥.

[5]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٤٧؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٠٣.

[6]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٥٠.

(٥٤٩هـ/١١٥٤م) ودفن في مقابر جامع المنصور[١].

المبحث الثالث: الألقاب التي لقب بها وزراء بني جهير في أثناء وزارتهم

تعرف الألقاب أنها ما يطلق من الصفات رسمياً على سبيل التشريف ولا يدخل في نطاقها الألقاب الشعبية التي تمنح بطريق غير رسمي[٢]، وللألقاب أهمية كبيرة فهي تفيدنا في معرفة بعض النظم والاتجاهات التي قد يغفلها المؤرخون أحياناً، كما تدلنا على ما يحيط بهذه النظم والاتجاهات من ظواهر اجتماعية وسياسية وإدارية ودينية مختلفة[٣].

وقد تجلت الرغبة بالاستحواذ على الألقاب في العصر البويهي، وافرط في منحها لمختلف رجال الدولة، فصار لقب الأصغر أعظم من لقب الأكبر، وبذلك فقدت أهميتها، وهذا ما ذكره المؤرخ ابن الصابيء –وهو من المعاصرين للبويهيين– فقال: "... ولم يبقَ لها طلاوة يشار إليها ولا حلاوة يحافظ عليها، حتى بلغني أن مولانا القائم بأمر الله قال: لم تبقَ رتبة لمستحق"[٤]، وفي هذا دلالة على مدى انحطاط أهمية اللقب في العهد البويهي.

أمَّا في العصر السلجوقي، فقد كان للألقاب مكانتها، فلم ينلها إلاَّ من استحقها من رجال الدولة[٥]، وفي مقدمتهم الوزراء، وقد تأثر الخلفاء بالسلاطين فيما يخص ألقاب وزرائهم[٦]،

---

[١]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٤٧أ، وانظر: ابن حمدون التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٧ب.

[٢]. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، الاسكندرية، ١٩٧٨م، ص١، وسيشار إليه، الباشا، الألقاب الإسلامية.

[٣]. الحسيني، محمد باقر، دراسة تحليلية للالقاب الإسلامية، مجلة سومر، وزارة الأعلام العراقية، ج٢٧، ع٢، سنة ١٩٧١م، ص١٨٥.

[٤]. الصابيء، هلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٨م، ص١٧٠، وسيشار إليه، الصابيء، الوزراء.

[٥]. الزهراني، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص٢٠٠.

[٦]. حسين أمين، العراق في العصر السلجوقي، ص١٩١-١٩٢؛ وانظر: الشريف، العالم الإسلامي، ص٥٧٤.

وكانت السمة الغالبة لهذا العصر هي تعظيم منصب الوزير[1]، ولعلَّ من أهم الأهداف التي مُنحت من أجلها الألقاب هو معرفة الشخص صاحب هذا اللقب المنعوت بـه، ثم إنّ اللقب يُعدُّ تشريفاً وتقديراً يزداد به صاحبه شرفاً ومكانة[2].

ويعود سبب كثرة الألقاب الوزارية في العهد السلجوقي إلى عاملين، الأول: أن بعض الوزراء كان له لقب قبل توليه الوزارة، فلما تسلمها ظلَّ محافظاً على لقبه الأول، ثم أُضيف إليه لقبٌ جديدٌ، والآخر أنه كان حرصاً من الخلفاء والسلاطين على منح وزرائهم ألقاباً كثيرة مكافأة لهم على الجهود التي يقدمونها في خدمة الدولة[3]، ويبدو أن السبب الثاني هو العامل الرئيسي والحافز الذي دفع الخلفاء في إغداق ألقاب كثيرة على وزراء بني جهير.

وحظي الوزير محمد بن محمد بن جهير بمنحه ألقاباً كثيرة خلال وزارته للعباسيين، بل إنه نال شرف التلقب بها قبل مجيئه إليهم، فقد أنعم عليه الأمير المرواني نصر الدولة لقب "السيد الأجل كافي الدولة"[4] وأُطلق عليه هذا اللقب في نص إنشاء بتاريخ سنة (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) في ديار بكر[5]، في أثناء وزارته لدى الاسرة المروانية؛ ومخاطبته بالسيد الأجل في هذا الوقت المبكر تدلنا على مدى الصلاحيات الواسعة التي تمتع بها صاحب هذا اللقب في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية للدولة التي يخدم فيها[6].

ولما وَزَرَ للعباسيين لم يعد يخاطب "بالسيد الأجل"، وإنما أكرمه القائم بأمر الله في سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) بمنحه لقب فخر الدولة، شرف الوزراء[7]، وفخر الدولة هو ما اشتهر به

---

[1]. حسين أمين، نظام الحكم في العراق، ص٢١٥.

[2]. الطوسي، سياست نامه، ص١٩٩.

[3]. الزهراني، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص١٣١.

[4]. الفارقي، الدولة المروانية، ص١٥١.

[5]. Combe (Et). Sauvaget (J) Wiet (G) Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arab, 15vols, Le Caire, 1931, V7. P114.

[6]. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١٢٧.

[7]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٧٦؛ وانظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٦أ؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٠؛ ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، ق٣، ج٤، ص٣٦٣.

عند معظم المؤرخين، وكان من يحصل على لقب "فلان الدولة" في هذا الوقت عظيم القدر كبير الشأن[1]، والشرف هو العلو[2]، وفي ذلك كناية عن المنزلة الرفيعة لمن يلقب بهذا اللقب.

وفي سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) حاز ابن جهير على لقب آخر ولكنه هذه المرة ليس من الخلفاء بل من سلاطين السلاجقة، حيث وردت زوجة ألب أرسلان إلى بغداد ومعها رسالة للوزير خوطب فيها "الوزير الأجل، شرف الوزراء، فخر الدولة"[3] وهذا لقب ثالث يضاف إلى ألقاب الوزير ابن جهير يدلُّ على السلطات الواسعة في الإشراف على تدبير أمور الدولة في الداخل والخارج[4]، كما أن حصوله عليه من السلاجقة يبين مكانته ومنزلته عندهم.

وما أن عاد إلى الوزارة القائمية -بعد أن عُزل عنها- سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) حتى أرضاه الخليفة وأنعم عليه بلقبٍ جديد إضافة إلى ألقابه السابقة وهذا اللقب هو "مؤيد الدين" وهذا ما جاء في نص الإنشاء الذي أخرجه ابن الموصلايا بحق فخر الدولة بن جهير وفيه: "....وأنه أضاف إلى سماتك التي سما ذكرك بها وعلا، وزاد قدرك فيها وغلا، مؤيد الدين إجلالاً لمكانك، وإحلالاً في مقر من المجد لم يبلغه أحد ..." [5]، وهذا اللقب من الألقاب التي تشير إلى تقوى الله[6] وقد ورد في نفس هذا الخطاب الذي وجّه إلى الوزير فخر الدولة لقباً آخر وهو "مؤيد الدين، فخر الدولة، شرف الوزراء، صفّي أمير المؤمنين"[7].

ولعلَّ أوج ما بلغه ابن جهير من رفعة في مقامه كان في سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) عندما خاطبه الوزير السلجوقي نظام الملك بلقب: "سيدنا الوزير الأجل السيد مؤيد الدين فخر الدولة

---

(1). اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، منشورات الأعلمي، بيروت، دت، ج٣، ص١٣٥.

(2). ابن منظور، لسان العرب، مج٩، ص١٧٠، مادة شرف.

(3). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٣٤.

(4). الباشا، الألقاب الإسلامية، ص١٢٧.

(5). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢٢ب.

(6). الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٥٢٣.

(7). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢٣أ.

شرف الوزراء"[1].

وإذا كان الزهراني يؤكد بأنه لم يحظ أحدٌ قبل الوزير عميد الدولة محمد بن محمد بن محمد بن جهير، بشرف التلقب بأكثر من لقبين خلال العصر السلجوقي[2] فإن في تعدد الألقاب التي منحت لوالده من قبله ما ينفي هذا الأمر، فقد فاق فخر الدولة بن جهير ولده عميد الدولة في الحصول على الألقاب الفخرية في ذلك الوقت.

وهناك ألقاب أخرى ألحقت بالوزير فخر الدولة ويبدو أنها لم تكن ذات صفة رسمية حيث ورد ذكرها عند المؤرخين في أثناء حديثهم عن الوزير ابن جهير ومنها لقب وزير الوزراء[3]، وشرف الدين[4]، ومؤيد الدين الوزير الأكمل فخر الدين[5]، وفخر الملك[6]، وفخر الدولة أشرف الوزراء[7].

وقد لوحظ فيما يخصُّ ألقاب الوزير فخر الدولة أمرين الأول: لم يلتزم الخلفاء بتحديد نوع اللقب الذي اشترط فيه الوزير "نظام الملك" أن يكون مناسباً لطبيعة وظيفة صاحبه[8]، فإذا كان ابن جهير قد لقب بفخر الدولة فإن هذا يتناسب وطبيعة توليه منصباً إدارياً من مناصب الدولة، أما تلقيبه "مؤيد الدين" فإن هذا اللقب أقرب إلى رجال الدين والعلم منه إلى رجال الإدارة والسياسة[9]، والأمر الثاني: إذا ما غضب الخليفة على وزيره فإنه يجرده من جميع ألقابه وهذا ما حَدَثَ عندما عَزَل القائم بأمر الله فخر الدولة بن جهير عن وزارته فخاطبه

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٨٧.

[2]. الزهراني، الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص١٣٣.

[3]. صردر، ديوانه، ص٦٥.

[4]. الأصفهاني، الخريدة، قسم المغرب، ج١، ص٣٩١.

[5]. الذهبي، السير، ج١٨، ص٦٠٨.

[6]. العيني، بدر الدين ابو محمد بن أحمد، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٧٧، وسيشار إليه؛العيني؛السيف المهند.

[7]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٦.

[8]. الطوسي، سياست نامه، ص١٩٩.

[9]. الطوسي، سياست نامه، ص١٩٩، وانظر: الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٥٢٣.

"معلومٌ يا محمد بن محمد بن جهير ....." [1] دون ذكر أي لقبٍ مقرونٍ باسمه.

وأما "محمد بن محمد بن محمد بن جهير" فقد أُشتهر بلقب عميد الدولـة[2]. وعميـد القـوم هو سيدهم[3]، وعلى ما يبدو أنه حَصَل على هذا اللقب قبل توليه الوزارة العباسية المقتدية سـنة (٤٧٢هـ/١٠٧٨م).

ثم أضيف إلى ألقابه "شرف الدين" فاصبح يُخاطب بعميد الدولة شرف الدين[4]،وفي سـنة (٤٧١هـ/١٠٧٩م) ألحق الخليفة المقتدي بأمر بالله بسِمات وزيره لقب "تـاج الـوزراء"، ويُعلـلُ الهدف من وراء ذلك، فيقول: "تنويهاً بذكرك في الزمان، وتنبيهاً على إختصاصك لديه بوجاهـة الرتبة والمكان، ..." [5]، وقد اتسع نطاق ألقابه إلى أن وصلت إلى أربعٍ فقد ورد في نص إنشاء بتاريخ سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م) –في ديار بكر أثناء ولاية عميـد الدولـة عليهـا للسـلاجقة– ذكـرٌ لهذه الألقاب وهي "الوزير، السيد الأجل، شرف الدين، عميد الدولة، تاج الوزراء أبـي منصـور محمد بن محمد بن جهير أدام الله أيامـه ..." [6]، وفـي سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) ورد فـي نـص رسالة أرسلها عميد الدولة إلى أمير المرابطين في المغرب جاء فيها ذكرٌ لألقاب الوزيـر فقـال: "من الوزير الأجل، السيد الأعدل، عميد الدولة بهذه الملة شـرف الأمـة، ولـي النعمـة، خلاصـة أمير المؤمنيـن"[7]، وقد عُرف بألقـاب أخرى وردت فـي ثنايـا كتـب المؤرخيـن ومنهـا: عميـد الدولتين[8]، والصاحب شرف الدين عميـد الدولـة[9] الوزيـر الكـامل عميـد الدولـة[10]. وأشـرف الدين عميد الدولة[11].

---

(1). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٣.

(2). صردر، ديوانه، ص٦٥؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٩.

(3). ابن منظور، لسان العرب، مج٣، ص٣٠٥، مادة عَمَدَ.

(4). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨.

(5). القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٤٥.

(6). Combe, Sauvaget, Repertoire, v7. p264.

(7). ابن العربي، محمد بن عبدالله الاشبيلي، (ت ٥٤٣هـ/١١٤٨م)، ترتيب الرحلة للترغيب في الملة، تحقيق عصمت دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دت، نشر في كتاب دور المرابطين في نشر الإسـلام فـي غرب أفريقيا، ص١٩١، وسيشار إليه ابن العربي، ترتيب الرحلة.

(8). الأصفهاني، الخريدة، قسم المغرب، ج١، ص١٠٧.

وحظي أبو القاسم "علي بن فخر الدولة بن جهير" بشرف منحه الالقاب الفخرية منذ نعومة إظفاره وأولى هذه الألقاب التي إقترن بها إسمه هو "عميد الرؤساء" وذلك في سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٨م) [١] وكان لم يمضِ على قدومه مع والده وأسرته إلى بغداد سوى ما يقارب خمس سنوات لمّا تولّى منصب ديوان الزّمام لدى الخليفة القائم بأمر الله، ومُنح هذا اللقب المأخوذ من الرياسة وهي رفعة القدر وعلو الرتبة[٢]، ثم لقّبَ بعد ذلك بزعيم الرؤساء"[٣] ولا نعلم متى حصل عليه ولكنَّ هذا اللقب اقترن بذكر اسمه عند جموع المؤرخين.

ولما استوزره المستظهر بالله سنة (٤٩٦هـ/١١٠٢م) لقّبه "قوام الدين"[٤]، ولكنه سرعان ما استبدله بلقبٍ آخر وهو "مجير الدين"، والسبب في ذلك يرجع على حد قول ابن العمراني إلى أنَّ السلطان محمد بن ملكشاة لقّب وزيره في تلك الأثناء بنفس لقب وزير الخليفة وهو "قوام الدين"[٥] فاستبدله الخليفة بلقب جديد، وقوام الشيء يعني عماده ونظامه[٦]، والمجير تعني المنقذ[٧]، ومن الألقاب التي ذكرها المؤرخون في مؤلفاتهم، لقب مجد الدولة[٨]، زعيم الدولة[٩]، زعيم الدين[١٠]، ومجير الدولة[١١].

ـ[٩]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٦٤.

[١٠]. الذهبي، السير، ج١٩، ص١٧٥.

[١١]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٩.

[١]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٨أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٦.

[٢]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص١٣.

[٣]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٨٠؛ وانظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٩؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج٢٢، ص١٣٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٨٣.

[٤]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٧.

[٥]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٧.

[٦]. ابن منظور، لسان العرب، مج١٢، ص٤٩٩، مادة قوم.

[٧]. ابن منظور، لسان العرب، مج٤، ص١٥٥، مادة جور.

[٨]. الأرجاني، ديوانه، ج٣، ص١٤٠٣.

[٩]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٥، ص٢١٠.

[١٠]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٥٥.

[١١]. خواندمير، دستور الوزراء، ص٢٠٠.

ونال الحسين بن علي بن فخر الدولة بن جهير من الألقاب ما يرفع من مكانته، فقد أُطلق عليه لقب "ناصح الدولة" وذلك قبل توليه الوزارة المقتفية وكان حينئذ يشغل منصب الإستدارية[١]، ولما تولى الوزارة سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) منحه المقتفي لأمر الله لقب "نظام الدين"[٢] تكريماً وتشريفاً له أمام رجال الدولة وأعيانها، وقد عمل الخليفة المقتفي لأمر الله على تعزيز مكانة وزرائه والمحافظة على مركزهم بين أرباب مناصب الدولة الأخرى، ودليل ذلك أنه أصدر في سنة (٥٣٧هـ/١١٤٢م) أمراً بعدم مخاطبة أحد من موظفي الدولة بلقب "مولانا" وإقتصاره على الوزراء[٣].

ولهذا اللقب أهمية كبيرة، لأن استعماله ذاع بين الخلفاء العباسيين والفاطميين، وظل دارجاً طيلة العصرين الأيوبي والمملوكي[٤]. وبما أن الحسين بن جهير هو الوزير في هذه الفترة فليس بمستبعد أن يكون قد خوطب به، ومن الألقاب التي ذكرها المؤرخون له أيضاً، نظام الدولة[٥] والمظفر[٦]، وغرس الدولة[٧].

وهكذا كثرت الألقاب الممنوحة للوزراء في ذلك الوقت، وهذه الكثرة تدلُّ على الإفراط في بذلها، كما لها دلالة على اضطراب الأوضاع السياسية التي سادت في بغداد أثناء حقبة السيطرة السلجوقية، فكان الخليفة يحاول أن يواري الضعف الذي يعانيه بتقريب رجال الدولة وأعيانها من خلال إغداقه عليهم الألقاب ومنهم الوزراء.

---

(١). ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٣؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٢٥، ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٢، الأزدي، الدول المنقطعة، ص٢٩٢.

(٢). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٥.

(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٢٧.

(٤). الباشا، الألقاب الإسلامية، ص٥١٩-٥٢٠.

(٥). الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢، ص٣٦١.

(٦). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٠٠.

(٧). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٥.

المبحث الرابع: نوع الوزارة التي تقلّدها بنو جهير للعباسيين

من المتعارف عليه عند مؤرخي الفكر السياسي الإسلامي أن الوزارة على نوعين أما الأول: وزارة تفويض وهي أن يفوض الخليفة أمور الدولة إلى وزيره بحيث يديرها برايه واجتهاده، وأمّا الثاني وزراة التنفيذ فيكون صاحبها أقل شأناً لأنه يقوم بتنفيذ أوامر الخليفة ويلبي مطالبه(١)، فغدت وزارة التفويض استسلام ووزارة التنفيذ استمداد(٢).

وهناك فروق بين الوزارتين من حيث التقليد والعزل، فإذا قلّد الخليفة وزيراً مفوضاً فإنه مفوضٌ في حقوق الرعية والخليفة معاً، أمّا وزير التنفيذ فإنه يقلد في حقوق الخليفة خاصة دون حقوق الرعية، كما أنّ وزارة التفويض تفتقر إلى عقد بعكس وزارة التنفيذ التي تحتاج إلى عقد لإن الوزير مأمور فيها(٣).

أمّا من حيث العزل فإن وزير التنفيذ يعزل بالمتاركة دون القول وإنما العزل بالقول مقرونٌ بوزير التفويض، كما أن وزير التنفيذ يعزل نفسه بالكف والمتاركة لأنه لا شيء بيده فيؤخذ برده(٤).

وقد اختلفت الوزارتان من حيث صلاحيات واختصاصات كلٌ من وزيريهما، ومن هذه الفروق أنه لا يجوز لوزير التنفيذ أن يولي معزولاً ولا يعزل مولي بينما جاز ذلك لوزير التفويض، كما أنه غير جائز لوزير التنفيذ أن يوقع عن نفسه أو عن الخليفة بينما هذا مخوّل به الوزير المفوض، ولوزير التفويض أن يستخلف نائباً بينما هذا غير مسموح به للوزير المنفذ، وإذا عُزل وزير التفويض عُزل به عمّال التنفيذ ولم ينعزل عمال التفويض، لإن عمال التنفيذ

---

(١). الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دراسة، رشيد الجميلي، دن، دط، بغداد، ١٩٨٩م، ص٣٩، وسيشار إليه الماوردي، الأحكام السلطانية، أبو يعلى، محمد بن الحسين بن الفرا الحنبلي، (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)، الأحكام السلطانية، صححه وعلّق عليه محمد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م، ص٢٩؛ الشيرزي، المنهج المسلوك، ص٢٠١-٢٠٢.

(٢). الماوردي، قوانين الوزارة، ص٢٠٩.

(٣). الماوردي، قوانين الوزارة، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٤). الماوردي، قوانين الوزارة، ص٢٠٨.

نواب[1].

ومن خلال استعراض الوزارة الجَهِيْريّة للخلفاء العباسيين اتضح لنا أن وزارتهم كانت تتراوح بين التفويض والتنفيذ دون حسم في ذلك، وإنما يكون وزيراً مفوضاً في بعض الحالات وتنفيذياً في حالاتٍ أخرى، ويقرُّ أحد المؤرخين الذين عاصروا وزارة فخر الدولة بن جهير وبعض وزراة ابنه عميد الدولة أن الوزارة العباسية -في هذه الفترة- كانت وزراة تنفيذ ويؤكد أن الوزير لا يتمتع بالاستقلال التام، فيجب عليه مراجعة الإمام في جميع القضايا ويقول في هذا الصدد: "إن رتبة الوزير وإن علت فإنها ليست برتبة المستقلين وإنما المستقل هو الإمام، والوزير ليس له من الولاية شيئاً ..." [2].

ومن خلال ما يتعلق بالتقليد والعزل هناك ما يظهر أنهم وزراء تنفيذ، فلما قلَّد الخليفة القائم بأمر الله فخر الدولة بن جهير الوزارة كتب له عهداً بذلك قرأه الكاتب ابن الموصلايا فلو أنه كان وزيراً مفوضاً لافتقر تعينه إلى وجود عقد يصح به نفوذ أفعاله[3]، أما من حيث العزل فإن فخر الدولة ترك منصبه ولزم داره اثناء ضغط السلاجقة عليه بالانعزال في سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) وهذه المتاركة جائزة لإنه لا شيء بيده يؤخذ عليه[4].

ولإن الوزير وسيطٌ وسفيرٌ للخليفة عند رعاياه من العامة والخاصة فإنه وزير تنفيذ[5]، وهذه مهمة أنيطت بالوزير الجَهِيْريّ فخر الدولة، كما أن وزير التنفيذ مخوّلٌ بتنفيذ الأوامر جميعها دون استثناء[6]، فقد عاتب الخليفة القائم بأمر الله وزيره فخر الدولة لأنه لا يلتزم بتنفيذ هذه الأوامر وتجرأ على مخالفة بعضها وجعل ذلك من المبررات التي حملت الخليفة على

---

[1]. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٤٨؛ وانظر: أبو يعلى،الأحكام السلطانية، ص٢٩-٣٠.

[2]. الجويني، عبد الملك بن عبدالله (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) غياث الأمم في التياث الظلم، دراسة وتحقيق، مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم احمد، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٧٩م، ص١٣٣.

[3]. الماوردي، قوانين الوزارة، ص٢٠٨-٢٠٩.

[4]. الماوردي، قوانين الوزارة، ص١٣٦.

[5]. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٤٦.

[6]. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٤٦.

عزله[1].

ولعلّ في جميع الأمور آنفة الذكر ما يفيد أن وزراء بني جهير كانوا وزراء تنفيذ وهو مخالف للمهمات الأولى التي يعدون فيها وزراء تفويض.

ومع ذلك فقد تمتع الوزراء بصلاحيات واسعة في بعض الأحيان حتى أن الخليفة المستظهر بالله قد فوض أمور الخزائن المالية إلى الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة وخاطبه بنصٍ صريح فقال: "الأمور مفوضة إليك، والتعويل فيها عليك فدبرها بما تراه، فقال -عميد الدولة-: هذا وقت صعب، وقد اجتمعت العساكر ببغداد مع هذا السلطان الذي عندنا، ولابد من بذل الأموال التي تستدعي إخلاصهم وطاعتهم"[2]، ولعلّ التفويض كان في ناحية مهمة وهي الأمور المالية، فكان تفويض محدود.

وهكذا فإن الوزارة العباسية كانت على عكس نظيرتها السلجوقية فقد كان الوزراء هناك وزراء تفويض بكل ما في الوزراة من حقوق وواجبات، وظهر ذلك بشكلٍ واضح أثناء وزارة نظام الملك الطوسي الذي واكبت وزراته للسلاجقة وزارة بني جهير لدى خلفاء بني العباس، ويبدو أن الأوضاع السياسية كان لها أثرٌ فيما يخص نوعية الوزارة فعلى الأرجح أنه إذا كان الخليفة ضعيفاً أمام نفوذ السلاجقة فإنه يحاول أن يمنح وزيره صلاحيات واسعة بعض الشيء لعله يستطيع معالجة أمرٍ ما، وإذا ما شعر الخليفة بنوع من الهيبة والتحرر أحياناً من قيود السلاطين فإنه يحاول الاستقلال بنفسه والعمل بصلاحياته معتمداً الوزير لتنفيذ أوامره ومطالبه.

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥١.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢.

المبحث الخامس: موقف العامّة[1] في بغداد من وزارة بني جهير.

حظي الجَهيْريّون منذ قدومهم إلى البلاد بتأييد شعبي مميّز، وسرعان ما حصلوا على ثقة الأهالي ومحبتهم العامة منهم والخاصة، ولهذا أثرٌ كبير في وزارتهم للخلفاء العباسيين، وقد أدرك بنو جهير مدى أهمية كسب قلوب الرعية واستمالتهم إلى جانبهم، فعملوا على التقرب منهم مستخدمين الأسلوب الحسن والكلمة الطيبة أحياناً، وبذل الصلات وعطاء الأموال أحياناً أخرى، وكان عليهم استمالة الرعايا عن طريق إصلاح أحوالهم، لأن صلاح العامة منوطٌ بصلاح وزرائهم[2]، وعليهم أيضاً تدبير أمور الرعية تدبيراً حسناً وإدارتها بكفاءة عالية[3]، وكان بنو جهير سفراء الخليفة عند رعاياه[4]، فكان عليهم أن يحسنوا هذه السفارة.

ومحبة الناس لبني جهير لم تأتِ دون أسباب، فيبدو أنهم كانوا مواظبين على القيام بحقوق الرعية الواجبة على وزير الدولة والتي تمثلت بإعانة الأهالي على إصلاح احوالهم المعيشية، وتوفير الحياة الكريمة لهم، وكفّ الأذى ورفعه عنهم[5].

من هذا المنطلق وَقَفَ "فخر الدولة بن جهير" على حاجات الناس ومطالبهم، وورد في الأخبار أنه كان سخياً معروفاً ببذل المال والمروءة في الطعام على العامة[6]، وصفة الكرم هذه كانت متأصلة فيه حتى قبل مجيئه إلى العباسيين فعندما خرج من ديار المروانيين وزّع على أهالي ميافارقين أموالاً كثيرة[7]، ولما دخل بغداد سنة (٤٥٤هـ/١٠٧٢م) فرّق على الناس –

---

[1]. العامة: المقصود بهم جماهير من الناس العمال والفلاحين وذوي المهن الأخرى التي عاشت في بغداد في القرن الخامس الهجري والعامة بخلاف الخاصة، وهم أصحاب الخليفة وأقربائه وخواصه، وقد سميوا بالعامة نظراً لكثرتهم، وأبرز صفاتهم الجهل والفقر وهم من أجناس متعددة، انظر: بدري، محمد فهد، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م، ص٥-١٧.

[2]. الغزالي، التبر المسبوك، ص٢٨١.

[3]. الطرطوشي، سراج الملوك، ص٢٢٣.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٠.

[5]. الماوردي، قوانين الوزارة، ص٨٣-٨٤.

[6]. الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩٢؛ وانظر: الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص٢٨٠.

[7]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٤.

بمختلف طبقاتهم- مبلغاً وقدره سبعمائة ألف دينار[١]، ولعل ما ذكر عن قيمة المبلغ مبالغ فيه، إلاّ أن الرواية تعطينا صورة عن محاولة فخر الدولة جذب الناس إليه منذ الوهلة الأولى لدخوله في خدمة الخلافة، ولم يكن الفقراء من العامة بمنأى عن كرم ابن جهير بل كان يقرِّبهم ويحسن إليهم[٢].

وقد فتَحت الأعمال الجليلة التي قام بها بنو جهير في خدمة الدولة بشكلٍ عام والعامة بشكل خاص المجال أمام الشعراء لينظموا قصائد مدح فيهم، فقال أحد الشعراء[٣]:[البسيط]

لآلِ جَهِيْر في الأنَام صنَائع ... هي الآن في رأس الخلافة تاجُ
إذا ما رضوا فالبؤس أمٌّ عميقةٌ ... وإن سخطوا فالباتراتُ رتاجُ
بحورهم من سلسبيلٍ مُطهرٍ ... وبحرُ سواهمْ عَلْقمٌ وأجاجُ

وقال آخر[٤]: [البسيط]

جَرَتْ مكارمُهُمْ فيهمْ وفَضلُهُمُ ... والفَضلُ والمَجْدُ مَجْرى الماءِ في العُودِ
من كُلِّ أبْيَضَ وَضّاحِ الجَبينِ يُرى ... نَشْوانَ من خَيلاءِ المَجْدِ والجُودِ
فإن هُمُ بعَميدِ الدَّولَةِ افتَخَروا ... فالسِّرُّ في الخَمْرِ فَضْلٌ للعناقيدِ

احتكر الجَهِيْرِيّون منصب الوزارة العباسية لمدة زادت على خمسين سنة، تخللها العزل والانقطاع، وكان عليهم خلال هذه الفترة الزمنية المحافظة على مركزهم وإثبات وجودهم، وتثبيت دعائم وزارتهم، من أجل ذلك حرصوا على إيجاد قاعدة شعبية لهم في بغداد منذ

---

[١]. ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠١.

[٢]. العيني، السيف المهند،ص٧٨.

[٣]. ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص١٥٣-١٥٤.

[٤]. القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)، المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، مطبعة الحجاز، دمشق، دط، ١٩٧٥م، ص٣٨٧، وسيشار إليه، القفطي، المحمدون من الشعراء.

وصولهم إليها ونجحوا في مسعاهم. فعندما وصل فخر الدولة إلى بغداد لاستلام الوزراة العباسية خرج معظم الناس بمختلف طبقاتهم إلى استقباله[1]، ولما خرج من بغداد سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) على أثر طرد الخليفة القائم بأمر الله له حزن عليه العامة حزناً شديداً، كما حزن عليه الخدم والحواشي، وبكى الناس عليه بكاءً شديداً حتى أنه كان يبكي لبكائهم ويدعوا لهم[2]. ويصف سبط ابن الجوزي هذه الحال فيقول "وظهر من الاغتمام عليهم من جميع من شملته الدار من خدم وأتباع وخواص ورعاع شيءٌ كثير، وجاءه منهم العدد الكثير ليلاً نساءً ورجالاً باكين لمفارقتهم محزونين لبعدهم، وهو يبكي معهم ويجزيهم خيراً"[3].

ولما عاد إلى وزارته سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) أظهر العامة من الفرح والسرور ما لم يظهروه لسواه، ويصفُ لنا مؤرخ عاصر عودة الوزير فخر الدولة يوم رجوعه فيقول: "....وكان يوماً مشهوداً؛ تلقاه العسكر والحواشي والأماثل، وضربت خيمة بالنجم، عبرت السفن والخيطيّات والزبازب إليه وركب ومضى إلى الحلبة على ما قيل لي ومعه العسكر"[4]، واحتشدت وفود كبيرة لتهنئته بالعودة، ويصفُ صردر ذلك فيقول[5]: [الرجز]

تَرى وفودَ الشكرِ حولَ بيتهُ	كأنها الأوتادُ في أطنابهِ
ما ثوّروا الآمال عن صدورهم	إلا أناخت بفناء بابهِ
وكيف لا يهوَى الرجاءُ ربْعَه	وليس مَرعاه سوى أعشابهِ
لا تسئلنّ عن مدى معروفه	أو تسل الوسميّ عن مصابِهِ

وقيل أنّ بعض الناس تصدّقوا عند قدومه بقدور من الطعام، بل أن بعضهم قد صام عن الطعام شكراً لله على عودته، وآخرين صلوا وسجدوا شكراً لله أيضاً برجوعه سالماً إليهم[6]

---

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٣.

[2]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٩ب؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٧.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٥٣.

[4]. ابن البنّاء، مذكراته، مج١٩، ص١٤.

[5]. صردر، ديوانه، ص٦٥.

[6]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١١؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٥.

ويصف صردر ذلك فيقول[1]: [الرجز]

وقدمت كالغيثِ أصابَ ظامئاً	سوّقه الخَدّاعُ من سَرابِهِ
كم ساجدٍ لمّا سموتَ طالعاً	كأنه صلّى إلى مِحرابِه
وصائمٌ رؤياك قد أغنته عن	طعامِهِ طيباً وعن شَرابِهِ
ولو أطاق الدَّستُ سعياً لَسَعى	مستقبلاً يختالُ في أثوابه

كما أنَ سقّاءً ذبح ثوراً وتصدق بلحمه ولم يكن يملك غيره، فعوّضه الوزير فخر الدولة عنه ذهباً وأموالاً[2]، ولما سار الوزير بموكب ليصلي بالجامع ضجَّ الناسُ له بالدعاء، وبلَغ من سعادة العامة به أن نثروا عليه الدنانير والدراهم[3] تعبيراً عن فرحتهم، بل أنهم رشّوا الشوارع بماء الورد وشجر العود والآس[4] ويقول ابن الأثير: "وفرح الناس بعوده للوزارة وكان يوماً مشهوداً"[5]. ومع ما في هذه الروايات من مبالغة، إلا أنها تدل على سعة إنفاقه وإحسانه.

أمّا عميد الدولة فإن موقف العامة لم يختلف كثيراً عن موقفهم من والده فخر الدولة، وحبهم له لم يقلّ عمّا نال والده، فقد كان محبوباً من العامة والخاصة ويتضح لنا في سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) عندما عاد إلى بغداد من سفرة له من عند السلاجقة حيث فرح الناس به ونثروا عليه الدنانير والدراهم للتعبير عن تلك الفرحة ويصف ذلك صردر[6]: [الطويل]

إذا نَثَرَ النَّاسُ "الهرقلية" الصُّفرا	نثرت على عليائك الحمدَ والشُّكرا

وتجدد هذا الموقف في سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) عند عودته من سفره ثانية فخرج الأهالي من عوّام وخواص لاستقباله والترحيب به لأنه كان محسناً إليهم، ولما رفض الخليفة إعادة

---

(1). صردر، ديوانه، ص٦٥-٦٦.

(2). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٤.

(3). ابن البناء، مذكراته، ج١٩، ص١٦، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١١٢؛ الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٩أ، البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٦.

(4). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٦.

(5). ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٠٣.

(6). صردر، ديوانه، ص٧٦.

والده إلى الوزارة خرج الناس من عنده حزانى[1] وفي سنة (٤٨٤هـ/١٠٩٠م) رَجَعَ عميد الدولة إلى منصب الوزارة المقتدية، فهنأه أحد الشعراء بالعودة واصفاً الحال التي تركها عند رحيله مع أهله عن بغداد سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م) فقال[2]: [الطويل]

أطرْتَ أنفس مَن بَشَّرتَ من فَرَحٍ — وقبل يَوم النّوى ما كنَّ أجْلادا
أبَعْدَ ما تَمَّ بيْنٌ لا بُليتُ به — أبكي وأقرحُ أجفاناً وأكبادا
وليلةٍ بِتُّ من بَعْدِ النَّعيم بها — أشقى وأكثرُ إعْوالاً وتَعْدادا
وموقفٍ من سُليْمَى لستُ أذكرُه — إلاّ رأيتُ لجيش الشوق أمْدادا
ظلَّت تُساقطُ الدر والهَةٌ — والوجدُ ينهبُ أرواحاً وأجسادا

وكان عميد الدولة من الكرماء الأسخياء وهذه الصفات تجسدت فيه فقيل[3]: [الكامل]

ذو هباتٍ يُدني لمحتلبِ الخيرِ — لبوناً تدرُّ من غير عَصبِ
من صريحٍ يعطيك زبداً بلا مخـ — ضٍ ويُغنيك عن تعنّي الوَطبِ

وتابع صردر وصف كرمه فقال[4]: [الكامل]

إنما أنت يا محمدُ للنا — س شبيه المبعوثِ من آلِ كعب
ذاك كان الربيعَ إذا قَحَطَ الـ — ـدّينُ وأنتَ الربيعُ عامَ الجدبِ

وأضاف أحد الشعراء في وصف كَرم عميد الدولة[5]: [الكامل]

يا مليكاً خجِلتْ مِنْ — جودِ كفِّهِ السيولُ
فبلادٌ لم يُصِبْها — صَوْبُه فهي مُحُول
قَصَّرتْ عن وصفك الألْـ — ـسُنُ إذ عَزَّ العَديلُ

---

(1). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٧.

(2). الاصفهاني،الخريدة ، قسم المغرب، ج١، ص٣١٩-٣٢٠.

(3). صردر، ديوانه، ص٩٦.

(4). صردر، ديوانه، ص٩٦.

(5). القفطي، المحمدون من الشعراء، ص٢٨٦.

وإن لم تتوافر لدينا معلوماتٍ حول الموقف الشعبي من وزارة زعيم الرؤساء أبي القاسم علي بن فخر الدولة، إلاَّ أن ما ورد في مدح الشعراء له يعطينا صورة بسيطة حول ذلك فقال الأرجاني(١): [الكامل]

للّهِ مقْدَمُه الذي في يوْمه نَذرَ المسَرَّةَ لا أجَدَّت مظْعَنا
وطُلوعه في مَوكبٍ ودَّتْ له كُلُّ الجَوارحِ لو تَحوّلَ أعيُنا
لما بدا، والشوقُ يُدني مَن نأى مِن وجهِهِ، والعزُّ يُنفي مَن دنا
والأرضُ تلطَمُ من هُنا بسنابكٍ من خَيْلهِ مَرَحاً، وتُلثَم من هنا
والتِّبْرُ مِن أدْنَى دَوامِ نثارهِ قد صارَ منه الجَرُّ يُحْسَبُ مَعِدنا

وعن كرمه قال صردر(٢): [المتقارب]

تدرّ يَداه بلا حالبٍ إذا التَمس الزُبّد مخضُ السِّقاءِ
فتُضحي مكارمُه كالمطيَ ونغْمةُ سائله كالحُداءِ

أما المظفر الحسين بن علي بن جهير فلا ندري عن الموقف الشعبي من وزراته أو مكانته بين العامة، وذلك لصمت المصادر التاريخية عن ذكر أخباره في مثل هذه المواقف.

(١). الأرجاني، ديوانه، ج٣، ص١٤٠٩.

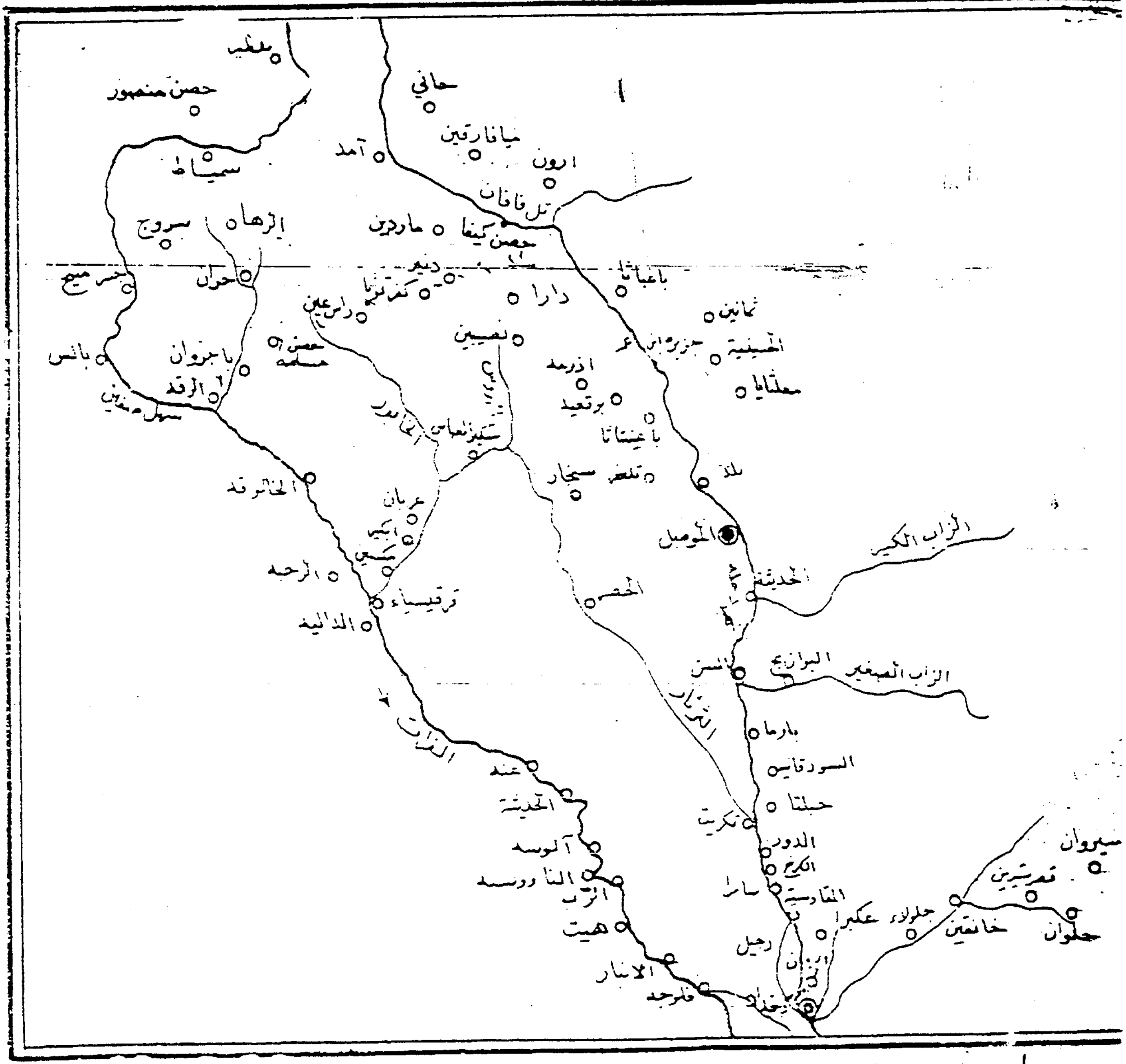
(٢). صردر، ديوانه، ص١٢٠-١٢١.

الفصل الثالث

بنو جهير في البلاط السلجوقي

- المبحث الأول: الجغرافية التاريخية للجزيرة الفراتية.
- المبحث الثاني: وصول بني جهير إلى خدمة سلاطين السلاجقة.
- المبحث الثالث: الحملات السلجوقية على بلاد الجزيرة الفراتية بقيادة الجهيريين.
    - المطلب الأول: الحملة السلجوقية على إقليم ديار بكر بقيادة فخر الدولة بن جهير.
    - المطلب الثاني: الحملة السلجوقية على الموصل بقيادة عميد الدولة بن جهير.
- المبحث الرابع: ولاية الجهيريين على أقاليم الجزيرة الفراتية.
- المبحث الخامس: سياسة بني جهير المالية والإدارية في إقليم ديار بكر.

مدن الجزيرة الفراتية وأعمالها



حمادي، محمد جاسم، الجزيرة الفراتية والموصل دراسة في التاريخ السياسي والاداري (١٢٧-٢١٨هـ/٧٤٤-٨٣٣م)، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٧م، ص ١٤٦أ.

الفصل الثالث

بنو جهير في البلاط السلجوقي

المبحث الأول: الجغرافية التاريخية للجزيرة الفراتية

أطلق الجغرافيون اسم الجزيرة الفراتية على الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات وتمتد حدودها شمالاً لتصل إلى بلاد الروم، ويحدها من الغرب بلاد الشام ومن الجنوب سواد العراق، ومن الشرق أذربيجان[1]، ومع إدراكنا لعدم توافق الحدود الطبيعية للإقليم مع الحدود الإدارية لنفس الإقليم فقد أشار ابو الفداء إلى حدود الجزيرة قائلاً: "حدودها بلاد الروم بمحاذاة الفرات من الجانب الغربي، المتجه إلى ملطية إلى سمسياط إلى قلعة الروم إلى البيرة قبالة منبج إلى بالس إلى الرّقة، إلى ترقيسيا إلى الرحبة إلى هيت إلى الأنبار، ومن الانبار يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة ثم يعطف الحد من الأنبار إلى تكريت وهي على دجلة إلى السن إلى الحديثة على دجلة إلى الموصل إلى جزيرة ابن عمر إلى آمد، ثم يصير الحدُّ غربياً ممتداً بعد أن يتجاوز آمد على حدود أرمنية إلى حدود بلاد الروم إلى الفرات عند ملطية"[2].

وقسّمت بلاد الجزيرة من الناحية الجغرافية إلى ثلاثة أقسام وهي ديار بكر[3] وديار ربيعة[4] ثم ديار مضر[5]، وتعتبر ديار بكر أصغر الديار الثلاثة التي يتألف منها إقليم

---

[1]. يوسف، ارشيد، سلاجقة الشام والجزيرة ما بين (٤٥٣-٥٧٠هـ) دن، عمان، ١٩٨٨م، ص٣٩، وسيشار إليه، ارشيد، سلاجقة الشام والجزيرة.

[2]. أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل الايوبي (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه، ريفود ومال كوكين ديسلان، باريس، ١٨٩٠م، ص٢٧٣، وسيشار إليه ابو الفداء، تقويم البلدان.

[3]. ديار بكر، ديار كبيرة واسعة، حدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة، انظر: البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، (ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤م، ج٢، ص٥٤٧، وسيشار إليه البغدادي، مراصد الاطلاع.

الجزيرة[١]، وتقع في الشمال والشمال الغربي من الجزيرة الفراتية[٢]، وتضمُ أربعة أمصار وهي: آمد أعظم ديار بكر[٣]، وعاصمة إقليم الجزيرة كاملاً[٤]، وتقع غربي نهر دجلة وتكثر فيها الزروع والأشجار[٥]، وتوصف بحصانتها ومناعة أسوارها[٦]، وميافارقين وهي قاعدة ديار بكر اشتهرت بكثرة المياه والبساتين[٧]، ثم ماردين، وهي قلعة مشهورة تقع على قمة جبل الجزيرة، وأمامها ربضٌ واسع تدبّ فيه الحياة والحركة[٨]، وأخيراً أرزن التي تقع في أطراف الاقليم مما يلي بلاد الروم[٩]. ويشتهر من مدن ديار ربيعة، نصيبين[١٠]، وجزيرة ابن عمر[١١]، والموصل. ومدن ديار مضر كثيرة أهمها: الرّقة[١٢] وسروج[١٣] وشمشاط[١٤].

---

[٤]. ديار ربيعة: تقع بين الموصل إلى رأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين والخابور، وانظر: البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٥٤٨.

[٥]. ديار مضر، هي ما كان بالسهل بالقرب من شرقي الفرات نحو هران والرقة وشمشاط وسروج وتل فورن، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٤.

[١]. لسترانج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ص١٤٠، وسيشار إليه لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية.

[٢]. The Encyclopedid of Islam. (E.L). Edited by B. leuis and others liden E.I. Bril. 1978 V2. Diyar Bakr. P. 234.

[٣]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٥٦.

[٤]. The Encyclopedid of Islam, V2, p234.

[٥]. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٨٧.

[٦]. ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، دط، د.ت، ص٢٠١، وانظر:، ابو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٨٧؛ لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٤٠.

[٧]. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٩.

[٨]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٩.

[٩]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٥٠.

[١٠]. نصيبين: أعظم مدن الجزيرة شأناً وهي قاعدة ديار ربيعة، كثيرة المياه والبساتين بينها وبين آمد مسير اربعة أيام، انظر:، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٨٢؛ البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص١٣٧٤؛ لسترانج، بلدان الخلافة، ص١٢٤.

[١١]. جزيرة ابن عمر: مدينة صغيرة تقع على دجلة، سميت بذلك نسبة إلى الحسن بن عمر التغلبي، وهي محاطة بالمياه وفي أعمالها حوالي مئة قرية، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٢٣.

[١٢]. الرقة: مدينة تقع بين آمد وخرتبرت، وهي ثغر بالجزيرة؛ ابو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٦.

[١٣]. سروج:تقع شمال حران،وهي حصينة كثيرة الأشجار، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص١٠١.

[١٤]. شمشاط، بليدة بالثغور الجزرية بين آمد وخرتبرت، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٦.

ومن الناحية الإدارية سكنت بلاد الجزيرة الفراتية أسر حكمت المنطقة وتمكنت من إقامة كيانات سياسية لها، فشكلت بذلك دولاً شبه مستقلة بذاتها مثل الاسرة المراونية التي قطنت إقليم ديار بكر وأخضعته لحكمها منذ عام (٣٨٠-٤٧٨هـ/٩٩٠-١٠٨٥م) [١]. كما تمكّن آل عقيل من إقامة كيان خاص بهم فيَ ديار ربيعة متخذين من الموصل قاعدة لهم، وقد لعب أفراد هذه الأسرة دوراً كبيراً في الأحداث السياسية طيلة الفترة الممتدة ما بين (٣٨٠-٤٨٠هـ/٩٩٠-١٠٩٠م) [٢].

أما بالنسبة للوضع السياسي فقد حُكمت ديار بكر من قبل الاسرة المروانية، وبعد وفاة الأمير نظام الدين نصر بن نصير الدولة سنة (٤٧٢هـ/١٠٧٩م) تولى ابنه ناصر الدولة[٣] منصور بن نصر الإمارة المروانية، وقد استطاع بمساعدة وزيره أبي طاهر الأنباري[٤] من إدارة شؤون الدولة على أحسن ما يكون[٥].

وما لبثت الأوضاع أن ساءت في البلاد وبدأت بالتدهور، وذلك عندما قَدِمَ إلى الأمير ناصر الدولة رجلٌ طبيب يُعرف "بابي سالم" وقد حاول التقرب من المروانيين، وسرعان ما كسب ودهم وثقتهم، ولم يزل يرتقي عند الأمير حتى بلغ مكانة رفيعة، وحاول التخلص من منافسه الوزير ابن الأنباري، ونال ما سعى إليه إذ قبض الأمير على وزيره وسجنه[٦]، واستبد

---

(١). الفارقي، الدولة المروانية، ص٥٩.

(٢). المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص٤٨.

(٣). ناصر الدولة: الابن الأكبر من أبناء نصر الدولة وكان ولياً للعهد، تسلم الإمارة بعد وفاة والده وسرعان ما ساءت الأوضاع الداخلية في عهده فكانت نهاية المروانيين، الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٠.

(٤). ابن الأنباري: من أشهر وزراء بني مروان وزر للأميرين نصر بن نصير الدولة ولولده الأمير منصور، اتصف بالعقل والحزم وله رأيٌ وتدبير، ولقب عين الكفاة، وساس أمور الرعايا أحسن سياسة، انظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨٥.

(٥). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٥-٢٠٦، وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٢، ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٣، ص٤٨٤.

(٦). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٦؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٢.

هذا الطبيب بأمور الدولة بعد أن أصبحت كلها بيده[١]، وأضحى لا يخالف له أمراً لا من الجند ولا من العامة[٢] وعبّر المؤرخ الفارقي عن سوء تدبير أبي سالم بالقول: "ولعمري من كان أبو سالم مشيره، ومدبر دولته، وصاحب رأيه لا شكّ أن تكون عاقبة أمره إلى خراب بيته وانقضاء دولته"[٣] ولعلّ السبب في استبداده بأمور الإمارة يرجع إلى الفرقة والنزاع ومن ثم الانشقاق الذي حدث بين صفوف أفراد الأسرة المروانية[٤].

ولما بلغ فخر الدولة ابن جهير قبض الوزير المرواني أبا طاهر، وتقدّم أبا سالم الطبيب واختلال دولة بني مروان وانحلال نظامها، استغلّ ذلك وتمكّن من إقناع السلطان ملكشاة بأهمية المنطقة ورغبه في ضمها لأملاكه[٥]، وأبلغه أن باستطاعته إدخال إقليم ديار بكر في حكم السلاجقة[٦]، وقال له: "أنا خدمت فيها مدة وأعرفها"[٧].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ المروانيين كان ولاءهم وطاعتهم في هذه الفترة للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، وكانت خطبهم تقرأ باسم الخلفاء والسلاطين[٨]، وذلك منذ سنة (٤٦٢هـ/١٠٧٠م) عند مرور السلطان ألب أرسلان في أراضيهم، حيث قدّم له الأمير نصر ابن أحمد بن مروان مبلغاً من المال، وأعلن له الطاعة والولاء[٩].

---

(١). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٦؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٦.

(٢). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٨.

(٣). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٠.

(٤). ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٣.

(٥). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٨، وانظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج١٣، ص٩، مادة جهير. The Encyclopedid of Islam, Diyar Bakr, V2, p235.

(٦). خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٧.

(٧). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٦.

(٨). The Encyclopedid of Islam, Diyar Bakr, V2, p234.

(٩). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٣١أ؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٩؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣١، ص١٠، الطباخ الحلبي، محمد راغب محمود بن هاشم، أعلام النبلاء، تاريخ حلب الشهباء، نقحه محمد كمال، دار القلم العربي حلب، ط٢، ١٩٨٨م، ج١، ص٣٣٨؛ سيشار إليه، الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء.

المبحث الثاني: وصول بني جهير إلى خدمة سلاطين السلاجقة

سار بنو جهير إلى السلطان ملكشاة بعد عزل الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة عن الوزارة المقتدية في سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، ومن المتعارف عليه عند المؤرخين أن السلاجقة هم الذين أرسلوا في طلب ابن جهير للمسير إليهم -وذلك بناءً على رغبة مسبقة من الجَهيريّين- وأنه في نفس اليوم الذي عُزل فيه عميد الدولة وصل رسول من السلاجقة إلى بغداد يطلب المسير ووالده وأهلهم إلى أصفهان عاصمة السلاجقة[1]، وهذا ما جاء على لسان عميد الدولة بن جهير حيث قال: "وكتب السلطان إلى والدي والـيَّ بالمبادرة إليه"[2] فخرجت الأسرة بأكملها من بغداد دون إعلام الخليفة المقتدي بأمر الله[3]، محتمين بالشحنة والعميد السلجوقيان[4].

أمّا الخليفة المقتدي بأمر الله فإنه غضب غضباً شديداً على بني جهير لأنهم تحدّوا سلطاته، وأرسل خادمه "عفيف القائمي" لمشافهة تركان خاتون[5] زوجة السلطان ملكشاة وأرسل لها خطاباً يطلب فيه بطرد فخر الدولة وأسرته من أصفهان، وورد في نص هذا الخطاب من عبارات التهديد والغلظة ما يَنمّ عن مدى كراهية الخليفة لبني جهير وحنقه عليهم، وعند الوقوف على ما جاء فيه نجد المقتدي بأمر الله يتهم وزارءه الجَهيْريين بالفساد، واعتبر خروجهم عن دار الخلافة ما هو إلاَّ جناية ارتكبوها بحق الخليفة وهيبته، كما يصفهم بالسيئين

---

(1). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٣، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٠؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٧-٢٤٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢.

(2). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٠.

(3). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٧.

(4). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٠، نقلاً عن الصابيء.

(5). تركان خاتون: هي زوجة السلطان ملكشاة، وبنت الملك طغراج من نسل فرسياب ملك الفرس، كانت شهمة حازمة قادت الجيوش، ودبّرت المعارك، وكان في خدمتها عشرة آلاف مقاتل، ولها نفوذ وهيبة في بلاط السلطان، وكانت أوامرها مطاعة ومستجابة، وهي كثيرة الأموال والإقطاعات ساست الأمور بعد ملكشاة وحفظت الأموال، وتوفيت سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) انظر: حولها ابن العميد، جرجس بن العميد أبي المكارم (ت بعد ٦٧٢هـ/١٢٧٣م) تاريخ المسلمين، لايدن، ١٩٢٥م، ص٢٨٦-٢٨٧، وسيشار إليه ابن العميد، تاريخ المسلمين.

وأن مساوئهم لم تحصَ لكثرتها فقال: "... وعُرف بمجالس العرض الشريفة -أجلها الله- ما كان من اهتزاز الدار العزيزة -حرس الله عزّها في معنى آل جهير، الذين شرعوا في كل فساد باباً، وأعادوا إليه بعد الهرم شباباً، وصرّحوا في مقاصدهم بكلّ جناية أسروا فيها وجهروا، ولكل رتقٍ فتقوا عن الاساءة فيه وصدروا، فلو عُدَّت مساويهم لم تحصَ كثرة"[١].

وبعد التأكيد على الأهمية التي أولاها الخليفة المقتدي بأمر الله لتركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه، يتابع الخليفة حديثه عن بني جهير وقلبه مليء بالحقد والكراهية لهم ويشتد حنقه ويزداد غضبه عليهم إلى درجة أنه وصفهم بالخونة الأضلاء، الذين يزيغون الأنظار عن أفعالهم الذميمة بالأباطيل التي يختلقونها، وزخارفهم التي يلفقونها، فعدَّهم أصحاب حيلة ومكر وقال: "وخرجت المراسم الشريفة النبوية الإمامية المقتدية -أعلى الله منارها وضاعف أنوارها-، بإصدار هذه المفاوضة إليها، والاقتراح على همتها لتمام ما بدأت به في حق هؤلاء الخونة الأضلاء من تجزيل الخطاب على الإقصاء لهم والإبعاد، والإبراق في وجوههم والإرعاد، وإلفات السمع عن أباطيلهم التي يختلقونها، وزخارفهم التي يلفقونها، ومحالاتهم التي يُنشطون منها العقال، ويبسطون فيها المقال .. "[٢].

ثم يطالب المقتدي بأمر الله بطردهم وإبعادهم عن أصفهان، وإقصاء السلاجقة لهم عن خدمتهم ويقول: "وأن لا يقع ألو لهم ولا مجاورة، وتحسم المادة في أن يكون لهم في ذلك يد للطمع ممتدة أو مقلة نحوها ناظرة، وأن يُخَصُّوا بالاطراح، ويرد الطرف عن أشخاصهم إذا لاحت، ولا يجعل لهم نصيب في أرواح السكون إذا فاحت"[٣].

ويتابع وصفهم بالخونة ويعد خروجهم عن بغداد دون اذن الخليفة كفرٌ بالنعمة وخروج عن الطاعة، أما إجابة السلاجقة إلى طردهم عن ديارهم فما هو -برأي الخليفة- إلاّ نوع من إظهار الطاعة والولاء والإخلاص للخليفة وعليهم أداء هذا الواجب فيقول: "وينزه ذلك الجناب

---

[١]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ١٩٦ب.

[٢]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٩٧ب.

[٣]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٩٧ب.

عن أولئك الخونة الذين بالنعمة كفروا، ومن كلّ صلاح صفروا، واعتمادهم بما أوجبته الآراء الشريفة في معناهم من نقض عقد فسادهم، وإذاقتهم وبال ما أظهرته الأيام من سوء اعتقادهم، وفعل ما هي حرس الله عزها أهدى إليه مما يعود بقطع دابرهم، وإقذاء مواردهم ومصادرهم، وأن لا يبدوَ منها خطاب أو سؤال في حقهم، ليعود بوَهي قواهم وفلّ ظباهم، ويحل من كاذب الطمع حباهم، فقد أعاذ الله تعالى تلك الهمم الصادقة في الولاء المحض والطاعة التي يرى فيها أداء الواجب والفرض من تقريب من أبعدت عن الخدمة الشريفة داره وأزالت عن الدولة القاهرة عاره"(١).

ويترقب الخليفة من الخاتون أن لا تخذله في مطلبه من طرد بني جهير ومصادرة أملاكهم وتشتيت جموعهم فيقول: "والترقب تام لتأثير هذا الخطاب المخصوص بالملاحظة الكاملة الدواعي والأسباب في تقريب جمعهم، وجبّ أصلهم وفرعهم، والتقدم بما يقضي إلى تشريدهم وإخلاق جديدهم، والانحراف عن كل أمر يسلكون نهجه، ويظنون أن لهم في مضيقه فرجه، واختصاصهم بما يكون الخزي لهم فيه شعاراً، وتلفظهم الأرض معه فلا يجدون على أديمها استقراراً"(٢).

باءت محاولات المقتدي بأمر الله الفشل الذريع بعد أن رفض السلاجقة إجابة مطالبه في إقصاء بني جهير عن خدمتهم، بل أكرموهم وقربوهم لإدراكهم مدى النفع والفائدة التي ستعود عليهم من جرّاء حماية هذه الاسرة، ثم بعث السلطان ملكشاة إلى الخليفة خطاباً يبرر فيه استقدامه بني جهير فقال: "إذا لم يكن أمير المؤمنين يرضاه في خدمته، وقد انصرفوا عن حضرته ملتجئين إلينا ومستجيرين بنا، فلابد من مقابلة ذلك بما يصلح أحوالنا ويحقق فينا ظنونهم"(٣)، ويتضح لنا من نص هذه الرسائل الكراهية الشديدة للوزراء من بني جهير كما أن وصفهم بالخونة لم يأت من شيء بسيط ولا ندري إذا كان السبب في ذلك يتناسب مع ما أورده

---

(١). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٩٧ب-١٩٧أ.

(٢). ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٩٨أ.

(٣). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٣.

سبط ابن الجوزي حين قال: إن فخر الدولة بن جهير كان يخطط بالاشتراك مع نظام الملك الوزير السلجوقي للقضاء على الدولة العباسية[1].

وعلى الأرجح أن يكون هناك اتفاق مسبق للتعاون بين السلاجقة والجَهيْريّين، ولذلك نرى أن السلاجقة لم يتدخلوا بالضغط على الخليفة من أجل إعادة عميد الدولة إلى وزارته في وقت كانوا يستطيعون فيه ذلك، ثم أن فخر الدولة لم يطلب الشفاعة له من أجل البقاء في بغداد، بل أنه بلغ نوعاً من الجرأة غادر فيها البلاد دون إذنٍ مسبق من المقتدي بأمر الله، ويبدو أن مصالحاً ذاتية جمعت بين السلاجقة وبني جهير حالت دون تدخل السلطان وخاصة أن ملكشاة توسم برواد هذه الأسرة علامات المهارة والحنكة السياسية فضلاً عن حسن إدارتهم فأراد استغلال ذلك لصالحه.

أدرك فخر الدولة أن غيابه سيطول لذلك خرج من بغداد بجميع أهله وأولادهم ونساؤهم وأبناؤهم، وأمتعتهم وأموالهم، ولم يتركوا وراءهم شيئاً[2]، ولما وصلوا إلى أصفهان استقبلوا استقبالاً حافلاً، فخرج الوزير نظام الملك وتلقاهم بحفاوة وتكريم بالغين، لا سيما وأن ابنته زوجة عميد الدولة كانت برفقة زوجها فخصّص لها والدها عمارتين للإقامة فيها[3]، وخرج الحجّاب والأمراء والقادة ليحظوا بشرف استقبالهم، أمّا السلطان ملكشاة فإنه أكرمهم وأغدق عليهم الأموال والهدايا[4].

ونظراً لكون بني جهير من الأسر ذات الكفاءة الإدارية والسياسية المميزة، فإنهم كانوا لا يتوانون عن فعل أي شيء في سبيل المحافظة على مكانتهم السياسية ومركزهم الإداري

---

[1] .سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٤.

[2]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٧٦ب؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٣، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠ه) ص٢٢٠ نقلاً عن الصابيء؛ النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٦-٢٤٧.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٣.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٧؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٣، النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٤٧؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص١٦.

ومصالحهم الذاتية، لذلك لا نستغرب انفصالهم عن الخليفة العباسي الذي أمضوا في خدمته ما يزيد على عقدين من الزمن، والانخراط في خدمة دولة جديدة ما دامت مصالحهم تقضي بذلك، وهذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول أن الجهيريين كانوا يسعون لبذل جهدٍ كبير من أجل إقامة دويلة مستقلة بهم(١).

ولتحقيق مآربهم وأهدافهم اتجه بنو جهير بأنظارهم نحو إقليم ديار بكر الذي يتبع إدارياً المروانيين، ومن الواضح أنهم كانوا على اتصال بهذه المنطقة مطّلعين على ما يحيط بها من ظروفٍ وأوضاع تعيشها الأسرة المروانية وتساعد إلى حدٍّ كبير على اقتطاع هذا الاقليم من أيدي أصحابه، فبدأ فخر الدولة بالتخطيط لذلك، وأول عمل قام به هو إقناع السلطان ملكشاة ووزيره نظام الملك بأهمية الإقليم، وأخبرهم ما تحويه خزائن المروانيين من ثروات وذخائر لا حصر لها، ورغّبهم وأطمعهم فيها(٢)، وجاءت معرفته بكلٍّ هذه الأمور منذ أن كان وزيراً في بلاط المروانيين في الفترة (٤٤٦-٤٥٣هـ/١٠٥٤-١٠٦١م).

ويبدو أن مسألة رغبته في أخذه البلاد قد راودته منذ زمن، حتى شاع عنه أن منجّماً هندياً حَضَرَ إلى الأمير المرواني نصر الدولة أحمد بن مروان في أثناء وزارة ابن جهير عنده، وتنبأ له بخروج شخصٍ على دولته كان قد أكرمه الأمير وأحسن إليه، وأعلمه أن نهاية ملك بني مروان ستكون على يد هذا الشخص، فأدرك ابن مروان أن هذا المشار إليه هو فخر الدولة ابن جهير، فقال فخر الدولة حينها "والله من ذلك اليوم الذي قال المنجم لنصر الدولة ما قال، ثبت في نفسي أخذ البلاد"(٣).

وبقي هذا الهدف يداعبه حتى استطاع تحقيقه في زمن الأمير ناصر الدولة، وقد كان ابن العمراني اكثر إدراكاً لأطماع ابن جهير فأورد عن فخر الدولة أنه : "وأزال مُلك بن مروان

---

(١). زكّار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص١٩٢؛ وانظر: إرشيد، سلاجقة الشام والجزيرة، ص٥٨.

(٢). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٨؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٦؛ خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٧.

(٣). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٧٣؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ص٣٦٤.

ظناً منه أن ذلك يبقى عليه وعلى عقبه من بعده"[1] والنص المذكور يبين إلى أي مدى كان فخر الدولة حريصاً على نفسه وآله، حتى لو كان الثمن القضاء على دويلة بني مروان.

ومن ناحية أخرى فقد شجّع ابن جهير السلطان ملكشاة على غزو ديار بكر ولقي اقتراحه قبولاً حسناً لدى السلاجقة الذين كانت أطماعهم لا تقلُ عن أطماع الجَهيريّين في السيطرة على الاقليم[2].

فقد حاول السلاجقة بسط نفوذهم على ديار بكر مراتٍ عدة، وذلك منذ عهد السلطان ألب أرسلان الذي جهز حملة وأرسلها إلى المروانيين سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) [3] ثم زاد تفكيرهم في احتلال المنطقة في سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) على أثر الاعتداءات البيزنطية المتكررة على الجهة الشمالية من ديار بكر، فسارع السلاجقة إلى التحالف مع الأمير سعيد المرواني بقصد صد الهجمات البيزنطية[4]، وهذا يعني أنهم كانوا حريصين على استتباب الاوضاع السياسية في ديار بكر وما يجاورها من بلاد، ولما تمكّن ألب أرسلان من هزيمة الروم في معركة ملاذكرد التي دارت رحاها بين السلاجقة والروم، اقتطع السلطان مدينتين هامتين وهما خلاط[5] وملاذكرد[6] وضمهما إلى أملاكه[7].

وإذا كان ابن شداد يعزو السبب الحقيقي وراء استحواذ السلاجقة على أراضي المروانيين إلى نزاع قديم بين الطرفين حول سبحة باهضة الثمن رغب فيها السلطان ألب أرسلان فلم يحصل عليها، ثم طلبها ملكشاة من الأمير "نظام الدين بن منصور" فلم يجبه الأمير، فوجدها

---

(1). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٧-٢١٨؛ وانظر:: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٧-٣٨٨.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨٢-١٨٤.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨٩.

(5). خلاط: بلدة عامرة مشهورة ذات خيرات واسعة وثمار يانعة، وهي من بلاد الجزيرة الفراتية، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٨٠.

(6). ملاذكرد: مدينة مشهورة بين خلاط وبلاد الروم، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٢٠٢.

(7). الفارقي، الدولة المروانية، ص١٨٩-١٩٠؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٥.

السلاجقة فرصة للتخلص من المروانيين[1]، فإن هذا السبب يعدُّ سبباً واهياً لا يواري أطماع السلاجقة المتمثلة في زيادة رقعة الأراضي التابعة لهم، ومدّ نفوذهم إليها.

وما موافقتهم على انتزاع ملك بني مروان إلاّ عملية تمهيد لانتزاع الجزيرة الفراتية بأكملها من حكم العرب، وقد أشار إلى ذلك ابن الاثير بقوله: "كان السلطان عازماً على أخذ جميع البلاد التي لشرف الدولة، واستئصال ملك العرب"[2] ويبدو أن هذا كان هدفهم الرئيسي، علاوة على المكاسب المادية والثروات المالية التي أطمعهم فيها الوزير فخر الدولة بن جهير، وبهر بها نظام الملك مما حداه إلى القول مخاطباً السلطان: "تلك البلاد قد خلت وبها من الأموال ما لا يُحدّ ولا يُعدّ"[3].

وبذلك شكَّلَ تحالفاً ثنائياً جمع بين السلاجقة وبني جهير، ويبدو أنَّ اختيار السلاجقة لبني جهير، وبالأخص لفخر الدولة لتحقيق أهدافهم وإخضاع بلاد الجزيرة كان اختياراً موفقاً وناجحاً، على اعتبار أن ابن جهير من أهل الموصل وسكانها الأصليون، وخدمة فخر الدولة عند المروانيين وقبلها عند العقيليين تركت له سمعة حسنة عند الأهالي وبالتالي فإنهم سيميلون إليه ويرضون بطاعته[4].

وجد فخر الدولة بن جهير أن تحقيق أهدافه وطموحاته -خاصة بعد طرده من بغداد- لن يتمَّ إلاّ بوجود قوة تسانده وتدعمه، وبذا فإن مصالح الطرفين قد تلاقت لا سيما وأن بنو جهير على دراية تامة بأخبار دول وإمارات المنطقة.

ومهما كان الحال فقد فوّض السلطان ملكشاة لفخر الدولة قيادة الجيوش السلجوقية للسيطرة على أملاك المروانيين، وعقد له على ديار بكر في جمادى الأولى من سنة

---

[1]. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٧-٣٨٨.

[2]. ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣، ص٥، وسيشار إليه، ابن الأثير، التاريخ الباهر.

[3]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٨.

[4]. ارشيد، سلاجقة الشام والجزيرة، ص٥٥.

(٤٧٦هـ/١٠٨٣م) وخلع عليه، وسمح له بأن يخطب لنفسه بعد ذكر اسم السلطان علـى المنـابر يوم الجمع، وأن ينقش اسمه على السكة، كما أعطاه الكوسـات[1] وأذن لـه بضربهـا فـي أوقـات الصلوات الخمس[2]، أما ولده عميد الدولة فبقي ملازماً للسلاجقة خلال هذه الفترة ونـال عندهم مكانة رفيعة واحتراماً كبير[3].

المبحث الثالث: الحملات السلجوقية على بلاد الجزيرة بقيادة الجَهيريّين.

وجّه السلاجقة حملتين عسكريتين إلى بلاد الجزيرة الفراتية لإخضاعها بقيادة الجَهيريّين وكانت الأولى بقيادة فخر الدولـة محمـد بـن جهير حيث سـارت إلـى اقليـم ديـار بكـر، موطـن المروانيين سـنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، أمّا الثانيـة فـاتخذت مسـاراً آخـراً نحـو الموصـل، موطـن العقيليين، وذلك سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) بإمرة عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير.

المطلب الأول: الحملة السلجوقية على إقليم إلى ديار بكر بقيادة فخر الدولة بن جهير:

سـار فخـر الدولـة محمـد بـن جهيـر، بـالحملـة السـلجوقية باعتبـاره نائبـاً عـن السـلطان السلجوقي ملكشاة في فتح ديار بكر، وذلك لتحقيق الهدف الرئيسي وهو القضاء على المروانيين واستئصال مُلكَهم[4]، وأخذت له الطاعة من كافة الجيش، كما جرت العادة آنذاك[5].

---

[1]. الكوسات: هي صنجات مصنوعة من النحاس وتشبه الترس الصغير يدق بإحداهما على الأخرى بإيقاع مخصوص ومع ذلك طبول وسبابه، انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٨.

[2]. ابـن حمـدون، التذكـرة الحمدونيـة، خـط، ج١٢، ورقـة ١٥٩ب؛ وانظـر: ابـن الجـوزي، المنتظـم، ج١٦، ص٢٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٣؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٣، ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفـرّج الكـروب فـي أخبـار بنـي أيـوب، تحقيـق جمـال الديـن الشـيال، مطبوعـات إدارة إحيـاء الـتراث القديـم، القـاهرة، ١٩٧٢م، ج١، ص١١-١٢، وسيشار إليه ابـن واصـل، مفرّج الكـروب؛ النويـري، نهايـة الأرب، ج٢٣، ص٢٤٨؛ ابـن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٣٢؛ الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء، ج١، ص٣٣٨.

[3]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٩.

[4]. زكّار، ... ، إمارة حلب، ص ٧٧

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٧؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطـيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٢.

وبذلك أُسندت إلى بني جهير مهمات جديدة لم تكن بالنسبة لهم سهلة خاصة وأنهم رجال إدارة لم يعهد إليهم من قبل قيادة الجيوش ودخول غمار الحروب، لذلك بعث فخر الدولة إلى السلطان ملكشاة يطلب منه الدعم والمساندة ليتمكن من إتمام مهمته بنجاح، فأرسل إليه السلطان مدداً من العساكر في سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م) إلاّ أن القائد المسؤول –سعد الدولة كوهرائين– عن المدد المرسل تراجع عن مهمته بعد دخوله بغداد، وذلك عندما اجتمع به أعداء ابن جهير وأقنعوه بعدم المسير إليه، فبادر الوزير السلجوقي نظام الملك بإرسال المدد مع الأمير المزيدي صدقة أمير الحلة[١].

جاءت ردّة الفعل المروانية إزاء هذه المبادرة السلجوقية عنيفة، فقد سارع الأمير منصور بن نظام الدين بن أحمد بن مروان إلى الاتصال بالسلطان ملكشاة وسار إليه بأصفهان للتفاوض معه، وأسفرت المفاوضات عن رغبة السلطان في تقسيم البلاد بين الطرفين وقال: "تقسم البلاد بيننا ونعطيك ميافارقين خاصة لك لأنها بيتك، وتأخذ آمد، ونأخذ عوضها الجزيرة، وباقي البلاد نقسمها ونخيرك وتأخذ ما تريد وتكون القسمة نصفين"[٢]، وتزامن مع ذلك وصول رسول من أبي سالم الطبيب يحذّر ابن مروان من الموافقة على تسليم البلاد، ويخبره أن المروانيين قادرون على الصمود أمام السلاجقة لو دام الحصار عشر سنين، وبذلك رفض المرواني تسليم البلاد وقطعت المفاوضات بين الطرفين دون الوصول إلى حلّ سلميّ[٣]، ويكشف لنا هذا التفاوض عن أهمية مدينة آمد إذ أنها كانت محوراً للمساومة بين الطرفين وذلك لأهميتها الاستراتيجية كعاصمة تتركز فيها الفعاليات السياسية والاقتصادية وغيرها.

---

(١). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٥؛ وانظر: ناجي عبد الجبار، الإمارة المزيدية (٣٨٧-٥٥٨هـ)، دار الطباعة الحديثة، بغداد، ١٩٦٥، ص٩٦، وسيشار إليه، ناجي الإمارة المزيدية.

(٢). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٠؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢ ص١٩؛ ابن خلدون، العبر، ق٣، مج٤ن ص٣٢٢.

(٣). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٠، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٦؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٤.

وبعد فشل المساومة مع السلاجقة، لم يقف الأمير منصور يراقب الأحداث أمام ما يواجهه من زحف سلجوقي على إمارته، وإنما بادر بالاستنجاد بالأمير العقيلي مسلم بن قريش وعقد معه تحالفاً جمع بينهما رداً على التحالف السلجوقي -الجَهيْري[1]، وذلك لضمان وقوف العقيليين إلى جانبه في حربه القادمة، فأرسل العقيلي إلى السلطان ملكشاة يرغب في حلّ المسائل سلمياً قائلاً: "هؤلاء القوم أعداؤنا -يعني بني جهير- ومتى وطئوا بلادنا وقعت الفتن وابن مروان عبد سامع وهو يحمل من المال ما نطلب منه"[2]، ويتضح من هذا النص أن آل عقيل كانوا يرغبون في إبقاء الأوضاع في الجزيرة الفراتية على ما هي عليه، لأنّ أيَّ تغيير في الوضع السياسي أو الإداري سيؤثر على مركزهم ويهدّد كيانهم في المنطقة، وكان عندهم من حسن البديهة، وبعد النظر ما جعلهم يفكرون بذلك لأن الزحف السلجوقي سيتسع مداه ليشمل بلاد الجزيرة الفراتية بأكملها.

ولكسب تأييد العقيليين ووقوفهم إلى جانب المروانيين، وعدهم الأمير منصور بإعطائهم مدينة آمد[3]، ويبدو أن ذلك غير صحيح لأن آل مروان كانوا حريصين على إبقاء العاصمة في أيديهم، ولكن قد يكونوا قد وعدوا بإعطاء أجزاء منها، وعلى أي حال وافق مسلم بن قريش على ذلك، رغم عداء الطرفين[4]، فقد "كانت بينهم إحنٌ قديمة"[5] ويرى أحد الباحثين أن هذا التحالف أحدث تطوراً جديداً على ساحة الأحداث، لأن حملة فخر الدولة لم تكن تهدف إلى

---

[1]. الاصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨ب؛ وانظر:: ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٨٤-٨٥. البنداري، دولة السلاجقة، ص٦٥-٦٧؛ ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١١٧، الدواداري، عبدالله بن أيبك (ت بعد ٧٣٦هـ/١٣٣٥م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق، صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦١م، ج٦، ص٤٠٤، وسيشار إليه، الدواداري، كنز الدرر.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٦.

[3]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨ب؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٤-١٣٥. البنداري، دولة السلاجقة، ص٧٦؛ ابن واصل، ج١، ص١١-١٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص١٩؛ الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء، ج١، ص٣١١.

[4]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٩ب؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٤.

[5]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص١٩.

التعرض لأملاك العقيليين ولكنَّ موقفهم هذا وسَّع شقة الخلاف مع السلاجقة، وسوف لا يأمنون على أملاكهم بعد ذلك(١).

استنجد فخر الدولة بن جهير بالسلطان ملكشاة وطلب منه الدعم والمساعدة بعد سماعه بالتحالف المرواني -العقيلي، فأردفه السلطان بمدد كثيف بقيادة أرتق بن أكسب التركماني(٢)، ووصف هذا القائد بأنه لم يشهد حرباً إلاّ وانتصر فيها(٣)، وقد انفرد ابن خلكان بذكر أن القائد أرتق التركماني كان ضمن قوات السلاجقة تحت قيادة فخر الدولة بن جهير منذ بداية الحملة(٤)، ويرجح الباحث ارشيد أن يكون السلطان ملكشاة قد أرسله بالمدد لاتفاق الروايات المعاصرة والقريبة من الأحداث على ذلك(٥).

وفي شهر ربيع الأول من سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) حدثت وقعة عظيمة على باب مدينة آمد(٦)، بين القوات السلجوقية بقيادة فخر الدولة بن جهير وقوات التحالف المرواني -العقيلي، وقد أغفل المؤرخون ذكر أسماء القادة الذين لعبوا دوراً بارزاً في هذه الحملة باستثناء

---

(١). ارشيد، سلاجقة الشام والجزيرة، ص٥٥-٥٦.

(٢). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٠؛ وانظر: أبو الهيجاء (ت٥٨٩هـ/١١٩٢م) تاريخ أبي الهيجاء، مخطوط رقم ١٣٨٣، المكتبة الوطنية، تونس، ورقة ١٤١ب، سيشار إليه أبو الهيجاء، تاريخ، الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٤، ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٢.

Cahen, C, The Turkish Invasion, The Selgukids, in a history of the crusades, Edit, K.M, Setten, London, 1969 V,3, p158.

وأرتق بن أكسب: تركماني الأصل تغلّب على حلوان والجبل وهو من مماليك السلطان ملكشاة وقدّم للسلاجقة العديد من الخدمات العسكرية، وتقلبت به الأحوال إلى أن أقطعه السلطان تتش بيت المقدس سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٩١.

(٣). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٠؛ وانظر: العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة ٩٢ب، الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء، ج١، ص٣٢٢.

(٤). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨.

(٥). ارشيد، سلاجقة الشام والجزيرة، ص٥٥.

(٦). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢١، ويذكر الفارقي أن أحداث هذه الوقعة كانت سنة ٤٦٦هـ، أما ابن واصل، فيذكر أنها كانت سنة ٤٧٦هـ انظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص١٩٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٢.

الأصفهاني فذكرهم قائلاً: "وقصد فخر الدولة والأمراء معه وهم، سيف الدولة صدقة بن بهاء الدولة، وإياز، وجبق، وتركش، وخمارتكش"[1].

والمهم أن فخر الدولة نزل بنواحي آمد، ولما سمع بالاتفاق الثنائي ضده قصد الصلح ومال إليه، وحاول إقناع مسلم بن قريش بالرجوع والإنسحاب قبل بدء القتال وقال: "لا أوثر أن يحلَّ بالعرب بلاء علي يدي"[2] وفي قول آخر: "أكره أن يحلَّ بالعرب مكروه أنا سببه"[3] وهذا يبين أن ابن جهير لم يكن راغباً في إراقة دماء العرب، ولم يجد له مصلحة في تشتيت شملهم[4]، وقد أورد ابن خلدون سبباً يعدُّ أقرب إلى الواقع، إذ يرى أن طلب الصلح كان خشية فخر الدولة من اجتماع العرب ووقوفهم إلى جانب ابن مروان في هذه الحرب[5]، وانفرد ابن العبري بالإشارة إلى أن شرف الدولة مسلم بن قريش هو الذي بادر بطلب الصلح، وارسل إلى أرتق بن أكسب يقول له: "أنا وابن مروان عبدان للسلطان فعلام هذا النزاع، فأرجو أن تعودا وأعود أنا ويتم الصلح[6]، والأرجح ما ذكر في الرواية الأولى وذلك لإجماع المصادر القريبة من الحدث عليها.

وقد وافق العقيلي على عرض فخر الدولة ولكنه طلب أن يكون الإنسحاب من الطرفين حتى لا يتّهم بالهزيمة[7] فلا غالب ولا مغلوب، أمَّا السبب الذي جعله يوافق على ذلك، فيبدو أنه تفاجأ بالقوات السلجوقية الهائلة والمدد الكثيف الذي وصل إلى البلاد، فأدرك أنه لا يقدر على مواجهة السلاجقة، فلم يرغب بدخول حربٍ لا يُحمد عقباها.

ولم يرق الحال الذي اتفق عليه بين الطرفين للعساكر التركمانية التي عزَّ عليها العودة

---

(1). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٦٨أ.

(2). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ وانظر: ابن واصل، مفرّج الكروب، ج١، ص١١.

(3). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٧٦.

(4). الداوداري، كنز الدرر، ج٦، ص٤٠٨.

(5). ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٣، ص٣٢٢.

(6). ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١١٧.

(7). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٧.

دون مغنمٍ أو مكسب مادي، وعبَّر الجند عن استياءهم بالقول: "نحن جئنا من البلاد البعيدة لطلب النهب، وهؤلاء يسارعون في الصلح"[1]، أمَّا القائد التركماني أرتق، فبرر موقفه بدخول الحرب قائلاً: "أنا لا أردّ رايات السلطان على عقبها"[2] ويروي ابن خلدون أن هذا القائد جهزَ حملة تركمانية وشنَّ هجوماً مباغتاً على العرب[3]، إلاَّ أن هذا القول لا يصمد أمام ما أجمعت عليه المصادر التاريخية من أنَّ لا فخر الدولة بن جهير ولا أرتق بن أكسب قد اشتركا في هذا الهجوم[4] وأن الذي قام به أحد القادة التركمان ويُدعى جبق دون علم من أحد[5].

وقد أسهب المؤرخون بوصف هذه الوقعة التي دارت رحاها بين العرب والتركمان[6]، ووصفت بأنها كانت حامية الوطيس، استولى فيها التركمان على أملاك العرب وأموالهم وأسروا أعداداً كبيرة من جنود وأمراء العقيليين، حتى رخصت الأسعار لكثرة الغنائم، ويصف سبط ابن الجوزي هذه الحادثة فيقول: "وجرى على العرب ما لم يجر عليهم قبله مثله"[7] وانهزم العرب، فتراجع مسلم العقيلي واحتمى بأسوار آمد، فسار إليه فخر الدولة وأرتق التركماني وحاصروه هناك في نفس سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) [8].

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٧.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٠-٤٨٠هـ) ص٢٢٧.

[3]. ابن خلدون ، العبر، مج٥، ق١، ص٨.

[4]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٩ب؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٦٨أ، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٧٦؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٢.

[5]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص١٢.

[6]. أبو الهيجاء، تاريخ، خط، ورقة ١٤١أ-١٤١ب؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ١٦٨أ+ب، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٢؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٤٠٩.

[7]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٧.

[8]. أبو الهيجاء، تاريخ، خط، ورقة ١٤١ب؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠) ص٢٢٧؛ ابن واصل مفرج الكروب، ج١، ص١٢؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٩٥، الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٤٠٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ١٩؛ ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٣، ص٣٨٤؛ الطباخ الحلبي، أعلام النبلاء، ج١، ٣١٢.

وأشار المؤرخون إلى الدور الذي قام به صدقة المزيدي في أحداث معركة آمد، إذ أنه كان ضمن قوات فخر الدولة، ومع ذلك افتدى كثيراً من أسرى العقيليين وقدّم لهم النجدة[1]، ويبدو أن العصبية القبلية قد فرضت عليه اتخاذ مثل هذا الموقف، وبذلك نال شهرة واسعة، وامتدح الشعراء موقفه فقالوا[2]: [البسيط]

بآمد وميافارقين له | وقائع دوّنتْ من قبلُ في الكتب
فكَّ العناة وأسنى في الهبات | ولم تقطع أرحامُ سوابك ولم تخب

ومدحه ابن الهبارية[3]: [الرجز]

أنجد قرواشاً على الأتراك | وانتاشه من مخلب الهلاك
وهكذا منك بيوم آمد | عليهم فضل فهل من جاحد
ضعضع عرشَ مسلم فثلا | ثم فدى أسرى عقيل ثكلا
أنقذهم من ارتق وجنده | وانتاشهم من أسرهِ وقيده
لولاه كانوا أبداً عبيده | وأصبحت حرّتهم وليدة

ونظراً لتطور الأحداث لصالح ابن جهير بادر شرف الدولة مسلم بن قريش بمراسلة الأمير أرتق بن أكسب لاستمالته إلى جانبه عن طريق بذله الأموال له، وطلب مساعدته في الهروب من آمد التي كان قد حوصر بها[4]، وكان ابن أكسب مكلَّفاً بحفظ الطرق والمسالك

---

(1). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ وانظر: هبة الله، أبي البقاء الحلبي، المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، تحقيق، صالح درادكة، ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمّان، ج٢، ص٤٥١-٤٥٢، وسيشار إليه، هبة الله، المناقب المزيدية.

(2). هبة الله، المناقب المزيدية، ج٢، ص٤٥٢.

(3). ابن الهبارية، نظام الدين محمد بن صالح العباسي الهاشمي (ت٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، ديوان الصادح والباغم، نشره عرب العطار، دن، مصر، ١٩٣٦م، ص٩.

(4). أبو الهيجاء، تاريخ، خط، ورقة ١٤١ب؛ وانظر:: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٧؛ ابن واصل، مفرّج الكروب، ج١، ص١٣؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٩٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص١٩، زكّار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص١٩٥-١٩٦.

ومشرفاً على أمور الحصار[1].

وعلى الجانب الآخر فقد تزامن مع هذا العرض حدوث نزاع وسوء تفاهم بين فخر الدولة وأرتق بن أكسب حول الأسرى العقيليين، حيث طلب فخر الدولة إرسالهم إلى السلطان ولكنّ أرتق رفض ذلك وردّ قائلاً: "هذا أمرٌ ما إليك منه قليل وأنا صاحب الحرب"[2] وعلى أثر هذا النزاع فارق أرتق بن أكسب فخر الدولة وسار متوجهاً نحو سنجار[3]، وإذا كان سبب قبول ارتق بن اكسب ما عُرض عليه يعود إلى تحكم فخر الدولة واستيلاؤه على الأمول[4]، أو لأن "نيته كانت غير مستقيمه مع السلطان"[5] إلاّ أنه مالا شك فيه أنّ المغريات المادية التي قدّمها العقيلي كان لها أثراً كبيراً، وكانت سبباً من أسباب اتخاذ ابن أرتق لهذا الموقف الجديد، وقد صدق مسلم العقيلي فيما وعد به، فأرسل ما استحق عليه من أموال لأرتق فيما بعد[6].

قوي مركز فخر الدولة بعد الانتصار في آمد، فاستغلّ هذا الأمر وبدأ باتخاذ خطوة جديدة تتمثل في محاصرة المدن وفتحها، فأعاد تنظيم قواته من جديد، وقسّم الجيش إلى قسمين أولهما بقيادة ابنه "علي بن محمد بن جهير" وأرسله إلى حصار آمد[7]، وباقي العسكر سار به فخر الدولة إلى ميافارقين لإخضاعها[8]، وبذلك انتقل من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم والفتح.

---

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٢؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٤٠٩؛ Cahen the Turikish Invasion, v1, p158 .

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٨.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٨، وسنجار: مدينة مشهورة تقع بنواحي الموصل وهي عامرة، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٢٦٢.

[4]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٧٦.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٨.

[6]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨ب؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٧٦؛ أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٩٥، Cahen, The Turkish Invasion, v1, p158 .

[7]. ابن الأثير، ج٨، ص١٣٨؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ص٣٨٤.

[8]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٦؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨.

وحين وصل زعيم الرؤساء علي بن فخر الدولة إلى آمد وجدها حصينة فقد كان "سورها مرتفعاً، وثغرها تمنعا، ومكانها مكيناً، وحصنها حصيناً، وركنها شديداً وقصرها مشيداً وهي في حصانة الحصانة"[1]، ولما فشل في إخضاعها حاول البحث عن وسيلة أخرى يستطيع من خلالها تحقيق هدفه مستغلاً معاناة السكّان وسوء أوضاعهم المتمثلة بالجوع والعطش وقلة المؤن، وغلاء الأسعار، وكلّ ذلك من جرّاء الحصار[2]، فأمر زعيم الرؤساء علي بن جهير بقلع الأشجار والبساتين لإرغام الأهالي على تسليم البلاد[3]، وقد نجح فيما خطط له، فبدأ الأهالي بالتذمر والشكوى من الحصار، وصعد رجلٌ من العامة إلى سور المدينة ونادى بشعار السلطان السلجوقي، فوافقه الجميع على ذلك[4]، ومن الأسباب التي جعلت العامة يبادرون إلى ذلك فضلاً عن تدهور الأحوال المعيشية هو ما عانوه من ظلم وجور من نواب بني مروان الذين كانوا يدينون بالنصرانية، وكمحاولة للتعبير عن معاناتهم ردّ السكان على هذا العسف بالسيطرة على أسواق النصارى وحوانيتهم، ثم استدعوا زعيم الرؤساء علي بن فخر الدولة وسلمّوا إليه مدينة آمد[5]، وعدّ هذا الفتح هو أول فتوح الجَهيريّين في الجزيرة الفراتية وكان ذلك في صفر سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) [6].

---

[1]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٣١ب.

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٨؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٣٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١١٩؛ العيني، عقد الجمان، خط، ١١، ورقة ٩٠أ.

[3]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٨؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٠٦؛ ابن خلدون، العبر، مج٥، ق١، ص١٠.

[4]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٨؛ وانظر: ابن خلدون، العبر، مج٥، ق١، ص١٠، العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة٩٠أ.

[5]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٠؛ وانظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢؛ ابن خلدون، العبر، مج٥، ق١، ص١٠؛ العيني، عقد الجمان، ج١١، خط، ورقة ٩٠أ.

[6]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٢؛ ويذكر سبط ابن الجوزي أن مدينة خلاط فتحت قبل آمد وذلك في ذي الحجة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، انظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٦.

سار القسم الثاني من الجيش بقيادة فخر الدولة محمد بن جهير، وأوكلت إليه مهمة فتح ميافارقين، وضيَّق ابن جهير حصاره عليها لأنه كان مدركاً أن فتح هذه المدينة يعني الاستيلاء على إقليم ديار بكر بأكمله[١]، فقطع المياه عن أهلها[٢] وكان شربهم من الآبار الخارجية، تصل إليهم عبر قنوات تسير في وسط البلد[٣]، ثم هدم برج باب الربض[٤]، وظلَّ يتحين الفرصة المناسبة لإخضاع ميافارقين، وعزَّز قوته بمددٍ جديد وصله من السلطان ملكشاة[٥] وبانهيار جزء من سور المدينة الرئيسي اضطرَّ الأهالي لتسليم البلاد، فدخلها فخر الدولة في جمادى الأولى من سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) [٦] أي بعد أشهر قليلة من فتح آمد. وربما كان السبب في هذا التأخير أن الشحنة الذي أرسله السلطان مع الحملة كان يراسل أهالي ميافارقين -نوابها- وتواطأ معهم وأخذ منهم البراطيل ليمنع عنهم الحرب، فلما مات هذا الشحنة وجد فخر الدولة مكاتباته للمروانيين، ثم عزم ابن جهير على الحرب من جديد، فجد في القتال ثلاثة أيام متواليه وتمَّ الفتح[٧] الذي وصف بأنه كان عنوة[٨]، وبعد ذلك سار فخر الدولة إلى خلاط ورجع من كان معه من القادة إلى العراق[٩].

---

[١]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٤٠.

[٢]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١١.

[٣]. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٢٧٠.

[٤]. باب الربض، أحد أبواب سور ميافارقين، انظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٢٧٥.

[٥]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٠ .

[٦]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٢؛ وانظر: أبو الهيجاء، تاريخ، خط، ورقة ١٤١ب، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٣٧، ويذكر ابن الأثير أن الفتح تمَّ في جمادى الآخرة من هذه السنة، انظر: الكامل، ج٨، ص١٣٨.

[٧]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٣٧.

[٨]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٤٠.

[٩]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة ص٧٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص١٩.

المطلب الثاني: الحملة السلجوقية على الموصل بقيادة عميد الدولة بن جهير

لم يخفَ على السلطان ملكشاة ما كان يدور من أحداث في ديار بكر، وكان على اتصال مباشر مع قواته هناك ومتابعاً باستمرار للحوادث، وما أن سمع بانضمام مسلم العقيلي إلى صفوف المروانيين ومن ثم حصره بآمد، حتى أمر بتجهيز حملة جديدة لتأديب العقيليين، وجَعَلَ عميد الدولة بن جهير قائداً لهذه الحملة وسيَّره على راس القوات السلجوقية إلى الموصل موطن بني عقيل وأمره بانتزاعها منهم وضمها إلى أملاك السلاجقة[1].

وقد شارك عميد الدولة في حملته هذه الأمير الأتابكي "قسيم الدولة آقسنقر[2] الذي كان يملك خبرة كبيرة في شؤون الجيوش وقيادة الحملات العسكرية، لذلك نجد السلطان يقدمه على القادة الآخرين المساعدين لعميد الدولة، كما أوصى ابن جهير أن يعمل بمشورته ونصحه[3]، وممن اشترك فيها أيضاً القائد التركماني أرتق بن أكسب وذلك بعد مفارقته لفخر الدولة بن جهير من ميافارقين وعوده إلى طاعة السلاجقة من جديد.

اتجهت القوات السلجوقية مجتمعة إلى حصار الموصل، وبدأها عميد الدولة بسياسة سلمية عندما أرسل إلى أهل الموصل -نواب مسلم بن عقيل- يشير عليهم بطاعة السلطان ويحذرهم من عصيانه وخوفهم من عاقبة إصرارهم على المقاومة، وطالبهم بالإستسلام، لكنَّ الأهالي رفضوا واشترطوا حضور السلطان بنفسه لاستلام البلاد فلما وصل سلمت إليه[4]،

---

(1). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨ب، وانظر: أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان المقدسي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، دط، دت، ج١، ص٢٤؛ وسيشار إليه أبو شامة، الروضتين، وانظر: أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص١٩٥؛ الدواداري، كنز الدرر، ج٦، ص٤٠٩.

(2). اقسنقر: أبو سعيد عبدالله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب، وهو جد الأمير نور الدين زنكي، كان في بداية أمره مملوكاً للسلطان ملكشاة، ثم أصبح من المقربين له فأقطعه حلب وأعمالها (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) ودفن في مدينة حلب، انظر: ترجمته في ابن العديم بغية الطلب، ج٤، ص١٩٦٣-١٩٦٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص١٣٤.

(3). ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص٥، وانظر: الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، ص٢٥٧.

(4). ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة١٥٩ب؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٨؛ أبو شامه، الروضتين، ج١،ص٢٤؛ ابن واصل، مفرّج الكروب،ج١، ص١٣.

وبذلك ضمّ السلاجقة بلاد الموصل إلى أملاكهم سلمياً[1] دون قتال، ويقال: إن عميد الدولة بن جهير وضع يده على أموال شرف الدولة مسلم بن قريش وذخائره[2]، وأن قواته نهبت وعاثت فساداً في البلاد[3].

وما لبث السلطان ملكشاة أن عدل عن أخذ الموصل، وردّها إلى صاحبها مسلم بن قريش العقيلي، واعطاه الأمان على نفسه وأملاكه ومنحه إقطاعاً خاصاً به[4]. ولابدّ أن السلطان قد اضطر إلى اتخاذ هذا الموقف، ومن الأسباب التي دعته يتنازل عن الموصل، أن أميرها مسلم بن قريش العقيلي بدأ بمراسلة الفاطميين في مصر طالباً منهم العون والمساعدة ضد السلاجقة على أن يقدّم لهم الطاعة والولاء ويخطب في امارته باسمهم[5]، فخشي السلطان من تكتل تحالفٍ جديد ضده، أما الأمر الآخر، فهو متعلق بالسلاجقة أنفسهم وذلك أن السلطان سمع بخروج أخيه تكش وتمرده وعصيانه له في مروالروذ[6] التي كان حاكماً عليها باسم أخيه ملكشاة[7] وأمام ما استجدّ من ظروف أراد ملكشاة تأجيل حروبه في بلاد الجزيرة الفراتية والتفرّغ لمواجهة الخطر الذي يهدد بانقسام البيت السلجوقي.

وسرعان ما غادر أرتق بن أكسب البلاد خوفاً من انتقام السلطان ملكشاة منه بسبب الشكوى التي قدمها ضده "فخر الدولة بن جهير" لأنه تواطأ مع العقيليين في حرب السلاجقة مع

---

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥.

[2]. ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص٥.

[3]. ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٨٤.

[4]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، مخطوط، ج١٢، ورقة ١٦٠أ؛ وانظر: أبو الهيجاء، تاريخ، ورقة ١٤١ب، ابن الأثير، التاريخ الباهر، ص٢٤؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٣.

[5]. ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٨٤؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ).

[6]. مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان، تقع على نهرٍ عظيم من بلاد فارس، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١١٢.

[7]. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٣١-١٣٣، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٣٠-٢٣١.

المروانيين في ديار بكر فاضطر للهرب بعيداً عن السلطان[1] أما عميد الدولة بن جهير فإنه غادر الموصل بعد عودة أميرها وسار متّجهاً نحو ميافارقين حيث والده فخر الدولة[2]، وذلك في سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، وهذا يخالف ما أورده خواندمير من أن عميد الدولة عاد إلى بغداد وتولى وزارة المقتدي بأمر الله[3].

واصل بنو جهير فتوحاتهم باسم السلاجقة في بلاد الجزيرة الفراتية، فقد فتح فخر الدولة "ماردين" وسيطر عليها[4]، أما جزيرة ابن عمر فإن فخر الدولة سيّر إليها جيشاً وحوصرت بعض الوقت مما اضطر أعيان البلد وكبارها إلى إعلام الجيش على ثغرات المدينة ودلوهم على بابٍ صغير ضيق لا يسلكه إلاّ الرجّالة فدخلوا منه وأخضعوا الجزيرة[5]، ودخل العسكر إلى وسطها وملكها السلاجقة على حدّ قول الذهبي "بمخامرة من أهلها"[6]، وبذلك غدت من ضمن ولاية فخر الدولة بن جهير حيث عيّن بدوره عليها نائباً استمر حتى سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) عندما عُزل ابن جهير عن ولايته[7].

وبذلك استقر الوضع في الجزيرة الفراتية أن غدت ديار بكر خاضعة للسلاجقة بجميع مدنها وقراها على يد بني جهير، وبقيت الموصل بيد أصحابها من بني عقيل، أما الأمير المرواني، فقد إنهارت مقاومته تماماً، ووصف الفارقي حاله فقال: "وكان يجري منه سوء الرأي والتدبير بدركات السلطان أشياء من اللجاج ومخالفة الأمراء والسلطان وأصحابه مالا يليق بالصبيان، وما كان يقبل من أصحابه"[8]. ولما عرض عليه السلطان تعويضه عن خسارته في

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٣٦؛ وانظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج١، ص١٣. Cahen, the Turkish Invasion, v1, p158 .

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٥.

[3]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٩.

[4]. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق١، ص٥٢٢.

[5]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٩؛ وانظر: ابن خلدون، العبر، مج٤، ق٣، ص٣٨٥؛ العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة٩٠أ.

[6]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص٢٦.

[7]. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٢١٧.

[8]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٣.

إمارته، قال: أريد حربة تقع في صدري وتخرج من ظهري -كناية عن ضياع هيبته ومكانته- فقيل للسطان قد طلب حربى[1] فاقطعه إياها السلطان[2]، ظناً من المترجم أنه يقصد تلك المنطقة، وظلَّ مقيماً إلى حين وفاته.

المبحث الرابع: ولاية بني جهير على اقليم "ديار بكر" (٤٧٨-٤٨٥هـ/١٠٨٥-١٠٩٢م)

كافأ السلطان السلجوقي ملكشاة فخر الدولة محمد بن جهير وأبناؤه بتوليتهم على مدن ديار بكر، إكراماً لهم على ما بذلوه من جهودٍ في مساعدة للسلاجقة على إخضاع مدن الجزيرة الفراتية، فاستقروا في ديار بكر وكان مقام فخر الدولة بن جهير في مدينة ميافارقين أما ولده زعيم الرؤساء فتولى إدارة مدينة آمد[3].

أقام فخر الدولة في ولايته مدة سنتين[4]، وهذا يعني الفترة الممتدة بين سنوات (٤٧٨-٤٨٠هـ /١٠٨٥-١٠٨٧م)، فأرسل السلاجقة إليه أمراً بضرورة المسير إليهم وترك الولاية[5]، وعُيِّنَ بدلاً منه العميد أبي علي البلخي والياً على البلاد، ولما اتفقت المصادر على أنَّ ولاية البلخي بدأت في سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) [6]، فهذا يعني أن ولاية فخر الدولة بن جهير كانت سنة وبضعة شهور، لا سنتين كاملتين، وقد رفض ابن جهير في بداية الأمر الإنصياع للأوامر السلطانية، ولضمان المحافظة على وجوده في ميافارقين استقدم أهلها واستحلفهم على

---

[1]. حربى: بليدة في أقصى دجيل بين بغداد وتكريت؛ انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٧؛ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٥.

[2]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٣-٢١٤؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٥.

[3]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٤.

[4]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٩؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٩.

[5]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٩؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٩.

[6]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٣٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص٣٣.

الطاعة والولاء له[1]، ويبدو أن الجَهيْرِيّ كان يخشى من السلاجقة على نفسه وولايته، ولكنه عدل عن رأيه السابق وشدَّ الرحال قاصداً السلطان، ومع أن الفارقي يبرر اتخاذ فخر الدولة لهذا الموقف على أن ولده عميد الدولة كان في هذا الوقت (٤٧٩هـ - ١٠٨٦م) وزيراً للخليفة المقتدي بأمر الله وأنه خشي عليه من العزل والطرد إذا بقي متمسكاً بموقفه من عدم استجابة طلب السلطان بالمثول لديه[2]، إلاَّ أنَّ هذا التبرير تنقصه الدقة، لأن عميد الدولة لم يرجع إلى منصبه الوزاري في بغداد إلاَّ في سنة (٤٨٤هـ/١٩٨١م)، كما أنه كان أثناء هذا الوقت مشغولاً في مساعدة السلاجقة في ضمِّ الموصل إلى أملاكهم، ولكن من المتوقع أن ابن جهير كان غير راغب في الصدام مع السلاجقة أو مخالفتهم لا سيّما وأنه لم يثبّت حكمه بعد في ديار المروانيين، كما أن علاقته سيئة مع الخلفاء العباسيين فادرك بفطنته وذكائه إنه إذا ما خالف السلاجقة فإنه سيفقد سنداً ودعماً قوياً وقف إلى جانبه وأسرته بعد طردهم من بغداد.

ما أن وصل فخر الدولة إلى السلطان حتى وُجهت إليه تهمة الاستيلاء على خزائن المروانيين والاستحواذ على ثرواتهم المالية منها والعينية[3]، وكان قد ضمِنَ ديار بكر على أن يؤدي عنها مبلغاً من المال[4]، ومن المؤكد أنه لم يلتزم بما قرر عليه من مال عن ضمانها مما أدى إلى استدعاء السلطان له لمحاسبته على السياسة المالية التي اتبعها أثناء ولايته على البلاد، وإذا كان هذا السبب الذي أورده الفارقي على أنه السبب الرئيسي في إقصاء فخر الدولة عن ولايته، فمن المحتمل أن السلاجقة كانوا يفكرون بأبعد من ذلك فيما يخص ولاية ابن جهير وما تشكله من خطرٍ على مصالحهم، بحيث أنه لم يخفَ عليهم ما وصل إليه من مكانة مرموقة وسمعة طيبة عند أهل ميافارقين[5]، فخشي السلطان من ازدياد نفوذهم واتساع سلطانهم وبالتالي تأسيس إمارة مستقلة لهم بعيداً عن أنظار السلاجقة.

---

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٩، وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٩.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٩.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٩، وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٩.

(4). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٢٤.

(5). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٣.

ومما يدلل على صحة القول السابق أنه عندما وليَّ العميد البلخي ميافارقين عيَّن نائباً له في مدينة أرزن فظلم واليها الناس وعسفهم[1]، وكان الأهالي قد اعتادوا على عدل فخر الدولة وحسن معاملته وإكرامه لهم، فاستاءوا من ولاية البلخي وعماله، وجمع أهل ميافارقين بعض من رؤسائهم وأعيان دولتهم وبعثوهم في سفارة إلى السلطان يشكون إليه ظلم الوالي الجديد، ويرغبون في إعادة بني جهير إلى البلاد لميلهم إلى حكمهم[2]، وبذلك فإن فخر الدولة بن جهير كان يحظى بميل العامة والخاصة من أهل ميافارقين، وهذا ما يعارضَ رأي بعض الباحثين من أن السلطان قد عزل فخر الدولة عن ولايته في ديار بكر لكراهية الناس له[3].

كما أن السلطان لم يكن راغباً في إعادة ابن جهير إلى ولايته في ميافارقين بالذات، لأنه عند وصول فخر الدولة إلى البلاط السلجوقي -على إثر استدعاء السلطان له- أعلن له الولاء والطاعة فأكرمه ملكشاة بتنصيبه والياً على ديار ربيعة دون ديار بكر، بعد أن انتزعها من يد الأمير العقيلي إبراهيم بن قريش الذي ماطل بتقديم ما أُستحق عليه من أموالٍ للسلاجقة[4]، وبذلك نال ابن جهير شرف ولاية ديار ربيعة وخطب له على منابرها في الموصل وسنجار ونصيبين، كما تملَّك من ديار مضر سروج، وظلَّ والياً للسلاجقة على البلاد حتى وفاته في سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م) في الموصل[5].

قوبل طلب أهالي ميافارقين في إعادة فخر الدولة بن جهير معهم بالرفض من قبل السلاجقة وتزامن مع ذلك تخطيط لاتفاق جرى بين عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير والوزير السلجوقي نظام الملك، على ضمان ديار بكر لعميد الدولة لمدة ثلاث سنوات بمليون دينار[6]، وأُجيب عميد الدولة إلى ذلك فعاد إلى ميافارقين بصحبة أهلها الذين قدموا من أجل

---

[1]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٣؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٩٠.

[2]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٣.

[3]. دائرة المعارف الإسلامية، ص٩، مادة جهير.

[4]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٧؛ وانظر: المعاضيدي دولة بني عقيل بالموصل، ص١٣٨.

[5]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٦-٢٢٧؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣١، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١،ج٣،ص٣٩٣؛الذهبي،السير،ج١٨،ص٦٠٩،ابن خلدون،العبر،مج٤،ق٣، ص٣٢٤.

[6]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٤؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٩٠.

إعادة فخر الدولة معهم[1]، وبقي عميد الدولة مقيماً على ولايته لديار بكر حتى أواخر سنة(٤٨٤هـ/١٠٩١م) عندما استدعاه السلطان إليه -قبل إنتهاء المدة المقررة لولايته في البلاد-، في أصفهان[2]، وكانت علاقة السلاجقة قد ساءت مع الوزير العباسي أبي شجاع الروذراوري، فاستدعى الوزير نظام الملك صهره عميد الدولة وشفع له عند الخليفة المقتدي بأمر الله وأعاده إلى وزارته مرة ثانية معززاً مكرماً.

ولما خرج عميد الدولة من ميافارقين رتَّبَ مكانه أخاه الكافي أبي البركات جهير بن فخر الدولة، وبقي هذا والياً عليها حتى سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) حين استدعاه السلاجقة هو الآخر فخرج إليهم محملاً بالأموال[3] بعد أن استناب مكانه ولده أبا الحسن بن الكافي جهير بن جهير الذي سرعان ما اضطربت الأحوال في ولايته عند سماع الأهالي بموت السلطان ملكشاة[4]، فسارع أخيه تتش إلى البلاد لضبط أمورها فلما وصل هناك أقال أبي الحسن بن الكافي بن فخر الدولة عن ولايته لميافارقين وولاه عوضاً عنها نصيبين، ثم سار تتش إلى الموصل، وأرسل في طلب الكافي جهير بن فخر الدولة الذي كان متواجداً في جزيرة ابن عمر فلما وصل إليه تولى له منصب الوزارة[5]، وبذلك نال أحد أفراد الأسرة الجَهيْريّة شرف تولي الوزارة السلجوقية.

وقد انفرد ابن العديم بالقول: بأن تتش قبض على جميع بني جهير وقطع رؤوسهم ورؤوس أولادهم وعلَّقها في رقابهم[6]، وهذا القول مجانبٌ للصواب إذ أن دور بني جهير لم ينته على مسرح الأحداث عند هذا الحدّ، بل أن جماعة منهم عادوا إلى وزارة الخلافة العباسية

---

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٤.

(2). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٧.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٨.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٩؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٩٠.

(5). ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٢٣؛ وانظر: ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٦١أ؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥؛ الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٣٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٧.

(6). ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص١١٨.

ومنهم زعيم الرؤساء علي بن فخر الدولة والمظفر الحسين بن علي كما أنَّ الفارقي يذكر أنه شاهد أبا الحسن بن الكافي في بغداد سنة (٥٣٥هـ/١١٤٠م) [١] فلو أن تتش قضى عليهم لكان أول من قضى عليه أبا الحسن هذا.

المبحث الخامس: سياسة بني جهير المالية والإدارية في اقليم ديار بكر

أحدث بنو جهير بعض التنظيمات الإدارية والمالية أثناء ولايتهم للسلاجقة على بعض مدن الجزيرة الفراتية، ومع أن التنظيمات في خطوطها الرئيسية لا تتغير جذرياً مع تغير القادة والحكام لا سيما تلك الصغيرة منها والمتمثلة بالموظفين والمسؤولين الصغار[٢]، لذا فإن الجَهيْريّين لم يستحدثوا نظماً جديدة بل اكتفوا بإضافة بعض التعديلات عليها، وقد كان لهم سياسة مالية ملحوظة حيث يمكن الباحث إعطاء صورة عنها، أما الإدارة، فقد كانت إشاراتها محدود.

وتمثلت التنظيمات الإدارية بتلك الخبرة التي كان فخر الدولة بن جهير قد اكتسبها لا سيما ما اتصل بالأموال وإدارة خزائن المروانيين وثرواتهم وذلك مذ أن كان وزيراً في بلاطهم، ولعلَّ إطلاعه على عِظم ثروتهم جعلهُ يطمع فيها، ولم يكون اشتراكه في الحملة السلجوقية على ديار بكر خدمة للسلطنة بقدر ما كان هذا المشروع سيدرّ عليه فوائد مادية كثيرة تغنيه وعقبه من بعده خاصة وأن بلاد الجزيرة الفراتية أرضٌ خصبة وغنية بالموارد المائية[٣] وخاصة ميافارقين التي بلغت درجة عالية من الازدهار الاقتصادي والعمراني في أواخر حكم الأسرة المروانية، ويظهر ذلك من خلال ما أوحى به أحد المنجمين وقد نظر إلى عمارة البلاد وبساتينها، فخاطب الأمير المرواني ناصر الدولة وقال: "ما أحسن هذا البلد وأكثر

---

(١). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٣٠.

(٢). خليل، عماد الدين، الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة (٤٦٥هـ/٨١٢هـ/١٠٧٢-١٤٠٩م) أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م، ص٣٩٨، وسيشار إليه، عماد الدين، الإمارات الأرتقية.

(٣). ابن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٠.

العمارة فيه، ولكن يقضي طالعه أنه بعدك يستولي عليه الخراب والجور والظلم"[1] وعلى الرغم ما يشوب هذه الرواية من المبالغة إلاّ أنها تشير إلى الامكانيات الاقتصادية للمنطقة[2].

ولتحقيق أطماعه شرع فخر الدولة بتطبيق سياسة مالية تدرُّ عليه الربح الوفير، وتمثلت هذه السياسة في الاستيلاء على جميع ممتلكات المروانيين النقدية والعينية في أقصر مدة ممكنة[3]، وقدَّرت هذه الثروة بحوالي مليوني ديناراً نقدياً هذا سوى الجواهر والذهب والفضة والآنية والأعلاق الثمينة[4].

وقد حرص ابن جهير على عدم اطلاع السلطان السلجوقي ملكشاة ووزيره نظام الملك على ما حصل عليه من أموالٍ كانت لبني مروان وذلك ليتمكن من الانتفاع بها وحده، فحاول التخلص من أبي طاهر الأنباري -الوزير المرواني السابق- لأنه كان خبيراً بأمور الخزائن المالية المروانية وثروات أهلها، وهذا كان يشكل خطراً على فخر الدولة الذي خشي من مسير أبي طاهر إلى السلاجقة وإعلامهم بما آلت إليه الأموال المروانية، فقبض عليه وأرسله إلى حصن كيفا[5] وأمر ناظره بقتل الوزير، لكنَّ الناظر واراه واشاع خبر قتله[6].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف تصرَّف فخر الدولة بهذا الكمّ الهائل من المبالغ المالية التي حصل عليها؟ وقد اختلفت روايات المؤرخين حول ذلك فيؤكد الفارقي أنه أرسل هذه الأموال إلى ولده عميد الدولة في بغداد وهو متولي للوزارة المقتدية وذلك في سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) [7]، أما الصفدي، فيذكر أن فخر الدولة بعث بالأموال إلى ولده عميد الدولة

---

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٠٤؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨١.

(2). عماد الدين، الإمارات الارتقية، ص٤٣١.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٢، وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨؛ خواندمير، دستور الوزارء، ص١٩٧.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٩؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٩.

(5). يقع هذا الحصن بين آمد وجزيرة ابن عمر، وهو قديمٌ مشرف على دجلة، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٤.

(6). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٥، وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٦.

(7). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٦.

وهو عند السلاجقة في أصفهان[1] في حين يقول الذهبي أنه أرسل الثروة مع ولده أبي القاسم علي بن فخر الدولة إلى السلطان ملكشاة في أصفهان ويؤيده في ذلك كل من ابن خلدون، وابن تغري بردي وخواندمير[2]، وما أورده الفارقي لا يؤخذ به على الإطلاق لأن عميد الدولة لم يكن في بغداد وزيراً في هذا الوقت؛ بل أنه كان يخدم عند السلاجقة، ويبقى لدينا الخلاف حول روايتي الصفدي وباقي جموع المؤرخين اللاحقين، ويحلُّ سبط ابن الجوزي هذا الخلاف الذي وقع بينهم بقوله في حوادث سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م): "وفي رمضان ورد زعيم الرؤساء أبو القاسم بن فخر الدولة بغداد، ومعه من أموال بني مروان ما ظفر بها أبوه، ونزل في دار المملكة، ثم خرج في شوال متوجهاً إلى أصفهان"[3].

ويفهم من الروايات السابقة أن فخر الدولة أرسل الأموال بالأصل إلى ولده عميد الدولة ظناً منه أنه في بغداد، فلما وصل زعيم الرؤساء إلى بغداد لم يجد أخاه فنزل في دار السلطنة ثم غادرها إلى عاصمة السلاجقة أصفهان، ونزول الزعيم في دار السلطنة دون بلاط الخليفة يعني أن العلاقات الجَهِيْرِيّة -العباسية لا زالت متوترة، ولعلَّ في ذلك ما ينفي رواية المؤرخ الفارسي خواندمير من أنَّ عميد الدولة عاد إلى وزارة المقتدي بأمر الله في وقتٍ مبكر منذ عام (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)[4].

وثمة سؤال آخر يطرح نفسه، وهو لمن سُلِّمت الأموال بعد وصول الزعيم إلى أصفهان للسلطان ملكشاة أم لعميد الدولة بن جهير؟ والأرجح أن تكون قد وصلت ليد عميد الدولة دون السلطان، لأن السلاجقة كانوا قد استدعوا فخر الدولة بن جهير إليهم لمحاسبته على أموال البلاد، بل أنهم جعلوا من عدم سداده لما استحق عليه من أموال سبباً رئيسياً لعزله عن ولايته في ميافارقين.

---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢.

[2]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٢، ص٢٦؛ وانظر: ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٥٧٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٢٨، خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٧.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨هـ/٤٨٠هـ) ص٢٣٧.

[4]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٩.

أدرك فخر الدولة بن جهير بذكائه وحسن بديهته وبعد نظره ما ستؤول إليه أحواله من أن السلاجقة لن يدعوه ينعم بما استحوذ عليه من مبالغ طائلة، كما شعر أن ولايته على ديار بكر لن تدوم طويلاً، لذلك نقل أمواله خارج البلاد، وأودع جزءاً منها عند أصدقائه في بغداد وميافارقين، وورد اتهام لـ "عبد السلام بن بندار"[1] من قبل السلاجقة بأنه أودع أموال بني جهير عنده، وما طلب عميد الدولة ضمان ديار بكر إلاّ محاولة منه لاسترجاع تلك الودائع من أهل ميافارقين[2].

وقد وصف المؤرخون ما حصل عليه عميد الدولة من ثروات مالية ومنها: "مائدة بلور دورها خمسة أشبار وقوائمها منها، وخمس قطع زبادي بللور، وزوج صحون بللور، وثلاث حليات، وخمسة أقداحٍ برسم الشرابي وشربه وشرابي الجميع بللور منقوش محفور فيه صناعة لم يرَ أحسن منها، وحقة ذهب فيها سبحة كانت لنصر الدولة وكانت مائة وأربعين قطعة لؤلؤ القطعة منها وزنها مثقالاً، ما زاد قيراط أو نقص قيراط، وفي أوسطها حبل ياقوت أحمر الذي حمله الملك العزيز بن بويه لنصر الدولة، وفيها عشر قطع ياقوت ملون، وعشر قطع بلخش لم يرَ مثلها، وعشر قصبات زمرد القصبة مثل الاصبع ..."[3].

ومن الجدير بالذكر أن السلاجقة ظلوا يلاحقون بني جهير لاسترداد الأموال التي استولوا عليها من ديار بكر، ففي سنة (٤٩٣هـ/١١٠١م) قرَّر السلطان بركياروق مصادرة عميد الدولة ابن جهير وزير المستظهر بالله وطالبه بأموال ديار بكر وقال: "هذا الوزير ابن جهير قد تصرَّف هو وأبوه في ديار بكر والجزيرة والموصل في أيام جلال الدولة -ملكشاة- وجبوا أموالها، وأخذوا ارتفاعها وينبغي أن يعاد كل حق إلى حقه"[4] ولم يكتفِ السلطان بذلك بل أخذ

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢١، وعبد السلام بن بندار هو أبو يوسف القزويني الهمذاني، رحل إلى مصر، ثم قطن بغداد، وهو أحد شيوخ المعتزلة المجاهرين بالمذهب والداعين إليه، وصف بأنه لم يكن محققاً في علم، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢١.

[2]. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٩٣.

[3]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٦-٢١٧، ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٧-٣٨٨؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص١٢٢.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٣.

يتحين الفرص للانتقام من بني جهير على ما استحوذوا عليه من أموال اعتبرها السلاجقة ليست من حقهم، ففي رمضان سنة (٤٩٤هـ/١١٠٢م) قبض بركياروق على جميع أبناء فخر الدولة وأخذ منهم أموالاً[١]، وفي هذا دليل على أن بني جهير لم يلتزموا بتقديم ما استحق عليهم من أموال البلاد المفتوحة للسلاجقة وإن كانوا أعطوهم شيئاً فإن ذلك يعد جزءاً بسيطاً مما حصلوا عليه.

أما على صعيد الإدارة فما أن استقرت الأمور في البلاد حتى شرع فخر الدولة في اتخاذ بعض الإجراءات التنظيمية الإدارية، وإذا كانت المصادر لا تصرّح كثيراً بهذه التنظيمات فهذا لا يعني عدم وجودها إلا أنه من الواضح أن التركيز في معظم الأحيان ينصب على ذكر الأحداث السياسية وقضايا الحكم أكثر من غيرها[٢].

صرف فخر الدولة جزءاً من الأموال التي اكتسبها في إدارة شؤون البلاد فأغدق بأمواله على الأهالي ولم يبخل عليهم وأحسن لهم وذلك لضمان كسب تأييدهم ومحبتهم، كما وفرَّ لهم الاشغال والأعمال لتحسين أوضاعهم المعيشية، ورفع عنهم[٣] السخرة وكلُّ هذا زيادة في تثبيت أركان حكمه، فازدهرت البلاد في ولايته، وعمَّ الرخاء بعد الغلاء والشدة التي كانت بآمد عند فتح زعيم الرؤساء لها، ورخصت الاسعار فكان مكوك[٤] الحنطة يباع بدينارين وثلاثة، كما أن الزعيم قدَّم لأهل آمد الغلال والأموال[٥].

وقد سار عميد الدولة على نهج والده في الإحسان إلى الناس وإكرامهم وإغداق الأموال عليهم[٦] بعد أن تمت جباية ميافارقين وجميع مدن ديار بكر[٧]. وتوسط لهم عميد الدولة لدى

---

[١]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٩.

[٢]. عماد الدين، الإمارات الأرتقية، ص٣٨٩.

[٣]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٦؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٦.

[٤]. المكوك: نوع من أنواع المكاييل بلغ مقداره ٧,٥ لتر في كلِّ من العراق والجزيرة، انظر: هنس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠م، ص٧٨.

[٥]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٣٥.

[٦]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٤؛ وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٩٣.

[٧]. الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٥.

السلطان فأسقط عنهم من الضرائب مؤونة الغريب والبلدي"[1].

واهتمّ فخر الدولة بن جهير بالتنظيمات العمرانية، فقام بترميم سور مدينة آمد الذي انهار في أثناء حصارها[2]، وشرع بعمارة برج باب الربض الذي هدم من جرّاء الحصار ودشّن بجانبه برجاً آخر[3]، وقرر أن يحوّل ديراً للنصارى إلى مسجدٍ مما حدا بالنصارى أن يدفعوا له مبلغ مائة وثلاثين ألف دينار لإعادته ديراً وتمّ لهم ما أرادو[4].

رتّب فخر الدولة بن جهير العمال، والمتصرفون في جميع أنحاء البلاد[5]، وأقرّ أبو الحسن علي بن الأزرق الفارقي على نظارته لحصن كيفا[6]، وكان ابن جهير مخوّلٌ بمنح الإقطاعات العسكرية للقادة الذين ساهموا معه في فتح البلاد ومن هؤلاء الأمير جبق الذي أُقطع خرتبرت[7] وظلّ هذا الإقطاع عليه وعلى أبنائه من بعده[8].

ويذهب زكّار إلى القول بأن حملة ابن جهير هذه كانت أكثر من مجرد كونها حملة عسكرية، بل اعتبرت حلقة من حلقات التدفق التركماني إلى بلاد الجزيرة الفراتية فقد تركت وراءها القائدين أرتق وجبق وفتحت أمامهما الطريق للشهرة والمجد السياسي وسرعان ما سيؤسسون إمارات إرتقية حكمت فترة من الزمن[9].

---

(1). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٥، ضريبة البلدي هي: ما يحصل ويدخل من البساتين التي حول المدينة والكروم، وما يدخل من الضياع من جميع الفاكهة والخضر والبقول والفحم والحطب.

(2). ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٨٥.

(3). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٤.

(4). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢٢٠، وانظر: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ق١، ج٣، ص٣٩٠.

(5). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٤.

(6). خرتبرت: هو الحصن المعروف بحصن زياد ويقع في أقصى ديار بكر من بلاد الروم، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٥.

(7). الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٥.

(8). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٨أ، وانظر: الفارقي، الدولة المروانية، ص٢١٢، البنداري، دولة السلاجقة، ص٨٠.

(9). زكّار، إمارة حلب، ص١٨١.

وخلاصة القول أن الحملات السلجوقية على بلاد الجزيرة الفراتيـة بقيـادة بنـي جهير قـد نجحت فيما هدفت إليه، وحقق السـلاجقة أطمـاعهم بزيـادة مسـاحة رقعـة الأراضـي السـلجوقية واتساع دولتهم على حساب الإمارات المحليسة المترامية الأطـراف، كمـا أن فخـر الدولـة حقق طموحه الذي راوده منذ وزارته للمروانيين في الاستحواذ على أملاكهم وأموالهـم ولكنـه فشـل أمام التحدي والنفوذ السلجوقي في الاستقلال بحكم الإمارة وإخضاعها له ولبنيه من بعده.

الفصل الرابع

وزراء بني جهير وسياسة الوسيلة والغاية.

- **المبحث الأول:** سياسة وزراء بني جهير تجاه السلاجقة.
  - **المطلب الأول:** العلاقات العباسية-السلجوقية زمن الخليفة القائم بأمر الله وأثر بني جهير فيها
  - **المطلب الثاني:** العلاقات العباسية-السلجوقية زمن الخليفة المقتدي بأمر الله وأثر بني جهير فيها.
  - **المطلب الثالث:** العلاقات العباسية-السلجوقية زمن الخليفة المستظهر بالله وأثر بني جهير فيها.
- **المبحث الثاني:** دوربني جهير في استمالة أمراء الأطراف الخارجين على سلطة الخلافة العباسية.
  - **المطلب الأول:** العقيليون أمراء الموصل.
  - **المطلب الثاني:** بنو مزيد أمراء الحلة وعلاقة بني جهير بهم.
- **المبحث الثالث:** علاقتهم بملوك وأمراء الدول المجاورة.
  - **المطلب الأول:** ملوك الروم.
  - **المطلب الثاني:** المرابطون أمراء المغرب.
- **المبحث الرابع:** أثر وزراء بني جهير في سياسة الدولة على الصعيد الداخلي.
  - **المطلب الأول:** موقف الجهيريين من الانقسامات المذهبية في الدولة العباسية.
    - الصراع الفكري بين الحنابلة والأشاعرة وموقف فخر الدولة بن جهير منه.
    - الصراع بين الطوائف المسيحية ودور عميد الدولة ابن جهير فيه.
  - **المطلب الثاني:** بنو جهير في الميزان.

الفصل الرابع

وزراء بني جهير وسياسة الوسيلة والغاية

المبحث الأول: سياسة وزراء بني جهير تجاه السلاجقة

ذكر الماوردي في كتابه قوانين الوزراء أن من مهمات الوزير الدفاع عن المملكة من الاعداء، ويروي بإن الدفاع إنما يتم بثلاث وسائل؛ الأولى عند طريق المسالمة والمقاربة إذا كانت كلا القوتين -الدولة والأعداء- متكافئتين، والثانية بالملاطفة والملاينة إذا كان الأعداء عُظماء متقدمين، وأخيراً يدفع الأعداء بالسطوة والمخاشنة إذا كانوا ناجمة منافسين، ويوضح أن العدو هو من انفرد بملك أو امتنع بقوة[1]، وكان أعداء الدولة العباسية في هذه المرحلة ممن ينطبق عليهم الوصف الثاني كما يذهب إليه المؤرخون، ومع أننا لا نستطيع وصف السلاجقة بالأعداء إلا أن الملاطفة والملاينة كانت واجبة، وما أن وصل بنو جهير إلى الوزارة حتى كان السلاجقة قد بسطوا نفوذهم على مؤسسة الخلافة في بغداد، فكان لابدَّ من ظهور عوامل التنافس بين الوزراء من بني جهير والسلاجقة، الأمر الذي سينعكس سلبياً على الخلافة العباسية.

- المطلب الأول: العلاقات العباسية-السلجوقية زمن الخليفة القائم بأمر الله وأثر بني جهير فيها.

لقد عاصر الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ/١٠٣٠-١٠٧٤م) ثلاثة من عظماء سلاطين السلاجقة، وهم طغرلبك (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م)، وألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م)، وملكشاة (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م)، ومع وصول فخر الدولة بن جهير وأسرته إلى بغداد سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م) لاستلام وزارة الخليفة -كما أشرنا سابقاً- كانت العلاقة قد ساءت بين الخليفة القائم بأمر الله والسلطان طغرلبك، وتعزو

---

(١). الماوردي، قوانين الوزارة، ص١٤٦-١٤٧.

المصادر سبب توتر العلاقة بينهما إلى رفض الخليفة مصاهرة السلاجقة في زواج السلطان من ابنته[١]. فغضب طغرلبك من موقف الخليفة هذا وعاتبه كثيراً على ما قدّمه من خدمات له، وتفانيه في الدفاع عن العباسيين قائلاً: "هذا جزائي من القائم، وقد قتلت أخي في طاعته، ووهبت عمري لساعته، وأنفقت أموالي في خدمته، وطلبت فقري لثروته، فما باله ما بالى برّد قولي ..." [٢].

ولقد بنى الخليفة رفضه في ذلك على مبدأ الكفاءة في الشريعة، إذ إن ابنة الخليفة عربية قرشية النسب، هاشمية من نسل بني العباس، والسلطان طغرلبك تركي الأصل من بني سلجوقه، فلم يكن كفوأ لها[٣] إلاّ أننا نرى أن هناك أسباباً أخرى تحول دون ذلك، فلعل السلطان كان يطمح من هذا الزواج إلى توثيق روابط القرابة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[٤]، ثم تقوية مركزه وتدعيم الوجود السلجوقي في الخلافة العباسية[٥] والحيلولة دون تمكن المنافسين منها، خاصة أن السلاجقة كانوا قد بسطوا نفوذهم على جميع الأراضي المجاورة لبغداد، وأصبحوا على مشارف العراق، إضافة إلى أن طغرلبك أراد إظهار مدى نفوذه وعظمته أمام الخليفة وليبين له أنّه الأقوى على ساحة الأحداث، وهذا ما أثار مخاوف الخلافة العباسية.

وعلى أي حال فقد استاء طغرلبك من رفض القائم بأمر الله مصاهرته، فأقدم على اتخاذ اجراءات عدة كان القصد منها التضييق على الخليفة، وإرغامه على هذا الزواج، إذ إنه قام

---

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٦٥؛ وانظر: الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٧ب؛ الراوندي، راحة الصدور، ص١٧٦؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢، ص٩٣؛ ويذكر ابن العمراني أن السلطان أراد الزواج من أخت الخليفة وليس من ابنته واسمها مريم، انظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص١٩٨.

(٢). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٢٧أ؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٢.

(٣). جواد، مصطفى، سيدات البلاط العباسي، دار الفكر للجميع، بيروت، دط، دت، ص١١٣، وسيشار إليه، جواد، سيدات البلاط العباسي.

(٤). الشيرزي، المنهج المسلوك، ص١٧.

(٥). الجميلي، رشيد عبدالله، إمارة الموصل في العصر السلجوقي، جامعة بغداد، ١٩٨٠، ص٦٠.

بمصادرة إقطاعات القائم بأمر الله وأمواله، كما أوقف أرزاق عمّاله وقطع معاشاتهم[١]، ثم أرسل للخليفة خطاباً مشحوناً بالتهديد والوعيد[٢]، وعلى أثر هذه الإجراءات والتهديدات المستمرة للخليفة إضطّر مرغماً إلى الموافقة على الزواج، ومن ثم إتمامه في سنة (٤٥٤هـ/١٠٦٢م).

ويصف سبط ابن الجوزي موقف كلٍّ من الخليفة والسلطان من هذه المصاهرة فيقول: "وظهر منه -يعني طغرلبك- سرور عظيم، ومن الخليفة تألمٌ كثير"[٣] وهذا يبين لنا أن العباسيين وافقوا مكرهين على هذا الزواج أمام الضغط السلجوقي، ومن مظاهر هذا الإكراه أن الخليفة كان قد عزم على لقاء السلطان، ولكنه تراجع وانتدب وزيره فخر الدولة بن جهير لاستقبال الوفد السلجوقي، الذي شدَّ الرحال إلى بغداد لاتمام ما كان يهدف إليه[٤].

لم تدم علاقات النسب والمصاهرة بين العباسيين والسلاجقة طويلاً، فما لبث أن مات السلطان طغرلبك سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) فخلفه في السلطنة السلجوقية ابن أخيه ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م)[٥] الذي سارع في الحصول على تفويض من الخليفة لتدعيم سلطته وإعطائها مظهر الشرعية، ولا سيّما أنه قد ظهر له منافسٌ آخر على الحكم وهو ابن عم أبيه المدعو "قتلمش"[٦] ودارت حروب بينهما من أجل الحكم[٧]، فكان على ألب أرسلان التقرب من الخليفة لتثبيت دعائم سلطته.

---

[١]. الراوندي، راحة الصدور، ص١٧٦.

[٢]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٨٨.

[٣]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٩٩.

[٤]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٣ب؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٧٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٥؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٢٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٩٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٤.

[٥]. الراوندي، راحة الصدور، ص١٨٥.

[٦]. قتلمش: شهاب الدولة بن إسرائيل بن سلجوق، كان يملك حصون وقلاع من جملتها كردكوة، وغيرها من عراق العجم، وعصى على السلطان ألب أرسلان وتحارب الطرفين بالقرب من الري فلما انجلى الأمر وجد قتلمش ميتاً ولا يدرى كيف كان موته وذلك سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٤م) وقيل أنه مات من الخوف، انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٧١.

ولكسب ودّ العباسيين والتقرب منهم بادر السلطان ألب أرسلان بإرجاع ابنة الخليفة زوجة السلطان طغرلبك إلى بلادها وأهلها سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٤م)[1] في محاولة منه الحصول على رضى الخليفة والتقارب معه، ومرة أخرى ينتدب القائم بأمر الله أحد أفراد بني جهير – وهو عميد الدولة– ليتشرف باستقبال الوافدة الجديدة إلى بغداد[2]، وزيادة في توثيق العلاقات أرسل السلطان إلى الخليفة رسالة وأرفقها بأخرى للوزير فخر الدولة بن جهير[3]، كناية عن تحسن الأوضاع وصفائها.

وتقديراً لهذه الخطوة من قبل السلطان السلجوقي ألب أرسلان فقد أمر الخليفة بنقش اسم السلطان على السكة العباسية، وذكره في خطب يوم الجمعة وشرّفه بمنحه ألقاباً فخمة، وخاطبه بالسلطان المعظم، شاهنشاه الأعظم، ملك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين غياث المسلمين، ظهير الإمام، كهف الأنام، عضد الدولة، تاج الملة، أبا شجاع ألب أرسلان، برهان أمير المؤمنين"[4] ومن خلال التدقيق في معاني هذه الألقاب يظهر لنا المكانة والرفعة التي غدت للسلطان ألب أرسلان عند الخليفة القائم بأمر الله.

وتعرضت العلاقة العباسية–السلجوقية إلى بعض الخلافات عندما وصل أبو أحمد النهاوندي إلى بغداد[5]، وأخذ يتعرض لأعمال الخليفة، ويصادر بعض ممتلكات أتباعه وخواصه في سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) فعزّ على القائم بأمر الله هذا الفعل وساءه ما جرى من

---

[7]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ) ص١٠١.

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٨٥، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ) ص١١٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٧.

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٨؛ وانظر: ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٥٦٨.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٨٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ) ص١١٣.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ) ص١١٣.

[5]. أبو أحمد بن عبد الواحد بن الخضر النهاوندي: مسؤول سلجوقي دخل في خدمة السلاطين وتولى لهم منصب العميد في بغداد في سنة (٤٥٣–٤٥٤هـ) وعزل عنها ثم عاد إلى هذا المنصب سنة (٤٥٦هـ) وعزل مرة ثانية في (٤٥٧هـ) وكان يبدر منه سوء معاملة للخليفة وحاشيته فيقدم على مصادرته والتدخل في شؤونه، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ)، ص١١٦–١١٧.

انتهاك لهيبته فاستدعاه إلى دار الخلافة، وعاتبه الوزير فخر الدولـة بن جهير، وأغلظ لـه فـي الكلام، فما كان من النهاوندي إلاَّ أن أرسل إلى الخليفة يشكو من ابن جهير ويحرضـه عليـه بالقول: إن السلطان غير مؤثر له، ولكن القائم بأمر الله رفض سعايته وردَّ في جوابه قـائلاً "..إنما له أعداء يتحرضون عليه"، وإزاء ذلـك أقدم النهـاوندي علـى مصـادرة إقطاعـات الوزيـر، وأوقع الهوان بأصحابه، وبعد فترة وجيزة صلح الحـال بيـن الطرفيـن، فـأعيد إلـى الوزيـر ابـن جهير ما صُودر منه من أموال[١].

واللافت للنظر أنَّ العلاقات العباسية-السلجوقية مرت بفترة هـدوءٍ نسبي طيلـة السـنوات الممتدة ما بيـن (٤٥٨-٤٦٥هـ/١٠٦٥-١٠٧٢م) حـرص فيهـا الطرفـان علـى تعزيـز صـلات التعاون وتقوية الروابط، ويبدو أنَّ انشغال السلاجقة بفتوحاتهم بعيداً عن بغداد كان له أثـراً فـي تحسن العلاقة مع الخلفاء. فقد كان ألب أرسلان يتابع فتوحاته في إقليم خـوارزم مـن بـلاد مـا وراء النهر[٢]، وفي سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) سار إلى كرمان للقضاء علـى تمرد أخيـه "قـاروت بك هناك"[٣]، وفي سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) قصـد ألـب أرسـلان دخـول بـلاد الـلان[٤]، وتراجـع عن ذلك نظراً لظروف الشتاء[٥]، أمَّا في سـنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) فقد انتصـر السـلاجقة علـى جمـوع الـروم البيزنطيين في معركة ملاذكرد الشهيرة[٦]، وهذه الانتصارات المتتالية قوّت في

---

[١]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١١٦-١١٧.

[٢]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٣٠-١٣١.

[٣]. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٤١، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٣٤، قاروت بك، أخ السلطان ألب أرسلان لما بلغه وفاة أخيه ثار يطالب بالحكم السلجوقي فالتقى مع ابن أخيه ملكشاة بقرب همذان وكان العسكر إلى جانبه، ولكن الموقف تغير لصالح ملكشاة فانهزم قاروت وقتل خنقاً على يد ملكشاة، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٦.

[٤]. اللان: بلاد واسعة في أطراف أرمينية قرب باب الأبواب مجاور لبلاد الخزر، وانظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٨.

[٥]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٣٦.

[٦]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٠، ؛ وانظر: أحداث المعركة في ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٢٣-١٢٥؛ الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٣٦-٥٤.

محصلتها النهائية، مركز السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية على حدٍ سواء.

ومن مظاهر حرص السلاجقة والعباسيين على بقاء العلاقة حسنة بينهما أنه في سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م) بعث الخليفة القائم بأمر الله بتهنئة إلى السلطان ألب أرسلان بمناسبة عودته سالماً من غزوة له مع الروم وزيَّن هذه التهنئة بالخلع والهدايا التي أرسلها مع وزيره فخر الدولة بن جهير[1] الذي كان يقوم بمهامه في البلاط السلجوقي بكلّ مهارة ونجاح، ومن الواضح أنَّ الخليفة كان يخاف من أيِّ تغير قد يطرأ على علاقته بالسلطنة حتى أنه عندما امتنع العالم أبو اسحاق الشيرازي[2] عن التدريس في المدرسة النظامية في بغداد سنة (٤٥٩-١٠٦٦م) عاتبه الخليفة قائلاً: "عرفت حالنا مع الأعاجم وأخاف أن ينسب ذلك إليَّ ..."[3] ولما وصلت هذا العام أرسلان خاتون إلى بغداد أوفد الخليفة وزيره فخر الدولة بن جهير ليتقدم على رأس مستقبليها احتفاءً بمقدمها وإكراماً للسلاجقة[4].

أمّا السلاجقة فإنه كان لانتصارهم على الروم في ملاذكرد أهمية كبرى في وقف الزحف البيزنطي تجاه البلاد الإسلامية وبالتالي ارتفع قدرهم وعظمت منزلتهم عند خلفاء بني العباس، ومن المؤكد أنَّ إرسال تاج ملك الروم والصليب إلى بغداد[5] كدليل على النصر، إنما يعكس رغبة السلطنة في تدعيم علاقتها مع الخلافة، وعدَّ السلاجقة أن ما يحرزونه من انتصارات ما هو إلاّ نصر للإسلام والدولة العباسية، وربما أن الاستقرار السياسي الذي ساد بين السلطان

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٩٧.

[2]. أبو اسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي، من أقدر علماء عصره وأغزرهم علماً، ارتحل إليه طلبة العلم من كلّ حدب وصوب ليأخذوا منه العلم والفتاوى، ولد بفيروز أباد وهي بليدة بفارس سنة (٣٩٣هـ/١٠٠٢م) ونشأ بها ثم درّس في المدرسة النظامية بعد تمنع شديد، وكان فقير الحال فلم يجد أحياناً قوت يومه، ومن صفاته طلاقة الوجه، وكثرة البسط، وكان حسن المجلس، دائم البشر، (ت٤٧٦هـ/١٠٨٣م) انظر: ترجمته، ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٨-٢٢٩؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢١٥-٢٤٦؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٣٢٣.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٣٥.

[4]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٥ب؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٠؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٥، البنداري، دولة السلاجقة، ص٣٤.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٥٢.

ألب ارسلان والخليفة القائم بأمر الله إنما يعود إلى الإنجازات التي حققها السلطان خلال عشر سنوات من البعد عن دار الخلافة.

ولما مات ألب أرسلان سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) جلس الوزير فخر الدولة بن جهير للعزاء به في بغداد[١]، وتولى الحكم بعده ابنه وولي عهده "ملكشاة" (٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٣-١٠٩٢م) فبادر القائم بأمر الله بإرسال الخلع والهدايا إليه، وكتب له عهداً بتفويضه أمور السلطنة وقد قرأه على الحضور وزيره فخر الدولة بن جهير[٢].

وبالرغم من صفو العلاقات بين الطرفين إلاَّ أنَّ الخليفة بقي يحسب حساباً للقوة السلجوقية، ويتخوف مما وصلوا إليه من عظمة ونفوذ، ولذا فإنه لما وصل مؤيد الملك ابن الوزير نظام الملك إلى بغداد في سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) وصادف أن انشغل الخليفة القائم عن استقباله -كما أوردته الرواية- غضب المؤيد ووصل ذلك إلى الخليفة، ولتلافي غضبه أرسل إليه من يعتذر عنه لعدم خروجه إلى لقائه، ولم يكتفِ بذلك بل بعث وزيره فخر الدولة في موكب ضخم إلى داره لتهنئته بالسلامة[٣]، وتزامن في هذا الوقت وصول "عميد الدولة بن جهير" إلى بغداد عائداً من سفرةٍ له فأمر الخليفة بعدم استقباله إسوة بنظيره السلجوقي[٤] في محاولة منه لإظهار ابن وزيره وابن نظام الملك "المؤيد" يعاملان بنفس المستوى والطريقة.

لعب وزراء بني جهير دوراً مميزاً وناجحاً في تدعيم العلاقات العباسية-السلجوقية في عهد الخليفة القائم بأمر الله، وكانوا خير سفراء لبلدهم في البلاط السلطاني، وبلغ فخر الدولة مكانة مرموقة عند سلاطينهم، حتى وصفه العماد الأصفهاني في إحدى سفراته لديهم قائلاً: "وتصدَّى للسيادة، وترشحَّ للزيادة، وتوشَّح بالسعادة، وجمَّل الديوان، ودَّونَ الجميل، وكمَّلَ الحواصل، وحصَّل التكميل ..." [٥].

---

[١]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٥؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٣.
[٢]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٩.
[٣]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٧؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٥١.
[٤]. البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٢؛ وانظر: إقبال، الوزارة في عهد السلاجقة، ص١٨٩.
[٥]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٣٠أ.

كما ساهم فخر الدولة أيضاً في تثبيت حكم السلطان ملكشاة، فلما مات ألب أرسلان ثار أخوه قاروت بك مطالباً بأحقيته في العرش السلجوقي[1]، وبعث إلى الخليفة القائم يبذل له مالاً من أجل منحه تفويض يخوّله ممارسة سلطاته وإعلان البيعة له وذكر الخطبة باسمه بدلاً من أخيه، ولكنّ فخر الدولة أشار على الخليفة بالرفض والبقاء إلى جانب ملكشاة، ولذا فإنه عاتب السلاجقة لما رغب سلطانهم بعزله عن وزارته في سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م) وقال: "بالأمس بعث قاروت بك إلى القائم يبذل ثلاثمائة ألف دينار ليوليه الأمر، فأشرت بأن لا توليه خدمة للسلطان ويكون جزائي هذا التهديد ... "[2].

امّا عميد الدولة فيبدو أنه كان أقدر من والده -من وجهة نظر العباسيين- على تقوية الروابط العباسية وتمتينها مع السلطنة السلجوقية، على اعتبار أنه من أكثر المقربين للوزير نظام الملك بعد المصاهرة التي جمعت بينهما، لذلك نجد الخلفاء قد اعتمدوا عليه كثيراً في تلك المهمة إذ كان القائم بأمر الله والمقتدي بأمر الله يرسلانه إلى السلاطين وغالباً ما ينجح[3]، لمهارته ودرايته في أمور الحكم والسياسة والإدارة، وحسن عرضه وبسطه للأمور والتعامل معها، وقد وصف هذا الشاعر صرّدر[4]: [المديد]

محسنٌ بالرأي ضرباً وطعناً ... يُخجل البيضَ ويُخزي الخِراصا
ساحر الألفاظ لو شاء ظبياً ... أسر الوحش بهنّ اقتناصا

وهذان البيتان من الشعر وردا في قصيدة نظمها الشاعر صردر عند توجه عميد الدولة في رسالة من الخليفة إلى السلطان سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) ويشيد فيهما بجهود ابن جهير ويتابع الشاعر المذكور وصف مقدرة عميد الدولة في حلّ الأمور ومكانته العالية فيقول[5]:

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٤٥؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٦٣.

(2). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٧.

(3). ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٦.

(4). صرّدر، ديوانه، ص٧٥.

(5). صرّدر، ديوانه، ص٧٦.

[المديد]

أيـن تبغـي؟ قـد زحَمتَ الثُّريـا فـي مَداهـا وانتعلـتَ النَّشـاصا

غايـةٌ لـو ذو جَنـاحٍ إليهـا طـار لا عتـاصَت عليـه اعتياصـا

أنتـم آلُ "جَهيـر" عديـدٌ لا رأتْ فيـه البنـانُ انتقاصـا

فهذا عميد الدولة يزاحم النجوم في علاها ويناطح السحب في سمائها كنايةً عن المنزلة الرفيعة التي لولاها لما أختصه الخليفة دون سواه للقيام بمهمات لا يقدر عليها من هو دونه.

وقد سارع عميد الدولة إلى تدعيم أركان الخلافة العباسية إذا ما مُسَّت أو تعرضت إلى ما يهددها. فمثلاً في سنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) أرسله القائم بأمر الله نائباً عنه إلى السلطان ألب أرسلان في الري ليتعرَّف خبره، وحمل معه شتّى أصناف الهدايا للسلطان ولنظام الملك[1]، ونال في هذه السفرة ثقة السلاجقة، وكَسَبَ تأييد وزيرهم، فلما وجد منه نظام الملك ما ينمُ عن ذكائه وفطنته وحسن سياسته زوَّجه من ابنته زبيدة -كما ذكرنا سابقاً- وكان من الطبيعي أن ينعكس أثر علاقة المصاهرة الجهيرية -النظامية على العلاقات السياسية بين السلاجقة والعباسيين.

ولما عاد إلى بغداد -على إثر ما أحرزه من نجاح- استقبله الشاعر صرّدر بقصيدة هنأه فيها على ما وصل إليه بفضل فصاحة لسانه وقدرته البلاغية التي استقطبت إعجاب السلاجقة[2]:[الطويل]

وصُغتَ مـن الذهـنِ المصفّى بَدائِعـاً أقَـرط أسـماعَ الـرُّواةِ بهـا شَـذْرا

فلا تحسَبَنَّ الدُّرَّ فـي البحـر وحـدَه فقد تُخرج الأفـواهُ مـن لفظهـا دُرًّا

وحول جهوده المبذولة في خدمة الدولة قال فيه[3]: [الطويل]

فقـد جنَـح الأعـداءُ للسّـلم رغبـةً إليك، وأيّ النـاس لا يعشـق البـرّا؟

فأمـا سَـقام الحاسـدين فمـا لـه شـفاءٌ وقـد كـادتُهم نِعَـمٌ تَـتْرَى

تسـاوت يـداك بسـطةً وسـماحةً فلم تفخر اليمنى بفضل على اليسرى

ومعتـركٌ للقـوم مـزّقتَ جمعَـه بحـدِّ لسـانٍ يُحسن الكـرَّ والفـرّا

---

(1). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٤١.

(2). صرّدر، ديوانه، ص٧٧.

(3). صرّدر، ديوانه، ص٧٨.

وبعد نجاحه في مهمته السابقة لدى السلاجقة، عاود ابن جهير الكرة في سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م) وذلك عندما انتدبه القائم بأمر الله من أجل تمتين علاقته مع السلاجقة فقد خرج وكيلاً ونائباً عن الأمير عدة الدين -ابن الخليفة القائم بأمر الله- في الزواج من ابنة السلطان(١)، وكانت هذه المصاهرة بناءً على رغبة السلاجقة الذين طلبوا من عميد الدولة التظاهر بأن العباسيين هم الراغبون بذلك ورغم ضعف مؤسسة الخلافة إلا أن عميد الدولة أبى إلاّ رفعتها وكان شديد الحرص على كرامة خليفته فأعلن أمام الحضور قائلاً: "قد قبلت هذا النكاح ورضيت به عن الأمير عدة الدين موكلي، لمّا تواصلت رغبات السلطان إلى أمير المؤمنين في هذا ..." (٢) .

ووصف صرّدرّ هذا الزواج وبيّن نتائجه الإيجابية النافعة التي عادت على الدولتين ومدحه بهذا الانجاز المشرّف فقال(٣): [البسيط]

وفي "خراسان قد شيدتْ مآثره ... أرّخها صيتها تاريخَ ميلادِ
بينَ الخليفةِ والمَلْكِ المطيعِ له ... أبرمتَ وصلةَ أولادٍ لأولادِ
شمسٌ وبدرٌ لويتَ العقدَ بينهما ... لولا الشريعةُ لم يوثَق بإشهادِ
فليس كالصِّهر في سهلٍ ولا جبلٍ ... وليس كالحمو في حَضَرٍ ولا بادِ
فياله شرفاً أحرزَتَ غايَتَه ... فلم يَدع فضلةً فيه لمرتادِ
وما بلوغك في العلياء آخرها ... بمانعٍ كَرَّةَ المستأنِف البادي

كما يصف الأصفهاني جهود عميد الدولة في هذه السفرة ويقول: "أحكم عنده -يعني عند السلطان- قواعد الأمور في العواقب وأسسها"(٤) إضافة إلى ذلك نال عميد الدولة احترام السلاجقة وتقديرهم، وليسَ أدلُّ على ذلك من الحفاوة والتكريم اللذين لقيهما في أثناء طريق

---

(١). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٤٠أ؛ وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٠؛ ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٥٧ب، ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢، البنداري، دولة السلاجقة، ص٤٥.

(٢). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٥٧.

(٣). صرّدر، ديوانه، ص١٠٩-١١٠.

(٤). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٤٦أ.

عودته من خراسان حيث لقيه ملكشاة ولي عهد ألب أرسلان في أصفهان، واستقبله أحسن استقبال، كما ألبسه الخلع وأغدق عليه الهدايا والأموال[1]، فغدا عميد الدولة بعد هذا النجاح من المقربين للخليفة وأهم مستشاريه وهذا ما يؤكده صرّدر[2]:[البسيط]

يا مَنْ يشاوَرُ في قربٍ وفي بُعْدِ — ومَنْ يُعَدُّ لإصلاحٍ وإفسادِ
إن الامامَ مذ آسترعاك دولتَهُ — غَنِيٌّ برأيك عن تجهيز أجناد

وقال أيضاً[3]: [الطويل]

رأيتك طوداً للخليفة شامخاً — وسيفاً على شانيه يختصر العمرا
إذا عَرضتْ حَوجاءُ كنت قضاءَها — وإن طرَقتْ غمّاءُ سَدّ بك الثغرا
دعاك لأمرٍ ليس يُحكم فتلَه — سواك وهِجّيراك أن تُبرمَ الأمرا

وحظي عميد الدولة بتقدير الخليفة القائم بأمر الله من جرّاء سفارته الناجحة هذه، الأمرالذي جعله يعاود إيفاده مرة أخرى إلى السلاجقة في السنة التالية (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) وعلى العادة التي جرت حمل معه ألطاف الهدايا والخلع ومرسوم التفويض الذي عزم على تسليمه للسلطان الجديد "ملكشاة"[4]، وكانت العلاقة بين والده فخر الدولة وحماه الوزير نظام الملك قد ساءت في هذا العام فجدّ عميد الدولة في إصلاحها وتوطيد دعائمها ونجح في ذلك[5].

ولم تقتصر جهود عميد الدولة على خدمة الخلافة العباسية بل تعدّتها إلى السلاجقة إذ إنه ساهم في مصالحة السلطان ملكشاة مع "شمس الملك تكين بن طفقاج" صاحب بلاد ما وراء النهر، وأقنعه بالصلح وقد نسب السلاجقة هذا الصلح إلى عميد الدولة فكان ملكشاة يقول: "لولا

---

[1]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٤٥ب؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١١؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٤٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١١٢.
[2]. صرّدر، ديوانه، ص١٠٩.
[3]. صرّدر، ديوانه، ص٨٠.
[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٦٨.
[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩؛ وانظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٢٨.

عميد الدولة ما صالحته حتى أنزل على سمرقند"[1] وهذا يبين لنا أن كلمته كانت مسموعة ولها تقديرها عند السلاجقة.

ولما بدا للخليفة ما بلغه عميد الدولة من مكانه وإجلال عند ملكشاة أمر بخروج جميع أعيان رجال البلاط العباسي لاستقباله والاحتفال بمقدمه، ثم بعث إليه رسالة يثني فيها عليه، مبدياً إعجاباً وتقديراً لجهوده وكفاءته وحرصه على مصلحة دولته، فقويت نفس عميد الدولة وانشرح صدره وزادت رفعته وعلا مقامه[2].

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أنَّ عميد الدولة قد قدّم هذه الخدمات للخلافة قبل تسلّمه وزراتها، وربما كان لديه اقتناع تام بأن أي نجاح يحرزه لصالح الخلفاء ما هو إلاَّ نجاح له ولأسرته قبل كل شيء، وبذلك تمكّن من توثيق أواصر المحبة والتعاون والتفاهم بين الخلافة والسلطنة بعد أن حصل على ثقة الطرفين فيه.

- المطلب الثاني: العلاقات العباسية-السلجوقية زمن الخليفة المقتدي بأمر الله وأثر بني جهير فيها.

اتصفت العلاقات العباسية-السلجوقية زمن المقتدي بأمر الله بعدم الثبات وإنما كانت تتراوح بين الصداقة والعداوة، فلا صداقة دائمة ولا عداوة مستمرة، وإنما تفرضها المصالح التي قد تجبر الطرفين على الاتفاق والاتصال المؤقت.

بدأت العلاقات بطابع يغلب عليه الودّ والتفاهم وذلك عندما أرسل المقتدي بأمر الله عميد الدولة بن جهير إلى السلطان ملكشاة في سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) بقصد أخذ البيعة وتقديم الطاعة له من السلاجقة بعد تسلمه الخلافة العباسية[3]، وفي السنة التالية أرسل الخليفة المذكور

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث، (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٢.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٢.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٦؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢١؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٤، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣١، ص٢٩.

عميد الدولة بن جهير مرة أخرى إلى السلطان، وذلك للشكوى من تصرفـات العميد أبـو نصـر عبد الواحد بن مطهر البزاني[1] الذي بدأ منذ وصوله إلى بغداد سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م) بمصادرة أموال الخليفة وإقطاعات خوّاصة[2]، وقد نجح ابن جهير في مهمته السابقة فقرّبه الخليفة منه وضمّه إلى خواصه، وخلع عليه وعلى والده فخر الدولة وخاطبهما بكلام طيب فيه نفوسهما[3].

وقد ظهر لوزراء بني جهير في هذه المرحلة أثرٌ واضح في تحديد نوعية العلاقات التي ربطت بين الخليفة والسلطان، ومثال ذلك أنّ الأمور قد ساءت بين الوزير فخر الدولة ونظيره السلجوقي نظام الملك وذهاب الأخير إلى التهديد بعزل ابن جهير وطرده عن منصبه وذلك لأسباب ذاتية محتجاً فيها أن ابن جهير يسيء في معاملة سعد الدولة الكوهرائين وهو متولي منصب الشحنة السلطانية في بغداد، وذلك في أواخر سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م) [4]، ومن الطبيعي أن ينعكس أثر ذلك الخلاف على كلٍّ من الخليفة والسلطان، ولما كان فخر الدولة مدركاً لضعف سلطة المقتدي بأمر الله وكان عالماً بأنه غير قادر على وضع حدٍّ لتدخل السلاجقة في شؤون خلافته، فضلَّ الاتصال مباشرة بالسلطان لتدارك غضب وزيره[5]، وسرعان ما طابت نفس فخر الدولة عندما علم أن نظام الملك لم يعزله وإنما كان يقصد تهديده بالعزل، وفي هذا الوقت كتب السلطان إلى نائبه أبي نصر البزاني شحنة بغداد يأمره بالإفراج عن إقطاعات الخليفة وأمواله[6].

---

[1]. أبو نصر: عبد الواحد المطهر بن محمد، من أهل أصبهان، قدم بغداد عميداً على العراق من قبل السلطان ألب أرسلان سنة (٤٦١هـ) توفي في البصرة سنة (٤٧٣هـ) وذكر بأنه أمر بأن يتصدق عنه بألفي دينار، وكان شخصاً جليلاً بارعاً، فاضلاً، جامعاً للمحاسن كاملاً، انظر ترجمته، ابن النجار، ذيل تاريخ بغداد، ج١، ص٣٠٢.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٧.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧١.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٧.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٧.

[6]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٧.

وتكرر الموقف من جديد في سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) عندما نشب صراعٌ فكري بين الحنابلة أتباع الخليفة العباسي ووزيره فخر الدولة بن جهير من جهة وبين الشافعية أنصار الوزير نظام الملك الطوسي من جهة ثانية، وبعد تأزم الأوضاع -على ما سنتناوله بشيء من الإيضاح والتفسير لاحقاً- استنكر نظام الملك هذا الحادث ونسبه إلى فخر الدولة بن جهير ونقم عليه وعزله عن وزارته[1]، الأمر الذي جعل ابن جهير يسارع لإزالة هذا الجفاء مع السلاجقة حفاظاً على منصبه ومصلحته بالدرجة الأولى ومن ثمَّ رغبته في تحسين العلاقة بين الخلافة والسلطنة، فأرسل ولده عميد الدولة لهذه المهمة ولم يزل عميد الدولة يستصلح نظام الملك حتى أرضاه[2]، ونجح في تسوية هذه المسألة الطارئة.

وحرصاً على بقاء العلاقات جيدة بين بني جهير وزراء الخلافة ونظام الملك وزير السلطنة، سارع فخر الدولة وولده العميد في الخروج على رأس مستقبلي مؤيد الملك ابن الوزير نظام الملك -علماً بأن زيارات المؤيد كانت كثيرة ومتعددة إلى بغداد- حين وصل إلى بغداد سنة (٤٧٠-١٠٧٨م) وذلك احتراماً وتقديراً لمكانة والده[3]، وصادف هذا العام نفسه وفاة اخته زوجة عميد الدولة فدفنت في دار الوزارة، ولم يكن هذا أمراً معتاداً عليه وإنما كان ذلك إكراماً لوالدها أيضاً[4].

ثم ما لبثت الأمور أن تأزّمت في سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م) ومرَّت في مرحلة حرجة بين الخليفة المقتدي بأمر الله والسلطان ملكشاة، على إثر وصول الشحنة سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد فتمادى وضرب الطبول في أوقات الصلوات الثلاث الفجر والمغرب والعشاء، ومعه

---

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨١.

(٢). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٨ب، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ١٢٦، البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٥، وانظر: ابن خلدون، العبر، مج٣، ق٥، ص٤٧٦.

(٣). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٤؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩١.

(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٥؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٣.

شكوى من الوزير فخر الدولة ومطالبة بعزله بأمرٍ من نظام الملك، وحاول الاجتماع مع الخليفة دون حضور وزيره ابن جهير فلما رفض الخليفة توجّه الشحنة إلى دار المملكة وجمع القضاة والشهود، ليشهدوا معه أن الخليفة منعه من أداء مهمته(1)، وقد استجاب الخليفة أمام اصرار سعد الدولة إلى مطالبه خوفا من نقمة السلاجقة(2)، وبدا وزراء الخليفة ضعفاء بلا حول ولا طول، الأمر الذي جعل عميد الدولة يعيد النظر في الأمور ويقلبّها، فوجد أن انقطاع صلة النسب بعد وفاة زوجته زبيدة ابنة نظام الملك ستؤثر على علاقته مع السلاجقة، فكان عليه -كما يرى- إعادة جبر ما انكسر فجدّد عرى النسب والمصاهرة مع نظام الملك، وذلك في سنة (٤٧١هـ/١٠٧٨م)(3) وسرعان ما ظهرت النتيجة الإيجابية بعودة بني جهير إلى منصبهم الوزاري لدى العباسيين بعد دعمهم من قبل أصهارهم السلاجقة.

وإزاء تدخل السلاجقة المستمر في تعيين من يريدون من رجالات البلاط العباسي وعزلهم وفق ما تقتضيه مصالحهم، وجد الخليفة نفسه مسلوب السلطة، فاتر العزيمة، منهك القوى، لا يستطيع اتخاذ قراراته بعيداً عن السلطان رغب في تعزيز موقفه وتحسين وضعه متخذاً الأسلوب الذي اعتمده بنو جهير من قبله للحفاظ على كيانهم وهو أسلوب المصاهرة والنسب، وكان من الطبيعي أن يهديه تفكيره إلى ذلك فالمصاهرة تقوي روابط المصلحة وبالتالي فإنها أقرب لتحقيق ما يصبو إليه من أهداف.

وعلى ذلك انتدب الخليفة وزيره السابق فخر الدولة بن جهير في الخروج لخطبة ابنة السلطان ملكشاة وكان اسمها ملك ماه(4) حيث غادر السفير بغداد سنة (٤٧٤هـ/١٠٨٠م) قاصداً

---

(1). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٥.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٠٠.

(3). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٢، وانظر: الأصفهاني، ج١، قسم العراق، ص٩٠، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٩.

(4). ابن الساعي، علي بن أنجب بن تاج الدين الخازن (ت٦٧٤هـ-١٢٧٥م) نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، مصر، القاهرة، دت، ص١٠٩. وسيشار إليه، ابن الساعي، نساء الخلفاء.

السلاجقة لاتمام هذا الزواج[1]، ولما وصل ابن جهير إلى أصفهان صادف ذلك وفاة ابن السلطان ملكشاة، واسمه داود فاضطر فخر الدولة الانتظار مدة من الزمن ثم تقدم في مخاطبة تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاة في أمر الوصلة، ولكنها رفضت في بداية الأمر محتجة ببذل أموالٍ كثيرة[2].

ومن الشروط الأخرى التي اشترطتها الخاتون على الوزير فخر الدولة بن جهير مقابل موافقتها على الزواج أن يحضر عقد الزواج أم الخليفة وعمته وغيرهن ممن يجري مجارهن من الرفعة والمكانة، كما تحضر خواتين غزنة، وسمرقند، وخراسان ووجوه البلاد[3]، وتمكّن فخر الدولة بن جهير من أخذ موافقة الخاتون، واجتاز العقبات والعراقيل التي وضعتها أمام إتمام هذا الزواج، وقفل عائداً يزفّ الخبر إلى بغداد في سنة (٤٧٥هـ/١٠٨١م).

وهكذا فإن دور بني جهير في هذه المرحلة قد تأثر إلى حدٍّ كبير بطبيعة العلاقات العباسية – السلجوقية، ومن قراءتنا لهذه العلاقة فإننا نذهب إلى أنّ فخر الدولة بن جهير قد حاز على ثقة السلاجقة –عوضاً عن ثقة الخلفاء–، وذلك من خلال سفاراته إلى البلاط السلجوقي، وتسوية المسائل المهددة التي كانت تعكّر صفو العلاقات بين الطرفين، ولكنها من ناحية ثانية أكدت قدرة بني جهير الإدارية وحسن تدبيرهم للأمور، الأمر الذي جعل السلاجقة يبتهلون فرصة خلافهم مع الخلافة حين عُزل عميد الدولة بن جهير عن وزارة المقتدي بأمر الله سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م) ودعوهم إلى ديارهم حيث كان لهم دور بارز في معارك ديار بكر التي خاضها السلاجقة.

تكدَّرت العلاقة العباسية–السلجوقية على اثر خروج بني جهير من بغداد، وتوجههم إلى أصفهان عاصمة السلطان ملكشاة "وانحرف الخليفة عن نظام الملك لما فعله من الجميل مع بني

---

[1]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٦٦أ، وانظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٢، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٣٠، ابن الساعي، نساء الخلفاء، ص١٠٩.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٢.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢١٤.
١٢٩

جهير"[1] على اعتبار أن إيواءهم يعدُّ تحدّياً لسلطة الخليفة المقتدي بأمر الله، ونلمس في هذه المرحلة مدى الأهمية التي أولاها الخليفة المقتدي لتركان خاتون زوجة السلطان ملكشاة، خاصة والأمور داخل السلطنة قد غدت تحت أمرها ونفوذها إذ أن الخليفة عندما أراد معاتبة السلاجقة على ما أبدوه من إيواء واهتمام ببني جهير وجه رسالة إلى تركان خاتون ولم يبعثها إلى السلطان أو إلى وزيره المتنفذ نظام الملك ثم أنه خاطبها فيها بألقاب عظيمة القدر تدلُّ على مكانتها ومنها: "الدار العالية، الشاهنشاهية السلطانية، الملكية الجلالية، الخاتونية ملكة نساء العالم ..." [2].

ولعلَّ الخليفة قد أدرك تأزّم الأوضاع بين تركان خاتون الداعية إلى ولاية ابنها محمود للعهد وبين خصمها نظام الملك حليف بني جهير وصهرهم الذي بدوره كان يميل إلى بركياروق ويسعى في جعله الوريث الشرعي في الحكم بعد وفاة والده ملكشاة، ومن هذا المنطلق حاول المقتدي بأمر الله استقطاب موافقة تركان خاتون في طرد المتمردين من بني جهير، وحضها على ذلك مستغلاً العداوة ما بينها وبين نظام الملك ولكن أهداف الخليفة باءت بالفشل أمام نفوذ السلطان ووزيره وانصارهم من بني جهير، حيث أبقى السلاجقة عليهم وتحالفوا معهم في حروبهم في ديار بكر -كما أسلفنا سابقاً-.

ودخلت العلاقات في طور من التحسن في سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) بعد مسير السلطان ملكشاة إلى بغداد بقصد إيصال ابنته ملك ماه إلى زوجها المقتدي بأمر الله[3]، وبذلك حصل تقارب ومودة بين الخليفة والسلطان، ومع هذا ظلَّ الخليفة مسلوب النفوذ والسلطة، ويصف ابن الهبارية حالة الضعف والهزل التي كان عليها المقتدي بأمر الله فيقول[4] :

[المتقارب]

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث، (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٢٥.

[2]. ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، ورقة ١٦٤ب.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٥٩؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٥؛ البنداري، دولة السلاجقة، ص٧٩.

[4]. البنداري، دولة السلاجقة، ص٦٧.

المُقتـــدي المســـكين ليـــس لـــه	عقـــــلٌ ولا رأيٌ ولا حبَـــــس
هـــــذا وكهرائيـــــن شـــــحنته	كـــالكلب خــبٌ بــاردٌ نمـــسُ
وابـــو شـــجاع فـــي وزارتـــه	كـــالخرس لا بـــل دونــه الخـــرس
أبنـــي جهـــير ارتجـــى وهـــم	بـــالأمس أقـــربُ ســـوقةٌ غبـــس

ونحن لا نتفق مع ما أورده ابن خلّكان حين قال: "ان السلطان ملكشاة دخل بغداد على دفعتين وهي من جملة بلاده التي تحتوي عليها مملكته، وليس للخليفة فيها سوى الاسم"[1] لأن هذا القول لا ينطبق على جميع مدة خلافة المقتدي بأمر اللــه، وإنما مرّت أوقات استعاد فيها الخليفة شيئاً من نفوذه فمثلاً؛ عندما أعمل الجند السلجوقي النهب والسلب والخراب في بغداد، انزعج الخليفة وأمر بطرد هؤلاء الجند خارج حريم دار الخلافة مما اضطرهم النزول بدار المملكة[2]، والمسألة التي تلفت النظر، وتسترعي الانتباه هي طول الفترة الزمنية بين خطبة الخليفة المقتدي بأمر الله لملك ماه بنت السلطان ملكشاة في سنة (٤٧٥هـ/١٠٨٢م) وإتمام الزواج في أواخر سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) ولعل انشغال السلطان ملكشاة بفتوحاته وتوسعاته في بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام طيلة هذه الفترة حال دون إقدامه على إتمام هذا الزواج، وقد يكون لتوتر العلاقات بينه وبين الخلافة بسبب إيواء السلاجقة لبني جهير الخارجين عن طاعة الخليفة أثر في ذلك.

بدأت الأوضاع تسوء تدريجيا بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية سنة (٤٨٢هـ/١٠٨٩م) وذلك بسبب سوء التفاهم الذي حصل بين الخليفة المقتدي بأمر الله وزوجته ملك ماه بنت السلطان ملكشاة، وكانت قد أكثرت الشكاية إلى أبيها من إعراض الخليفة عنها[3]، فنقم السلطان على الخليفة ورغب في الانتقام منه ولاسيما بعد وفاة ابنته –التي غادرت

---

[1]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٨٨.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٧٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٧.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٨١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٠، السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٣٢٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٤.

بغداد مغاضبة للخليفة– عند وصولها إلى أصفهان(١).

وأقدم ملكشاة على التدخل في أمور الدولة ووصل هذا التدخل إلى حدّ جعل السلاجقة يحاولون إجبار الخليفة على تغيير ولي عهده الأمير المستظهر بالله وإبداله بابنه الأصغر جعفر ابن بنت السلطان ملكشاة(٢)، وذلك لضمان ولاء الخلفاء لهم عن طريق حفيدٍ لهم يكون من صلبهم(٣)، وفي رأينا أنّ الأسباب وراء ذلك تتمثل في نتائجها على المدى البعيد، وذلك أن قواعد الترك في بلاد أواسط آسيا الصغرى تقضي أنّ ابن البنت هو الوريث للسلطة، وبذلك فإن حفيد ملكشاة سيكون مؤهلاً للخلافة ومن ثم للسلطنة باعتباره حفيد ملشكاة ولعلّ السلاجقة كانوا يهدفون من وراء ذلك إلى توحيد مؤسستي الخلافة والسلطنة في آن واحد.

ولما حاول المقتدي بأمر الله التملّص من مطالب السلطان، أقدم ملكشاة على اتخاذ خطوة عُدّت الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات العباسية – السلجوقية، حيث سار ملكشاة إلى بغداد على حدّ قول ابن الجوزي "بنية غير مرضية، وذُكر عنه أنه أراد تشعيث أمر المقتدي"(٤) بينما يذكر السبكي أنّ السلطان كان عازماً على تغيير الخليفة(٥).

وما أن وصل ملكشاة إلى بغداد في أواخر سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م)، حتى أرسل إلى المقتدي بأمر الله يطالبه بالرحيل من بغداد وترك دار الخلافة إلى أي مكان آخر وقال له: "لابدّ أن تترك لي بغداد، وتذهب إلى أي بلد شئت"(٦)، وأمهله السلطان عشر أيام يستعد فيها لمغادرة بغداد، وقد أورد ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) أنّ عميد الدولة بن جهير توجّه إلى مقر السلطان بدار المملكة ببغداد لمقابلته فلم يظفر بذلك(٧)، ومع أنه لم يبين لنا سبب

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٨١؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٠.

(٢). ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٨٨؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٦٤.

(٣). Muir, W, the caliphate its Rise Decline and fall, London, 1924, p260.

(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٩.

(٥). السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣٤.

(٦). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٩؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٨، ابن الطقطقا، الفخري، ص٢١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٣٢.

(٧). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠٠.

مسير ابن جهير إلى ملكشاة إلاَّ أنه من المحتمل أن يكون من أجل الوساطة للخليفة والطلب من السلطان إعادة النظر فيما عزم عليه.

لم يبقَ على المدة التي حددها السلطان للخليفة المقتدي بأمر الله من أجل الجلاء عن بغداد سوى أيام معدودة حتى فارق ملكشاة الحياة[1]، وورد في سبب وفاته قولان؛ إحداهما: أنه نتيجة لمرض ألم به بعد عوده من رحلة صيد[2]، والثاني: أنه مات مسموماً بسبب خلٍّ تخلل به[3] وأياً كان سبب وفاته، فالمهم هو انتهاء حالة القلق والخوف التي عاشها الخليفة المقتدي بأمر الله، وبموته مات معه مخططه في إقصاء الخليفة عن بغداد.

وهكذا يتضح لنا أنَّ غياب الجهيريين عن عاصمة الخلافة بغداد، وتغيير وجهتهم نحو السلاجقة لم يحل دون قيام علاقات تفاهم وتعاون وتواصل بين الخلافة والسلطنة، كما أنه لم يكن سبباً في اختفاء ما استحكم بينهم من عداوة وبغضاء وإزالته، وبعد عودتهم إلى الوزارة في سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م) كان رأس هذه الأسرة وزعيمها فخر الدولة قد فارق الحياة، ولم يكن ولده عميد الدولة يقوى على التدخل في حسم النزاعات لصالح العباسيين، وإن كان وزيرهم، وقد يعود ذلك إلى أن عميد الدولة كان مدركاً لخطورة أي صدام له مع السلاجقة، إذ ستكون نتائجه خطرة عليه، لأن قوته مرهونة بقوة الخليفة ونفوذه، ولما كانت سلطة المقتدي بأمر الله هزيلة فقد فضّل البقاء بعيداً عن دائرة الصراع، وثانياً أن للسلاجقة فضلاً في إعادته لمنصبه الوزاري، بعد شفاعة نظام الملك له عند الخليفة، أثر مفارقته بغداد لما يزيد عن ثماني سنوات، وبهذا فهو مدين لهم وينتظر منه ردّ الجميل بمثله، وبعد وفاة صهره نظام الملك في سنة (٤٨٥هـ/١٠٩١م) فقد عميد الدولة سنداً قوياً فإذا لم يكن مرضياً عنه فإنه معرض للطرد وليس له بعد نظام الملك شفيع أو عضيد.

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٣٠.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣١٣، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٣، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٧٠.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣١٣، وانظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٥، ص٢٨٨.

وكان لموت ملكشاة أثره على البيت السلجوقي، فقد سارت السلطنة نحو الانقسامات السياسية بعد أن دبَّت النزاعات بين الورثة، وهذا جاء في صالح الخلافة إذ أن الخليفة قد أحسن استغلال عوامل الصراع بين هؤلاء الورثة، وهم أبناء ملكشاة الاربعة، بركياروق، ومحمد، ومحمود وسنجر، وعمّهم تتش بن ألب أرسلان، ومال المقتدي في بداية الأمر إلى رغبة تركان خاتون في تنصيب ابنها محمود سلطاناً خلفاً لوالده ملكشاة[1]، وقيل إن موافقته على سلطنة محمود جاءت بعد تردد ومماطلة وذكر بأنه قال للخاتون: "أنَّ ابنك طفلاً صغيراً لا يليق بالملك"[2].

ثم أن الخليفة لما رأى إجماع السلاجقة -بعد أن أطمعتهم الخاتون وأرضتهم بالأموال- على محمود بن ملكشاة[3]، وافق على عرض والدته تركان خاتون التي كانت قد تمكنت من ضبط الأمور في العاصمة أصفهان، واستمالت إليها جموع الجيوش السلجوقية، ومع ذلك فإنَّ الخليفة رفع يد السلطان الطفل، وبمعنى أوضح والدته وأعوانها من قيادة الجيش والسيطرة على الأموال[4] واقتصرت سلطات السلاجقة على الناحية الاسمية دون السلطة الفعلية، وحينما وافقت زوجة ملكشاة على ذلك أرسل الخليفة وزيره عميد الدولة لتهنئتها بسلطنة ولدها وتعزيتها في زوجها[5].

علم الخليفة المقتدي بأمر الله أن موقفه السابق سيثير النقمة عليه من قبل تركان خاتون، ولكنه لم يكن يتوقع أن خطراً آخر يتهدده من جهة السلاجقة، ممثلاً بشخص تتش بن ألب أرسلان الذي طمع هو الآخر بالحكم السلجوقي، وأسرع صوب الخليفة ليحصل منه على

---

[1]. الراوندي، راحة الصدور، ص٢١٤،وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٥.

[2]. الراوندي، راحة الصدور، ص٢١٥.

[3]. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص١٥٥.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠٠، وانظر: ابن الاثير، الكامل، ج٨، ص١٦٥؛ ابن العميد، تاريخ المسلمين، ص٢٦٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٨.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٣٠٠، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٤٨.

تفويض يؤهله ممارسة شؤون دولته بصفة شرعية(1).

ووصل في هذه الأثناء أيضاً إلى بغداد بركياروق وهو صاحب الحق الشرعي في حكم السلاجقة -إذ كان والده قد منحه ولاية العهد من بعده- وفي نيته مقابلة الخليفة المقتدي بأمر الله، وأخذ الموافقة منه على تفويضه أمور السلطنة، فانتدب الخليفة وزيره عميد الدولة بن جهير لاستقباله(2)، ويبدو أن بركياروق -إضافة إلى أنه صاحب الشرعية في حكم السلاجقة- كان أقوى المتنافسين المرشحين للسلطنة اثر انتصاره في المعركة التي نشبت بينه وبين جيش تركان خاتون(3)، لذلك نجد المقتدي بأمر الله يلبّي طلبه ويجهز له خلعاً تليق بمقامه ليلبسها يوم تفويضه بالسلطنة، ولكن الخليفة مات قبل أن يخلع على السلطان الجديد.

ومن اللافت للنظر هنا أن وفاة الخليفة المقتدي بأمر الله لم تكن أمراً طبيعياً، وإنما تورد المصادر أنه مات مسموماً على يد قهرمانته "شمس النهار"، التي كانت تتمتع بنفوذ كبير في دار الخلافة، فهي المنفِّذة لمهام الديوان العزيز(4)، وحين قدّمت الطبق المسموم للخليفة كان عنده جارية صغيرة اسمها "حسب" فلما مات -بعد تناوله الطعام مباشرة- حبست القهرمانة الجارية في غرفة ومنعتها من الصياح والعويل(5)، ثم أرسلت في طلب الوزير عميد الدولة بن جهير(6) وكان بينه وبينها عداوة، فلما حضر الوزير إلى القهرمانة أحضرت مصحفاً وطلبت من العميد أن تحلف له على صفاء النية له وكذلك يفعل هو فأجاب وكلٌ هذا دون أن يعلم بموت الخليفة المقتدي بعد، وما أن استظهرت منه اليمين حتى خاطبته قائلة: "أحسن الله

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج16، ص300، وانظر: ابن العميد، تاريخ المسلمين، ص267، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص148، العيني، عقد الجمان، خط، ج11، ورقة 116ب.

(2). ابن الأثير، الكامل، ج8، ص167، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص154؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج5، ص135.

(3). ابن الجوزي، المنتظم، ج17،57، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص170؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص150، ابن خلدون، العبر مج3، ق5، ص582.

(4). ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص41.

(5). ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص41.

(6). ابن الجوزي، المنتظم، ج17، ص10، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج8، ص170، ابن الساعي، الجامع المختصر، ج9، ص42.

عزاءك في أمير المؤمنين، فقد زممتُ أمر الدار فزمّ أنت أمر البلد ..."[1]، ثم أدخلته على ولي العهد المستظهر وقررت معه موت المقتدي بأمر الله.

ومن الواضح أنَّ القهرمانة كانت حريصة علي وقوف عميد الدولة إلى جانبها ومساندته لها، ومن خلال دراسة الوضع السياسي المضطرب السائد آنذاك والوقوف على الأحلاف الفردية التي ربطت بين شخصيات ذات أهمية ونفوذ عند كلٍّ من الخلافة والسلطنة ممثلاً ذلك بالتقارب الذي جمع الوزير نظام الملك وصهره عميد الدولة، وهما من الداعين إلى سلطنة بركياروق وبين تركان خاتون التي كان لها تأثيرها في الأحداث السياسية، وتطالب بتولية ولدها محمود سلطاناً للسلاجقة، فلا نستبعد أن يكون لزوجة السلطان ملكشاة تركان خاتون دور في التخلص من الخليفة في نفس اليوم الذي أحضر فيه مرسوم التفويض والخلع لتقديمها للسلطان بركياروق، أملاً منها في إعادة حكم السلطنة إلى ولدها محمود، بعد أن أدركت تصميم الخليفة على سلطنة بركياروق أمرٌ لا شك في وقوعه.

- المطلب الثالث: العلاقات العباسية -السلجوقية زمن الخليفة المستظهر بالله وأثر بني جهير فيها

عاشت الخلافة العباسية ظروفاً صعبة أبان وفاة المقتدي بأمر الله من جرّاء الصراعات المستحكمة بين أبناء ملكشاة، وهذا أثّر في أوضاعها الداخلية والخارجية، حتى أنَّ قهرمانة المقتدي قد اعتمدت على الوزير عميد الدولة بن جهير في ضبط أمور الخلافة بعد وفاة الخليفة.

دخل عميد الدولة على ولي العهد المستظهر بالله فبايعه وأخذ له البيعة من رجال البلاط العباسي، ثم توجَّه إلى السلطان السلجوقي بركياروق وحصَّلَ منه البيعة للخليفة المستظهر بالله[2]، وبعد ذلك أسند إليه الخليفة أمور دولته وقال له: "الأمور مفوضة إليك، والتعويل فيها

---

(1). ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٢.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢؛ وانظر: ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٠٦؛ ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٥٠؛ ابن الساعي، الجامع المختصر، ج٩، ص٤٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية ج١٢، ص١٥٠.

عليك فدبّرها بما تراه"[1] وأطلق يده في خزائن المال، يتصرف بهـا كيـف يشـاء بغير مراجعـة ولا محاسبة، وكان عميد الدولة قد طلب من الخليفة أن يبذل الأمـوال اللازمـة ليتمكـن بهـا من إرضاء جيش السـلاجقة وأخذ الطاعـة منهم ثـم إبعـادهم عن بغداد بعد أن أعمل بها النهب والخراب[2]، وبذلك حظي عميد الدولة بنفوذ ومكانـة سـامية عند الخليفـة المستظهر فـي بدايـة حكمه.

وبجلوس المستظهر بالله على كرسي الخلافة العباسية اقبل على إتمام خطـوة والـده إذ أنه أقر بركياروق على سلطنته وتقدم بإفاضة الخلع عليه [3]، وما أن علِمَ تتش حتى زاد غضبه وأرسل شحنة إلى بغداد في سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) بقصد أخذ البيعـة لـه وإسـقاطها عـن بركياروق[4]. أما هو فتوجّه إلى ابن أخيه بركيـاروق بجيش لمحاربتـه، والتقـى الخصمـان فـي معركة بالقرب من الري[5] أسفرت عن هزيمة تتش وموته وانتصار بركياروق الـذي لـم يهنـأ بهذا النصر طويلاً، لأن خليفة بغداد أعاد تفويض السـلطنة السـلجوقية إلـى أخيـه محمـد وكـان السبب في تغيير موقف المستظهر بالله هذا أن السلطان محمد اشتد أمـره، وعظـم شـأنه وانضـم إليه الجيش في بغداد وسار إليه سعد الدولة كوهرائين بعـد أن طلـب مـن الخليفـة قطـع الخطبـة عن المنابر لبركياروق وذكرها باسم السلطان محمد وأجيب إلى ذلك[6].

وظله زمـام الأمـور بيـد السـلطان محمـد حتـى سـنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) عندمـا أصبـح بركياروق سيد الموقف من جديد، فأرسل الخليفة وزيـره عميد الدولـة بـن جهير حـاملاً للخلـع المستظهرية قاصداً السلطان بركياروق لإعادة الخطبة باسمه واستبدالها باسم أخيه محمـد مقرونـاً باسم الخليفة في صلاة الجمعة، فاستغل بركياروق مقـدم ابـن جهير إليـه وقبـض عليـه وسـجنه

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٢.

[3]. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٧٥.

[4]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٥.

[5]. الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكة والخيرات، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص١١٦.

[6]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٦.

محتجاً بذلك على الأموال التي اختلسها العميد ووالده من بلاد الجزيرة الفراتية في اثناء ولايتهم عليها للسلاجقة[1]، وإن كان في هذه الحجّة شيء من الصواب فإنه لا يخفى علينا أنّ السلطان بعمله هذا كان يتعمد استفزاز الخليفة الذي قطع عنه عهد السلطنة برهة من الزمن وأعلنه لأخيه الأصغر محمد، كما هدف من ذلك أيضاً إلى إرسال إشارة إلى الخليفة يبين له فيها أنّ السلاجقة ما زالوا يملكون من النفوذ ما يخولّهم التدخل في شؤون الخلافة الداخلية.

ويبدو أن السلطان لم يكن مدركاً في هذا الوقت أن المستظهر بالله قد بدأ يستعيد شيئاً من نفوذه مستغلاً حالة الفرقة والنزاع التي نشبت بين صفوف الورثة السلاجقة، فعندما بلغ الخليفة ما حدث لوزيره عميد الدولة استشاط غضباً وزاد حنقاً على بركياروق ووجّه له خطاباً مشحوناً بالتهديد والوعيد وقال مخاطباً إياه: "فلا يغرّنك إمساكنا عن الفلتات، فوا حق السالف من الأباء المتقدمين بحكم ربّ السماء، لئن قصر في أن يعاد -يعني عميد الدولة- شاكراً وبالحباء موفوراً لنفعلنّ"[2] فلما بدا للسلطان غضب الخليفة أطلق سراح وزيره وقال معتذراً عمّا بدر منه: "إننا ثقلنا عليك كما يثقل الوالد على ولده لضرورات دعت"[3] ومع هذا لم يتركه يرحل حتى ألزمه بدفع مبلغ مئة وستين ألف دينار[4].

ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى أن السلطان السلجوقي بركياروق كان يتوسّم في عميد الدولة ابن جهير علامات الشجاعة والفطنة والذكاء والتمرس في شؤون الحرب والقتال، لذلك نجده يراسل جميع الأمراء العرب والسلاجقة يأمرهم بالمسير تحت قيادة عميد الدولة لمحاربة جموع الفرنجة الذين زادت هجماتهم على الدولة الإسلامية في سنة (٤٩١هـ/١٠٩٧م) وبات خطرهم يتهددها، إلاّ أنّ هذه العزيمة سرعان ما فترت، وتراجع الأمراء والقادة عمّا كانوا ينون القيام به

---

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٧٥، وانظر: الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٧٦.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٣.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٣.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٣؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٨-١٦٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص٢٢.

تحت راية عميد الدولة بن جهير[١].

ومن ناحية أخرى فقد نشب النزاع من جديد في سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) بين الأخوين بركياروق ومحمد، وبعد المعركة التي دارت رحاها بالقرب من همذان[٢] وانتصر فيها السلطان محمد بادر بإرسال وزيره مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد يطالب بعزل الوزير العباسي ابن جهير[٣] وذلك لسابق موقفه تجاه سلطنة بركياروق، ولعلَّ هذا هو واقع الحال، وإن كان هناك من يبرر سبب العزل، بأنه نتيجة لعداوة وأسباب ذاتية بين الوزير عميد الدولة وصهره مؤيد الملك[٤]، وإذا كان للسلاجقة أثر في نهاية عميد الدولة بن جهير المأساوية، فهذا يعني أنهم لم يكونوا راضين عنه مسلكيته في منصبه عند الخليفة اتجاههم، وأصبح غير مرغوب في وجوده الذي قد يهدد مصالحهم في حاضرة الخلافة، وهكذا أسدل الستار على الدور الكبير الذي قام به عميد الدولة في التوفيق بين الخلافة والسلطنة طوال الفترة الممتدة ما بين (٤٦١-٤٩٣هـ/١٠٦٨-١٠٩٩م).

سار أبو القاسم علي بن فخر الدولة على نهج والده وأخيه فيما يتعلق بخدمته للخلفاء، ومساعدتهم في إدارة شؤون الحكم، ولم يتوانَ عن تقديم النصح والمشورة إذا ما احتاج إليه الخليفة وهذا ما يبينه الشاعر الأرجاني بقوله[٥]: [الكامل]

ناط الإمام بسَعْيِهِ وبرأيه ... أمراً بقاصيةِ السّعادةِ مُؤذِنا

وجرّى به فلَكُ الجيادِ فما مضَى ... منّاً، وإن بَعُدَ المدىَ، حتى انْثَنَى

كما يصف جهود علي بن فخر الدولة في خدمة الخلافة ومساهمته في تمتين علاقتها مع السلطنة السلجوقية فيقول[٦]: [الكامل]

---

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٤٣.

(٢). همذان: مدينة من عراق العجم من كور الجبل وصفت بأنها كانت مدينة حصينة كثيرة الأهل منيعة واسعة الأنهار، ملتفة الأشجار، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٤١٠-٤١١.

(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٥٣، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٥.

(٤). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٥٣.

(٥). الأرجاني، ديوانه، ج٣، ص١٤٠٩.

(٦). الأرجاني، ديوانه، ج٣، ص١٤١٠.

كالشّمس، دارَ على البسيطةِ دَوْرةً | عليَاءَ فامتلأتْ بهِ الدُّنيا سَنا
فلتشكرُنَّ الدّولتانِ صنيعةً | إن كان شُكْرُ صنيع مِثْلكَ مُمْكنا
أبدأتَ قُربَهُما بقُرْبِيَ فاغْتَدَى | سَبَبُ العلاءِ به وأبدَوْا أمْتَنا
ونَظمْتَ شملَهما فدُمتَ ودامتا | في العزِّ ما سَجَعَ الحمامُ ولحنَّا

وباعتلاء زعيم الرؤساء علي بن جهير كرسيَّ الوزارة المستظهرية كانت الأوضاع قد هدأت بعض الشيء بين أبناء ملكشاة بركياروق وأخيه محمد بعد أن اتفقا في سنة (٤٩٧هـ/١١٠٣م) على اقتسام أملاك الدولة السلجوقية، مع بقاء الخطبة باسم السلطان بركياروق(١)، الذي لم يلبث طويلاً حتى مات في سنة (٤٩٨هـ/١١٩٤م) فغدا السلطان محمد وحيداً دون منازعٍ له على الحكم، وسار إلى بغداد ليظفر بالتفويض الرسمي من الخليفة(٢).

ولما وصل السلطان محمد إلى بغداد أوكل الخليفة إلى وزيره علي بن جهير مهمة استقبال المنتصر الجديد والترحيب به(٣)، وقد نال ابن جهير من هذه المهمة احترام السلطان محمد وتقديره، إذ إنه خلع عليه خلعاً زاد بها تشريفاً ورفعة، ثم أمر السلطان وزيره سعد الملك الآبي بالمسير إلى دار الوزارة لزيارة الوزير العباسي(٤).

وعندما عُزل زعيم الرؤساء علي بن جهير عن الوزارة العباسية سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) توّجه إلى السلاجقة في أصفهان وأقام عندهم(٥)، وفي هذا إشارة إلى قوة الرابطة والتقارب اللذين غدا للوزير ابن جهير في البلاط السلجوقي، وبعودته ثانية إلى الوزارة العباسية سنة (٥٠٢هـ/١١٠٨م) أخذت العلاقات تسير في تحسن دائم بين الخليفة والسلطان.

أمّا المظّفر الحسين بن علي بن فخر الدولة بن جهير فلم يكن له من السيرة ما يذكر في مجال العلاقات العباسية –السلجوقية خلال وزارته للخليفة المقتفي لأمر الله. ولم نقف على

---

(١). ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢٠.
(٢). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٩٠؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢٣.
(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٩٠.
(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٩٢.
(٥). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١١٢؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ق١ج٨، ص٢٧.

معلومات تساعدنا في معرفة ما إذا كان له دور في إحداث عصره.

ومن خلال هذا الاستعراض لطبيعة العلاقات التي ربطت الخلافة العباسية بالسلطنة السلجوقية في أثناء الوزارة الجَهيْريّة لخلفاء بني العباس يتضح لنا أنّ أفراد هذه الأسرة قد لعبوا دوراً مميزاً وناجحاً في تحديد نوعيّة هذه العلاقات، كما أنهم أثّروا فيها وتأثروا على اعتبار أنهم يتولّون أرفع المناصب الإدارية في الدولة وأكثرها أهمية بعد الخلافة.

ويتمثّلُ الأثر الذي خلّفه الوزراء في محاولتهم إضفاء جوٍّ من الصفاء والتقارب بين الخليفة والسلطان، ولعلَّ صلات النسب التي قامت بين سلالات وزراء كلا الدولتين قد ساهمت إلى حدٍّ ما في تخفيف حدّة النزاع الذي استحكم بين الطرفين، ونستطيع القول أن علاقات المصاهرة هذه قد جاءت لخدمة مصالح شخصية بحتة، وعدّها بنو جهير خير وسيلة للتقارب والتفاهم والحفاظ على كيانهم ومركزهم المرموق لدى الخلفاء، وإدراكاً منهم أن ذلك رهين السلاجقة أصحاب النفوذ في البلاد وخاصة في عهد الوزير نظام الملك الذي كان يسيطر على زمام الأمور، لذا كان يترتب عليهم كسب صداقة نظام الملك وثقته وإذا كنا نتحدث عن صلات نسب بين بني جهير ونظام الملك فهذا ينعكس على العلاقة بين العباسيين والسلاجقة.

أمّا الأثر الآخر الذي ترك فيه بنو جهير بصماتهم فكان متعلقاً بمدى قدرتهم وكفاءتهم الإدارية والسياسية مستغلين خبرتهم الإدارية وحنكتهم السياسة في تدعيم العلاقات العباسية – السلجوقية غير مكتفين بعلاقة المصاهرة، وقد نجحوا في ذلك فكانوا محلَّ ثقة خلفائهم ورسلهم الدائمين في بلاط السلطان ووكلائهم في عقد الزواج من بنات السلاطين وقد أدى هذا إلى فوزهم بإعجاب الخلفاء الذين استعانوا بهم كما نالوا الحظوة عند سلاطين السلاجقة.

وكما أثر بنو جهير في العلاقات، فإنهم تأثروا فيها أيضاً فلم يكونوا بعيدين عمّا يدور من نزاعات بين الخلافة والسلطان، بل كانوا يصطلون بنارها، وكثيراً ما اتخذ السلاجقة من عزلهم وطردهم عن مناصبهم وسيلة لتصفية حسابات لهم مع الخلافة، وواسطة للتعبير عن تسلطهم وجبروتهم على الخليفة الضعيف، فكانوا عرضة للعزل والعودة، إن شاء الخليفة أم أبى. لذلك كان عليهم أن يحصلوا على رضى السلاجقة وتأييدهم في سبيل المحافظة على مناصبهم، بل

ان علاقات النسب التي أقاموها مع السلاجقة لم تكن حداً فاصلاً ولا حائلاً دون حدوث تنافر بين العباسيين والسلاجقة، لأن المصالح الذاتية تطغى على علاقات القرابة والنسب، فإذا ما شعر السلاجقة بخطر يهدد كيانهم وسلطانهم يسارعون بكل الوسائل لردعه ومنع حدوثه.

المبحث الثاني: دور بني جهير في استمالة أمراء الأطراف الخارجين على سلطة الخلافة العباسية.

عندما شعرت القبائل العربية المقيمة بأطراف الخلافة العباسية بقوتها –مستغلة بعدها عن المركز والظروف السياسية التي تمر بها الدولة–، أخذت تميل إلى الرغبة في الانفصال عن مركز الحكم العباسي، وقد نجحت في تأسيس إمارات خاصة بها بعيداً عن السلطة العباسية، وحرص زعماؤها على تقوية كيانها بالدفاع عنها أمام أي خطر يتهددها.

وبالرغم من أن هؤلاء الأمراء كانوا يتبعون للدولة العباسية، إلاّ أنّ هذه التبعية كانت اسمية مقتصرة على الخطبة والسكة، وقد كان ولاؤهم متذبذباً حسب ما تقتضيه مصالحهم الشخصية، وغالباً ما كانوا يستغلون حالة الفوضى والضعف التي تعمل في جسد الدولة، فيحاولون الانفصال عنها، وإذا ما وجدوا قوة رادعة فإنهم يرتدعون، وإلاّ تمادوا في تكريس الانفصال فيشكلوا خطراً على الدولة ووحدتها.

ومن الجدير بالذكر أن السلاجقة قد استطاعوا منذ وصولهم إلى بغداد فرض طاعة الخلفاء العباسيين على أمراء الأطراف وإرجاعهم إلى حظيرة الخلافة العباسية[1]، وذلك لترسيخ الاستقرار والقضاء على أي نوع من الاضطراب السياسي الذي قد تحدثه هذه القبائل، ولعلّ السلاجقة لم يسعوا للتخلص من أمراء الأطراف لهدفين، الأول: أنّ أعدادهم كانت كبيرة بالمقارنة مع الأتراك الموالين للسلاجقة، ثم إنهم أرادو أن يؤسسوا جبهة مناوئة للخليفة العباسي[2]، ليبقى الخليفة ضعيف السلطة دائم الحاجة لعون السلاجقة في الظروف الطارئة.

---

[1]. الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٢١.

[2]. بيات، السياسية السلجوقية في العراق، ص١١١.

وبوفاة طغرلبك سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) وجدت هذه القبائل متنفساً لها للاتجاه نحو الأنفصالية من جديد، وثارت معلنة ذلك الهدف، وأقدم بعض الأمراء على دخول بغداد ونهبوها ونشروا الفساد فيها، مما حدا بالخليفة اتخاذ عدة إجراءات كان من شأنها التخفيف من حدّة غارات هؤلاء الخارجين على الطاعة، وأمر باستدعاء بعضهم وقدّم لهم الخلع، كما كاتب آخرين يدعوهم للطاعة والمسالمة[١].

ولم يتوانَ الوزير فخر الدولة بن جهير عن تقديم العون والمساعدة للخلافة في استمالة أمراء الأطراف وذلك لتزداد حظوته عند العباسيين، وقد أشار ابن الطقطقا لجهود فخر الدولة بقوله: "وكانت الأطراف المتاخمة للعراق عاصية على الخليفة، وكان ملوكها أصدقاء فخر الدولة، فكاتبهم وراسلهم فدخلوا في طاعة الخليفة"[٢]، ومن الذين استمالهم ابن جهير:

- المطلب الأول: العقيليون في الموصل

خصَّ الخليفة القائم بأمر الله الأمير مسلم بن قريش العقيلي بخلعه ألبسه أياها دون غيره من الأمراء الذين ثاروا على الخلافة بعد موت السلطان طغرلبك[٣]، فاستغلَّ العقيلي هذا التكريم واغترَّ بنفسه وبعث إلى من جاوره من أمراء يدعي أن الخليفة العباسي يؤمّره على بغداد ويستنيبه فيها[٤]، ولم يكن الوزير فخر الدولة بن جهير غافلاً عما يدور حول الخلافة من تحركات أمراء الأطراف ومؤامراتهم، فعلم بمراسلة مسلم بن قريش لقبائل الغز المتواجدة في بغداد، واتفاقه معهم على مساعدته في ثورته مقابل بذله الأموال لهم نظير هذه المساعدة، كما قبض فخر الدولة على غلامين لمسلم بن قريش كانا يعّدان لتنظيم الثورة في بغداد بمشاركة

---

[١]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٢.

[٢]. ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٣.

[٣]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٤؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٤.

[٤]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٤.

الغز، ثمَّ جهز قوة وأرسلها إلى أوانا[1] للقبض على إبراهيم بن قريش أخ الأمير مسلم الذي ارسله إلى هناك لجمع الأموال اللازمة للقيام بالثورة[2].

ومع ذلك تمكن الأمير مسلم العقيلي من دخول بغداد بجيش كثير، فعمّ الفساد، وكثر السلب والنهب والخراب، وانزعج الخليفة من تأزم سوء الأوضاع، فبعث العقيلي إلى الوزير فخر الدولة بن جهير رسالة يبرر فيها سبب قدومه إلى بغداد وقال: "ما أعلم سبب هذه الجموع والعساكر، والخلع، وانفاقك الأموال، فإن كان لأجلي فما شققت عصا وما خرجت عن طاعة، ولا انحدرت إلا بكتبك أيُّها الوزير، واستدعائك وانفاذك إليَّ الخلعة، وأني لبستها بالموصل متشرفاً بها، فلما انحدرت وقربت من الخدمة ذممت أفعالي، وقبّحت أحوالي، وجمعت العساكر عليَّ ... [3].

ولما عاتب الوزير فخر الدولة مسلم بن قريش وندّد بسياسته، ووصفها بالفاسدة، ردّ العقيلي بأنه لم يسيء التصرف وأن مجيئه إلى بغداد ما هو إلا من أجل الحصول على موافقة الخليفة بضم واسط إلى أملاكه وانتزاعها من المزيديين [4]، فأجاب فخر الدولة بن جهير على خطاب العقيلي السابق بخطاب آخر جاء فيه: "قد جئتم برسالة ظاهرها الطاعة، وأفعالكم تنافيها، وما كوتبتم ألاّ كما كوتب غيركم، ولتكونوا في الخدمة طائعين، وقد ظهر منكم ضد ذلك"[5].

وأمام تمادي العقيلي وإصراره على مخالفة أوامر الخليفة ووزيره في تقديم الطاعة وكف الأذى ورجوعه إلى إمارته في بلاد الموصل، استدعى القائم بأمر الله جموعاً من العساكر الاسدية، والديلم، والأتراك الواسطية، والبغدادية، وانظم إليها جماعات من أهل بغداد وخرجوا

---

[1]. أوانا: بليدة كثيرة البساتين والشجر والنزهة، وهي من نواحي دجيل في بغداد، انظر:، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٧٤.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٤.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٥.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٥.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٦.

لقتال العقيليين، وما أن سمع بنو عقيل بهذا الترتيب حتى راودهم الخوف من سوء العاقبة، فبعث مسلم رسولاً يعتذر عن تمرده وارتد لطاعة العباسيين[1].

وهكذا استتبت الأمور، وهدأت الأوضاع بين الخلافة وآل عقيل، ولكنها لم تستمر على هذا النسق بل كانت تتغير بتغيير الظروف والأحوال منذ هذا الوقت وحتى نهاية حكم الإمارة العقيلية، وتوثقت العلاقة الجهيرية- العقيلية بعد ذلك، وعندما وصل شرف الدولة مسلم بن قريش إلى بغداد في سنة (٤٥٧هـ/١٠٦٤م) بقصد تقديم الطاعة والولاء للخلافة تلقّاه الوزير فخر الدولة بن جهير واستقبله بحفاوةٍ وتكريم[2]، ويقول الأصفهاني: بأن فخر الدولة "ناله من إقدامه عليه خيرٌ وفير"[3] دون الإشارة إلى ذلك الخير.

ونلاحظ مما سبق أنَّ مسلماً العقيلي قد حَمَّل الوزير ابن جهير مسؤولية استقدامه إلى بغداد، وتشجيعه على ذلك، وهذا أيضاً ما لوَّمه عليه الخليفة القائم بأمر الله، ونسبه إليه فيما بعد وجعله سبباً من أسباب عزله عن وزراته سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) [4].

والواقع أنّ فخر الدولة بن جهير قد قام بهذا العمل خدمة للخلافة العباسية، ولكنّ يبدو أنه قد أخطأ في استخدام الوسيلة السليمة التي اتخذها لاستقطاب صداقة العقيلي، وضمان عدم تماديه، وإلزامه الطاعة للعباسيين وهذا ما يؤكده فخر الدولة بقوله: "ما استدعيته إلاّ خوفاً على الباب العزيز أن يطمع مطامع ويقدم بغداد في جمع لا يسمع ولا يُطيع، فإن طغرلبك قد مات واختلفت الآراء، فلما ظهر ما كانَ في نفس مسلم كامناً، ولم أعلم به حتى رددته صاغراً وأبعدته كارهاً، ثم أعدته إلى الديوان من بعد خادماً مستجيراً، ولائذاً بالعفو مستعيذاً"[5]، فإذا كان قد أخفق في البداية من استخدام الأسلوب السليم في استمالة ابن عقيل، فإنه أحسنَ الرَّد

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٦-١٠٧.

[2]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٢٨أ، ويشير ابن الأثير إلى هذا الخبر في حوادث سنة (٤٥٨هـ) ويؤيده في ذلك سبط ابن الجوزي، انظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٤؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٢٠.

[3]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٢٨أ.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص٢٥١.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٣.

عليه وتمكّن من إعادته إلى طاعة الخلافة.

- المطلب الثاني: بنو مزيد أمراء الحلّة وعلاقة بني جهير بهم:

كاتب الخليفة القائم بأمر الله الأمير دُبَيْس بن مزيد الأسدي، كما كاتب غيره من أمراء الأطراف الخارجين على طاعة الخلافة العباسية، عن طريق وزيره فخر الدولة محمد بن جهير[1]، وقد أجاب دُبَيْس الطاعة للعباسيين وقدِم إلى بغداد سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م) فخرج الوزير ابن جهير المذكور لاستقباله والترحيب بقدومه[2].

وكان الأمير مسلم بن عقيل قد سيطر على الأملاك التابعة للمزيديين الأمر الذي أغضب الخليفة منه، وحين استنكر القائم بأمر الله أفعاله في بغداد، اعتذر بقوله إن بني أسد -المزيديين- قد سيطروا على أعمال واسط ، وأن بني عقيل أحق من المزيديين فيها، وقد ثقل هذا الأمر على المزيديين[3]، وحاول الخليفة استغلال الخلاف الذي نشب بين العقيليين وبني أسد لصالحه، فعرض على الأمير دُبَيْس أن يؤمره قيادة الجيوش التي خرجت لقتال العقيليين، ولكنه تفاجأ برفض ابن مزيد لهذا الطلب وقبوله على أن يكون من ضمن قادة هذا الجيش وليس قائده الأعلى[4]، ولعلّ المزيديين كانوا يخشون من بطش مسلم العقيلي الأمر الذي دعاهم إلى رفض قيادة الجيش بأنفسهم.

وتوثقت العلاقة بين بني جهير والمزيديين منذ هذا الوقت، وكثيراً ما اتخذ الجهيريون من أمراء الحلة ملجأ يلوذون إليه عند تعرضهم للطرد والعزل من بغداد، وأصبح الأمير دُبَيْس خير عضيدٍ لهم، وكان كما قال الشاعر[5]:[السريع]

ولم تزل حلّته ملاذا	لكلّ من يهرب من بغدادا
يقصدها الملوك والخلائق	وجائعٌ ذو فاقة وخائفا
فيشبع الجائع في ذراها	ويأمنُ الخائف في حماها
عند بني مزيد فرسان العرب	يلقى النزيل المستجير ما طلب

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٤-١٠٥.

[2]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٩٥.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٥.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٠٦.

[5]. ابن الهبارية، ديوان الصادح والباغم، ص٩-١٠.

وإدراكاً من بني جهير لمعنى هذا القول عملوا على اتخاذ منازل المزيديين مكاناً يحتمون فيه عند تعرضهم للخطر، ومما لا شك فيه أن صلة النسب التي ربطت بين بني جهير وبني مزيد ما هي إلاّ تأكيدٌ على علاقة التقارب والصداقة الحميمة بينهما، فقد زوّج عميد الدولة بن جهير ابنته "شرف خاتون" -التي كانت أمها زبيدة بنت نظام الملك- من دُبَيْس بن صدقة بن دُبَيْس بن مزيد[1]، وقد تطورت هذه العلاقة فيما بعد لتصبح مصاهرة جمعت بني جَهِيْر مع سلاطين السلاجقة، حيث تزوّج السلطان السلجوقي مسعود من "سفرى خاتون" ابنة شرف خاتون حفيدة عميد الدولة بن جهير[2].

ومن المعلوم أنّ أول وصول لبني جهير إلى أمراء بني مزيد كان في سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) عندما عزل فخر الدولة بن جهير عن وزارة الخليفة القائم بأمر الله في هذه السنة، وكان الخليفة قد خيَّره إلى أي مكان يريد الذهاب إليه فاختار بني مزيد ولما وصل إليهم استقبلوه بكلِّ إكرام وترحيب[3]، ثم أن دُبَيْس بن مزيد هو الذي شفع في عودته إلى وزارته عند القائم بأمر الله -كما أشرنا سابقاً- وتقديراً من فخر الدولة لهذا الموقف خرج في سنة (٤٦١هـ/١٠٦٨م) بنفسه إلى استقبال دُبَيْس بن مزيد الذي وصل إلى بغداد، وكان استقبال ابن جهير له حافلاً، كما ألبسه الوزير خلعاً تشريفية، وأعطاه فرساً بمركب فضه، ورافقه إلى مقر إقامته في بغداد[4].

وصمتت المصادر التاريخية عن الحديث في العلاقات الجهيرية -المزيدية حتى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ولعلَّ طول غياب الأسرة الجهيرية في خدمة السلاجقة، كان له أثر في هذا

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٨٧؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٩٣؛ سبط ابن الجوزي، ق١، ج٨، ص٩١؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٦٥؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٦، ص٢٠٥؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢، ص٣٠٢؛ ويشير ابن الجوزي إلى أن الزواج تم قبل سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٢٧-٣٢٨؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٩٣.

[3]. ابن البنا، يومياته، ج١٨، ص٢٤٢، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٦؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص٢٥٣.

[4]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٤١.

الصمت، ويشير ابن حمدون في حوادث سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) إلى هرب عميد الدولة بن جهير إلى الحلّة المزيدية خوفاً من تتش بن ألب أرسلان الذي وصل إلى بغداد بجيش كثيف للمطالبة بتفويضه أمور السلطنة السلجوقية -وكان عميد الدولة من أنصار السلطان بركياروق- فلما هرب عميد الدولة سار إلى الحلة المزيدية وأقام بها[١]، وهذا يتفق مع ما أورده هبة الله الحلبي الذي عدّ الاستقبال الحافل الذي حظي به الوزير العباسي من المناقب التي تنسب لبني مزيد أمراء الحلّة[٢].

ولكنّ خواندمير يرى سبب هروب عميد الدولة إلى أنه قد توجس خيفة من الخليفة المستظهر بالله فرحل إلى الحلة، ولم يعد إلى بغداد إلاّ بعد إلحاح الخليفة ومطالبته المستمرة إياه برجوعه إلى منصبه[٣]، ولكنّ هذا الكلام تنقصه الدقة لأنه لم يرد في الأخبار ما يشير إلى تأزم العلاقة بين الخليفة المستظهر بالله ووزيره عميد الدولة في هذه المرحلة المبكرة.

ولما توفي محمد بن صدقة بن مزيد في سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م) جلس الوزير عميد الدولة بن جهير في داره للعزاء به ثلاثة أيام، وخرج إليه توقيع من الخليفة فيه تعزية له، لعلاقات المصاهرة التي كانت تجمع بينه وبين المزيديين[٤]، وعندما تأزمت العلاقة بين الخليفة المستظهر بالله ووزيره عميد الدولة أمر الوزير زوجته بالهروب إلى الحلة والاحتماء عند أمرائها، بل أراد هو أيضاً الهروب معها في صندوق من صناديق أمتعتها ولكنه تراجع وقال: "لا يتحدثُ الناس عني بمثل ذلك"[٥].

ونتيجة للضغوطات التي تعرض لها بنو جهير بعد قتل عميد الدولة سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م) سار زعيم الرؤساء أبو القاسم علي بن فخر الدولة إلى الأمير صدقة بن

---

[١]. ابن حمدون ، التذكرة الحمدونية، خط، ج١٢، ورقة ١٦١أ.
[٢]. هبة الله الحلبي، المناقب المزيدية، ج٢، ص٤٢٧.
[٣]. خواندمير، دستور الوزراء، ص١٩٩.
[٤]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٦٠.
[٥]. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص١٦٧.

مزيد متنكراً بعد هروبه من بغداد، فاستقبله المزيديون وأكرموه[1]. ويروي النويري أن الأمير صدقة بن مزيد هو الذي بعث يطلب من ابن جهير المسير إليه[2]، وما أن وقع اختيار الخليفة المستظهر بالله على علي بن جهير ليكون وزيراً له سنة (٤٩٦هـ/١١٠٢م) حتى توسط له صدقة وسار معه إلى بغداد ليقرر أمره مع الخليفة وطمأنه بأنه متى تغيَّر رأي الخليفة فيه مرة ثانية فإن مكانه سيكون محفوظاً عند بني مزيد[3]، ولما حدث ما كان يتوجسه زعيم الرؤساء في سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) وطرد عن وزارة الخليفة سارع إلى دار سيف الدولة في بغداد ومنها إلى الحلة وهو يصيحُ قائلاً: "أمنك الله يا سيف الدولة يوم الفزع الأكبر كما أمنتني"[4]. وهكذا وجد فخر الدولة وبنيه من بعده سنداً قوياً وعوناً دائماً لهم في بني مزيد أمراء الحلة.

وبعد الاطمئنان إلى عودة أمراء الأطراف إلى طاعة الخلافة العباسية، راسل فخر الدولة أمراء بلاد الشام بقصد استمالتهم أيضاً[5]، فكاتب ابن جهير أهل دمشق وصاحب حلب ومحمود ابن الرؤقلية "يدعو الجميع إلى إقامة الدعوة –للعباسيين– ويعدهم بالجميل والأمان من التركمان وعساكر السلطان فأجابوا"، ووردت رسلهم إلى الخليفة معلنين الطاعة والولاء وذلك في سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) [6].

المبحث الثالث: علاقتهم بملوك وأمراء الدول المجاورة للعباسيين:

– المطلب الأول: ملوك الروم

لم تقتصر علاقات بني جهير المنشعبة على أمراء المنطقة من العرب وإنما توسعت دائرة اتصالاتهم لتشمل الروم في مرحلة من تاريخهم، وقد انفرد المؤرخ سبط ابن الجوزي

---

[1]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، خط، ورقة ١٩٣ب.

[2]. النويري، نهاية الارب، ج٢٣، ص٢٥٧.

[3]. ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج١٢، خط، ورقة١٩٣ب.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٠٠، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ق١، ج٨، ص١٨.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ)، ص١٤٢؛ وانظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٣، ص١٢٠.

[6]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ)، ص١٤٢.

بالإشارة إلى أنَّ الوزير فخر الدولة بن جهير كان له نشاطٌ سياسيٌ امتد إلى دولة الروم، فقد جرت مراسلات بينه وبين البيزنطيين الذين كانوا يعدون من أعظم القوى السياسية في ذلك الوقت، وبعث ملكهم آنذاك قسطنطين العاشر دوقاس (٤٥١-٤٦٠هـ/١٠٥٩-١٠٦٧م) رسالة إلى فخر الدولة بن جهير وهذا نصُّها:

"لقد كثر تعجبنا، أطال الله بقاء الوزير الخطير، كيف رأى استعمال الصمت، وإهمال المكاتبة طول هذا الزمان، وما تحرّك لتجديد العهد بنا بالمناجاة والمخاطبة، مع ما هو متجملٌ به من الأدب الزائد، والعقل الراجح الفائض، والحجاء المستوسق الطائل لكلينا، وإن كان الوزير أطال الله كفايته، لما قد احتقنه من المهمات، ونبط به من التدبرات، لم يتمكن من ما ذكرناه، فنحن لم نتمكن من الصبر هذه المدة عن مكاتبته، بل أصدرنا هذا الكتاب مستعلمين خبره وجري الأمور بساحته"[١].

وإذا ما تتبعنا العلاقات العباسية البيزنطية نجدها تتذبذب وفق العلاقات لكلا القوتين، فبعد أن دخل السلاجقة بغداد على إثر استدعاء العباسيين لهم للقضاء على البساسيري بادر السلطان طغرلبك بمراسلة الروم في سنة (٤٤٩هـ/١٠٥٧م) لعقد هدنة بينهما، وذلك من أجل ضمان عدم قيام الروم بأي عمل عسكري قد يؤثر على مركز السلاجقة ويهدد مصالحهم، ونجح طغرلبك في ذلك إذ وافق الامبراطور كومنين (٤٤٩-٤٥١هـ/١٠٥٧-١٠٥٩م) على عقد الهدنة بين الطرفين، ووصلت هدايا ملك الروم إلى السلطان[٢].

ومن المعروف أن ألب أرسلان نجح في الاستيلاء على مدينة آني حاضرة اقليم ارمينية ذات الموقع الاستراتيجي سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، كما سيطر السلاجقة على هضبة أرمينية التي تعد بمثابة الدرع الواقي للبيزنطيين[٣]. وهكذا فإن العلاقات ساءت بين دولتي السلاجقة والروم.

---

[١]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٢٢.

[٢]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩.

[٣]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٠٠.

ويبدو أن هناك عهد سابق بين العباسيين من جهة والروم من جهة ثانية لهذا الخطاب، ومن المؤكد أن امبراطور الروم يحاول تجديد هذا العهد لضمان وقوف الخلفاء العباسيين إلى جانبه أملاً في نيل رضى الخلافة بمحاربة الأطراف الأخرى، وما إرساله الخطاب إلى فخر الدولة بن جهير إلاَّ إدراكاً منه أن الوزير من القوى المؤثرة داخل الخلافة العباسية، وبعودتنا إلى الرسالة فإننا نستشف منها ما يلي:

- إنها موجهة إلى شخص الوزير ابن جهير، ولم توجه إلى الخليفة، ومع ذلك فهي تعكس لنا صورة العلاقات القائمة بين الدولتين العباسية والبيزنطية التي قوامها تحقيق المصلحة للطرفين.

- تبودلت بين بني جهير والروم علاقات ودٍّ وصداقة واحترام، واحتلَّ فخر الدولة أهمية خاصة عندهم، فما أن انشغل عن مكاتبتهم حتى سارعوا الاتصال به للإشادة بجهوده المبذولة، وللاستعلام عن الأحوال والظروف في عاصمة الخلافة، والعبارات التي وردت في مقدمة الرسالة، وإن كانت من أدبيات افتتاحيات الرسائل في ذلك الوقت، إلاَّ أنها تدل على تقدير البيزنطيين لأهمية فخر الدولة بن جهير ومكانته عند العباسيين.

وبعد مضي ما يقارب تسع سنوات على إرسال الروم لهذا الخطاب إلى فخر الدولة بن جهير، ذكر سبط ابن الجوزي أن البيزنطيين يسعون لتجديد العلاقات معه مرة أخرى في سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) فقد بعثوا له خطاباً جديداً، ولكنَّه مرفق بآخر وصل للخليفة القائم بأمر الله يطلبون فيه وساطة كلٍّ من الخليفة ووزيره والتدخل في إصلاح العلاقات بين الروم والسلاجقة[1].

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٧٠.

- **المطلب الثاني : المرابطون أمراء المغرب**

سيطر المرابطون على مراكش وسواحل المحيط الأطلسي، ثم دانت بلاد الأندلس لحكمهم في سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٧م)، وتمكن يوسف بن تاشفين[١] من إقامة دولة أطلق عليها اسم الدولة المرابطية، وأراد ابن تاشفين أن يتقرب من العباسيين، ويحصل من الخليفة على الشرعية التي تعزز حكمه في بلاد المغرب، ومن المعلوم أن المرابطين هم من أنصار الدولة العباسية، فقد اتخذوا السواد شعاراً لهم، كما خطبوا للخليفة العباسي على منابرهم[٢].

قام الأمير يوسف بن تاشفين بإرسال بعثة إلى بغداد بقصد إعلان الطاعة والولاء ومن ثم الحصول على تفويض من الخليفة المستظهر بالله يخول ابن تاشفين حكم بلاد المغرب بصورة شرعية، وكانت السفارة تتألف من الفقيه عبدالله بن محمد بن أحمد الاشبيلي وولده أبو بكر محمد بن العربي، ولما وصل الوفد إلى بغداد استقبل بترحاب واهتمام بالغين من الخليفة المستظهر بالله ووزيره عميد الدولة بن جهير[٣]، وقد أجاب الخليفة طلب المرابطين وأرسل لهم خطاباً يبارك فيه ليوسف بن تاشفين أعماله الجليلة في الجهاد ونشر الإسلام في بلاد المغرب[٤].

---

[١]. يوسف بن تاشفين: أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين، عُرف بالشجاعة والعدل، تقرّب إليه ملوك الأندلس وأعطوه ولاءهم، وهو الذي هزم الفرنج في معركة الزلّاقة سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٧م) ودامت دولته بضعاً وثمانين سنة وتوفي سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م)، انظر: ترجمته، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٧، ص١١٢-١٢٣، الذهبي، العبر، ج٣، ص٣٥٧.

[٢]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٩١.

[٣]. ابن العربي، عبدالله بن محمد بن أحمد الاشبيلي (ت ٤٥٣هـ/١١٤٨م)، قانون التأويل، دراسة وتحقيق محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م، ص١١٥، وسيشار إليه ابن العربي، قانون التأويل.

[٤]. ابن العربي،عبدالله بن محمد بن أحمد الاشبيلي (ت ٤٥٣هـ/١١٤٨م) من رسائل أبي بكر بن العربي، منشور ضمن كتاب، عصمت دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٩١-١٩٢، وسيشار إليه، ابن العربي، رسائل، وانظر: عباس إحسان، الجانب السياسي من رحلة أبي بكر العربي، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ١٦، ج١، ١٩٦٣م، ص٢٢٨، وسيشار إليه عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي.

وكتب الخليفة كتاباً آخر مستأنفاً بلسان وزيره عميد الدولة بن جهير، افتتحه الوزير المذكور بمجموعة من الألقاب الدالة على مكانته في الخلافة العباسية فقال: "من الوزير السيد الأعدل، عميد الدولة بهذه الملة، شرف الأمة، ولي النعمة أمير المؤمنين، أزكى الرغائب بأرض المغاربة، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، أطال الله بقاءه ومدته، وضاعف بسطته، وكبت أعداءه وحسدته .." [1].

وأسهب عميد الدولة في الحديث عن مآثر الخليفة المستظهر بالله، كما شرح أحوال الخلافة وامتداد رقعتها واتساعها[2]، وأشاد بأعمال ابن تاشفين وهنأه على انتصاراته، وحضه على مواصلة الجهاد ونشر الإسلام، وتوسيع بلاده، باسم الخلافة العباسية، فقال له: "... ولما كان الأمير أطال الله بقاءه، وأدام تمكينه، ورفعته، وسمّوه، وبسطته، وكبت عدوّه، وحسدته، ممن صحّ خلوص عقد ولايته، ولزوم طاعته لأمير المؤمنين، الصروف عن أعدائه، وإظهار العدل في الرعية، وتمسكاً بما أمر الله تعالى من مجاهدة أعدائه، وتحريض عساكر الإسلام على مجاهدة عدوهم، وبذل نفوسهم، ومشاركته لهم في نعيمهم وبؤسهم، وما فتح الله لأمير المؤمنين على يديه من ثغور الإسلام بجزيرة الأندلس، وما جاورها مما كان العدّو قد تغلب عليه، واستباحه واستأصل شافته، واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها، وتباين مقاصدهم، وعدولهم عن الواجبات في مصادرهم، ومواردهم، انتهيت إلى المواقف المقدسة العليّة المشرفة، النبوية المستظهرية، زاد الله في جلالها ..." [3] .

وفي نهاية الخطاب طلب عميد الدولة من ابن تاشفين مراعاة حامليّ هذه الرسالة وإكرامهما، وأوصى بهما خيراً، وقال: "فليعتمد الأمير أطال الله بقاءه، مصالح أمورهما وليتوّخ ما تعود باستقامة شؤونهما وليبيهما حسن موقع النيابة، وليبد لهما صفحة الاقبال بمنن..." [4].

---

[1]. ابن العربي، رسائل، ص١٩١-١٩٢، وانظر: عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي، ص٢٦٨.

[2]. ابن العربي، رسائل، ص١٩٣، وانظر: عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي، ص٢٦٨.

[3]. ابن العربي، رسائل، ص١٩٣، ، وانظر: عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي، ص٢٦٨.

[4]. ابن العربي، رسائل، ص١٩٤، وانظر: عباس، الجانب السياسي من رحلة ابن العربي، ص٢٦٩.

وبقيت العلاقات بين العباسيين في المشرق والأمراء المرابطين في المغرب في تحسن طوال عهد إمارة يوسف بن تاشفين، ثم ابنه علي بن يوسف[1] من بعده، ففي سنة (٥٠٠هـ/١٨٠٦م) توفي الأمير يوسف وخلفه ابنه علي على الإمارة، وقد سار على نهج والده في موالاة العباسيين والتقارب معهم، لذلك نجد الخليفة المستظهر بالله يرسل له موافقة على رسالة سابقة كان قد بعثها إلى الخليفة يطلب فيها عهداً بتأميره على بلاد المغرب[2].

---

[1]. أبو الحسن علي بن يوسف، أمير المسلمين، صاحب المغرب، كان صاحب دين وتعبد وعدل، وحسن طويه، وشدة إيثار لأهل العلم وتعظيم لهم، انظر: ترجمته، الذهبي، العبر، ج٤، ص١٠٢.

[2]. مجهول، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص٨٧-٨٩.

المبحث الرابع: أثر وزراء بني جَهير في سياسة الدولة على الصعيد الداخلي.

المطلب الأول: موقف الجَهيرِيّين من الانقسامات المذهبية في الدولة العباسية.

احتضنت بغداد العديد من الفرق والمذاهب الإسلامية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ولمّا كان الجدل يثور بين تلك الفرق فإن حدوث الاحتكاك والتصادم كان أمراً متوقعاً، وكان للخلفاء والوزراء إسهاماتهم في التخفيف من حدة تلك المشاحنات والمنازعات التي ما كانت الاّ صدىً وإنعكاساً لتكتلات سياسية سادت في ذلك الوقت.

– الصراع الفكري بين الحنابلة وأشاعرة الشافعية وموقف فخر الدولة منه:

زادت وتيرة الخلاف بين هذين المذهبين في سنة (٤٦٩هـ/١٠٧٦) في عاصمة الخلافة بغداد، على أثر وصول الفقيه الشافعي "عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيْرِيّ"[(١)] إليها، وكان القُشَيْرِيّ واعظاً متكلماً على المذهب الأشعري، وجلس في المدرسة النظامية للتدريس فتعرّض في أحد جلساته إلى الحنابلة وذمّهم، وأخذ ينسبهم إلى التجسيم[(٢)]، وانحاز إلى جانبه جماعة منهم أبو سعيد الصوفي[(٣)]، ومال إليه أيضاً أبو اسحاق الشيرازي إمام الشافعية

---

(١). القُشَيْرِيّ: أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن، أعظم الفقهاء في زمانه، ورد إلى بغداد وعقد فيها مجالساً للوعظ والعلم، وأقبل عليه طلبة العلم من كلّ مكان وحضر مجالسه "أبو اسحاق الشيرازي" وكان يعظ ويقدم دروسه في المدرسة النظامية ببغداد، وكان حافظاً للشعر والحكايات، (ت٥١٤هـ/١١١٩م) في مدينة نيسابور ودفن هناك، انظر: ترجمته في، السبكي، طبقات الشافعية، ج٧، ص١٥٩-٢٦٣، ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨١؛ وانظر: القاضي، محمد بن أبي يعلى، (ت٥٢٦هـ/١١٣١م) طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت، دط، دت، ج٢، ص٢٣٩، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٦؛ ابن رجب، أبي الفرج، عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي، (ت٧٩٥هـ/١١٣٩م)، الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت، دط، دت، ج١، ص١٩، وسيشار إليه ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة.

(٣). أبو سعيد الصوفي: نيسابوري الولادة والمنشأ، وهو الذي تولى بناء الرباط بنهر المعلى وبني رباط شيخ الشيوخ وبنى وقوف المدرسة النظامية، وكان عالي الهمة كثير التعصب لمن يلتجيء إليه وجدّد تربة معروف الكرخي بعد أن احترقت، وكانت له منزلة كبيرة عند السلطان؛ انظر:، ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٤٤.

في بغداد، فأنكر الحنابلة على القُشَيْرِيّ ذلك -وكانت أعدادهم كبيرة في بغداد- وتكتلوا بقيادة أبي جعفر عبد الخالق بن أبي موسى الهاشمي[1] -ابن عمّ الخليفة المقتدي بأمر الله- وتقاتل الطرفان في الشوارع والطرقات[2]، وينصف السبكي في طبقات الشافعية أصحابه من الأشاعرة، ويقول: "زعمت الحنابلة في واقعة ابن القُشَيْرِيّ أن أبا إسحاق أراد أن يُبطل مذهبهم، ووقعت الفتنة بين الحنابلة والأشعرية"[3].

ومما زاد في حدة النزاع اتهام ابن القُشَيْرِيّ أنه كان يُحضر أشخاصاً يهوداً ونصارى، ويبذل لهم الأموال ويرغبهم في الإسلام، فيسلموا على يديه، فلما سمع بذلك الحنابلة قالوا: "هذا إسلام الرشاء، لا إسلام التقى"[4]، وعزم الأشاعرة على مهاجمة أبي جعفر الهاشمي" في المسجد الواقع بباب النوبى، فلما وصلوا إليه كان أبو جعفر قد رتّبَ أصحابه، ووزّعهم على سطح المسجد وجوانبه وبدأ الحنابلة يرمون أصحاب القُشَيْرِيّ بالحجارة، وقتل منهم شخص وجرح آخرون، فانهزم الشافعية وأغلقوا المدرسة النظامية، واضطرب الوضع حتى نُهبت عمائم الناس[5]، وهكذا اشتبك الطرفان في نزاع أدى لإبراز تكتلات لكلّ من أُشاعرة الشافعية والحنابلة، وعلى أيّ حال فإن إندلاع مثل هذه المشاجرات كانت تثير العامة، وتبرز

---

[1]. أبو جعفر بن موسى الهاشمي: "عبد الخالق بن أبي موسى عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الهاشمي الحنبلي البغدادي، سمع جماعة من المحدثين وروى عنه آخرين، وهو أكبر تلامذة القاضي أبي يعلى، كان شديداً على المبتدعة، ولما مات القائم بأمر الله كان قد أوصى بأن يغسله ابن موسى، فتم له ذلك، ويقال بإنه كان منقطعاً إلى العبادة وخشونة العيش والصلابة في مذهبه، ووصف بأنه إمام الحنابلة في عصره بلا مرافقة، مليح التدريس، حسن الكلام في المناظرة، ورع زاهد (ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م)، ابن الجوزي، المنتظم ج١٦، ص١٩٥-١٩٦؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٥-٢٦، الذهبي، السير، ج١٨، ص٥٤٦-٥٤٨؛ ابن العماد، شذرات الذهب، ج٣، ص٣٣٦-٣٣٧.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨١؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٧.

[3]. السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣٤.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨١؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٦.

[5]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٧.

تعصبهم وميولهم المذهبية، وبالتالي انقسامهم إلى فرق وأحزاب شكلت خطراً على حالة الأمن والنظام[١].

ولما رأى أبو اسحاق الشيرازي تفاقم الأوضاع وزيادة اضطرابها، كتب إلى الوزير السلجوقي نظام الملك يستنجد به على الحنابلة[٢]، وكان الوزير نظام الملك الطوسي يميل إلى المذهب الشافعي، وهو أحد كبار أنصاره[٣]، وهذا ما يؤكده ابن العديم بقوله: "وكان نظام الملك يتعصّب للشافعية كثيراً فكان يولي الحنفية القضاء، ويولي الشافعية المدارس، ويقصد بذلك أن يتوفر الشافعية على الاشتغال بالفقه فيكثر الفقهاء منهم، ويشتغل القضاة بالقضاء، فيقل اشتغالهم بالفقه ويتعطلون"[٤] ويبدو من اتّباعه هذه السياسة أنه أراد كسب الولاء والتأييد عن طريق التربية الفكرية.

وما أن بلغ النزاع الشافعي-الحنبلي مسامع الوزير نظام الملك حتى أسرع لنصرة أتباعه، فأرسل ولده مؤيد الملك إلى بغداد ليستطلع له الأمر[٥]، ولمّا لم يتمكّن ابنه من حلّ الاشكال بعث خطاباً إلى الوزير العباسي فخر الدولة محمد بن جَهِيْر وأرفقه بآخر إلى ولده عميد الدولة[٦] وكان نصه ممزوجاً بالتهديد والوعيد والحدّة، ويدلُّ في طياته عن غضبٍ وحنقٍ شديدين تعبيراً عمّا جرى في حق أتباع المذهب الشافعي في بغداد.

---

(١). حلمي، أحمد كمال الدين، السلاجقة في التاريخ والحضارة، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٩٨٦م، ص٢٢٣.

(٢). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨٢؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٧، السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣٥؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٢٠.

(٣). اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص٧٧.

(٤). ابن العديم، بغية الطلب، ج٥، ص٢٤٩٤.

(٥). الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة٤٧ب؛ وانظر: البنداري، دولة السلاجقة، ص٥٤.

(٦). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨٢؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٧؛ محبوبة، عبد الهادي رضا، من رسائل نظام الملك الوزير السلجوقي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج٧، ج٢، السنة ١٩٦١، ص٣٨-٣٩، وسيشار إليه محبوبة، رسائل نظام الملك.

وقد انفرد سبط ابن الجوزي من بين المؤرخين بإيراد مضمون الخطاب الذي بعثه نظام الملك إلى نظيره ابن جَهِيْر بشأن الفتنة والذي بدأه نظام الملك بذكر ما بلغ سماعه من أنباء تجدد الفتنة فقال: "بلغنا ما تجدد ببغداد من القضايا المتعلقة بالدين، التي تظهر في أنبائها على الصدفة وإعتقاد المداهنين ما يشعر بأن الضمائر المنطوية على النفاق أبت إلاّ ما تكنّه، والسرائر المعقودة على الخلاف والغلّ لم تصبر على استحفاظ ما تجنّه، حتى ورد إثر ذلك عدة من الفقهاء، ونفر من العلماء، فأوضحوا ما يجري هناك مما كانت تخفى حقيقته وجليّته، وما ظهرت بذلك صورته ..."[1].

كما يظهر الوزير –نظام الملك– ميوله للشافعية ويدافع عنها ويُذّكر ابن جهير أنه ما أنشأ المدرسة النظامية إلا لتكون مأوى لأصحابه أتباع المذهب الشافعي فقال: "إنّ هذه الطائفة –يعني الشافعية– إذا قلّت أعوانهم ولم يجدوا فيما دهمهم من ينصرهم ويظافرهم، ولم يقم معهم فيما حزّبهم ويؤازرهم –وإن كانو لم يزالوا مقدّمين مميزين مكرمين–، فلم يصبحوا أغراضاً لسهام النوائب، يطعن فيهم كل مخالف ومجانب لا يرعى لهم حرمة ولا يرقب فيهم إلاًّ ولا ذمة، غير اعتقاد المذهب الذي هم به موسومون، ومن علومه يتعلمون، وقد بنينا لهم مدرسة تصير مأواهم، يتخذونها في السراء والضرّاء مثواهم"[2].

ويتّهم نظام الملك الحنابلة بأنهم ينتحلون المذهب الحنبلي، ويواصل اتهام الوزير فخر الدولة بن جَهِيْر بعدم ردع الطائفة الحنبلية أو مراقبة أتباعها وعقابهم، وينعته بالمناويء للشافعية، وحمّله مسؤولية الفتنة، فيقول: "هؤلاء الذين ينتحلون مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله وإن كان هو بريّاً من سوء دخلهم وأفعالهم منتفياً من ذميم طرائقهم وأقوالهم، مع كثرة عددهم في تلك البقعة –يعني بغداد– واشتداد شوكتهم، واتفاق أقاويلهم في الضلال وكلمتهم، ولم يتجاسروا في زمن من الأزمنة على ما جعلوه الآن بينهم سورة يتدارسونها وصنيعة يمارسونها

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ) ص١٨٧.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨–٤٨٠هـ) ص١٨٨.

من نسب الأئمة، والوقيعة في علماء الأمة، من غير منع ولا معاقبة ولا تخوف ولا مراقبة[1].

وأخبره أن سكوته عن هذا الوضع السيء لاتباع المذهب الشافعي ليس ضعفاً منه، وإنما هو إحترامٌ لسلطة الخليفة ومكانته وهيبته بين رعيته، وليس إلاّ غضنا عما يبدو منهم من البدع، ويضاف إليهم من شر مجتمَع، إلاّ ترفعاً أن يجري في جوار الخليفة، وسدة الإمامة المكرمة ما يحل بلوازم الهيبة، ويقل جوانب التعظيم والرتبة"[2]، ويبرر الوزير السبب الذي حمله على التدخل في هذا النزاع فيقول: "لئلا يجري على من يتفيأ ظلّ عنايتي ويلحظ بعين رعايتي ما يجري ... "[3] .

ويروى بأن الخليفة المقتدي بأمر الله خاف من تشنيع الشافعية عليه عند الوزير نظام الملك، لذلك طلب من وزيره فخر الدولة بن جَهِيْر التدخل في حسم هذا النزاع المذهبي[4]، الذي استفحل بين الأشاعرة والحنابلة، فاستدعى ابن جَهِيْر أطراف الخصام وجمعهم في مجلسه، وأظهر خلال الجلسة مكانة أبي جعفر الهاشمي ورفع من منزلته وعظّمهُ عند الحضور وقال: "إن أمير المؤمنين قد ساءه ما جرى، وهؤلاء يصالحونك على ما تريد"[5].

وبعد ذلك قام ابن القُشَيْريّ إلى صلح أبي جعفر، فقال له أبو جعفر: "لو جاز أن يُشكر أحد على بدعته لكان هذا الشاب لأنه باد هنا بما في نفسه ولم ينافقنا كما فَعَلَ هذان -يعني أبو اسحاق الشيرازي، وأبو سعيد الصوفي- ثم قال لفخر الدولة بن جَهِيْر: "أي صلح بيننا؟ إنما يكون الصلح بين خصمين على ولاية أو دَيْن، أو قسمة ميراث، أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم فيزعمون أننا كفار، ونحن نعتقد أن من لا يعتقد ما نعتقده فهو كافر، وهذا الإمام مفزع

---

[1]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٨.

[2]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٨.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٨.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨١؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٨، السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣٤، ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٢٠.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨٢؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٩؛ ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٢٠.

المسلمين، وقد كان جدّه القادر وأبوه القائم أخرجا اعتقاداً للناس وقرىء عليهم في دواوينهم، وحمله عنهما الخراسانيون والحجيج إلى أطراف خراسان، ونحن على اعتقادهم"[١] فكتب فخر الدولة بن جَهِيْر بكلّ ما دار من حديثٍ في مؤتمر الصلح ورفعه إلى الخليفة، فردَّ المقتدي على الوزير: "عُرف ما أنهيته من حضور ابن العم -يقصد أبو جعفر الهاشمي- كثَّر الله في الأولياء مثله وحضور من حضر من أهل العلم والحمد لله على جمع الكلمة، وضم الألفة، فليؤذن للجماعة في الإنصراف وليقل للشريف إنه قد أُفرد له موضع قريب من الخدمة ليراجع في كثير من الأمور الدينية ..." [٢].

ويبدو لنا أنَّ بني جَهِيْر لم يكونوا متعصبين للمذهب الحنبلي، وإن كانوا من أتباعه، فقد كان عميد الدولة يمدح أبو اسحاق الشيرازي حين يُذكر ويثني عليه بالقول: "هو وحيد عصره وفريد دهره، مستجاب الدعوة"[٣] ولكنَّ السعاة وجدوا لهم في هذا الحادث فرصة للإيقاع ببني جَهِيْر والتشنيع عليهم عند السلاجقة، إذ أرسل أحد فقهاء الشافعية وهو "ابن أبي الصقر"[٤] أبياتاً من الشعر إلى الوزير "نظام الملك" زادت من نقمته وغضبه جاء فيها[٥]: [الرمل]

---

[١]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨٣، وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٩، ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص٢١.

[٢]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٨٣؛ وانظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٨٩-١٩٠،.

[٣]. ابن الصلاح، تقي الدين، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) طبقات فقهاء الشافعية، هذبه ورتبه محي الدين النووي، حققه وعلق عليه، محي الدين علي بن أنجب، دار البشائر الإسلامية دم، دط، ١٩٩٢م، ج١، ص٣٠٥، وسيشار إليه، ابن الصلاح، طبقات الشافعية.

[٤]. ابن أبي الصقر: محمد بن علي بن الحسن بن عمر الواسطي؛ كان فقيهاً شافعياً، تفقه على يد الشيخ أبي اسحاق الشيرازي، غلب عليه الشعر والأدب واشتهر به، وكان شديد التعصب للطائفة الشافعية، وظهر ذلك في قصائده المعروفة بالشافعية، انظر: ترجمته، ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٥٠.

[٥]. الأصفهاني، نصرة الفترة، خط، ورقة ٤٧ب، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٦، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٠، ولم يرد الشطر الثاني من البيت الأخير في رواية سبط ابن الجوزي.

يا نِظامَ المُلْكِ قَدْ حُلَّ بِبَغْدَادَ النِّظامُ	وَبَقِيَ القَاطِنُ فيهـا مُسْتَهَانٌ مستضامُ
وبهـا أوْدَى لـه قَتْلـيَ غُـلامٌ وَغُـلامُ	والـذي مِنْهُمْ تَبَقَّى سَالماً فيـه سِـهَامُ
يـا قِوامَ الدِّيـن لـم يَبْقَ بِبَغْداذَ مَقَـامُ	عَظُمَ الخَطْبُ ولِلْحربِ اتصـالٌ وَدَوَامُ
فَمَتَى لم تَحْسِمِ الـدَّاءَ أيَـاديكَ الحُسَـامُ	وَيَكُـفَّ القَـومَ فـي بَغْدَادَ قَتْلٌ وانْتِقَـامُ
فَعَلى مَدْرَسَةٍ فيها ومَنْ فيها السَّـلامُ	واعتصام بحريم لك من بعـد حـرام

ولما سمع نظام الملك هذه الأبيات زاد حنقه على فخر الدولة بن جَهِيْر، ويقول سبط ابن الجوزي: "إن النظام كان يعلم ميل الخليفة إلى الحنابلة، وبغضه للأشاعرة، ولكنه كان يستأثر الأمور، ولا يمكنه أن يصرّح بذلك، وكان في الباطن يحرّض ملكشاة على الخليفة والوزير"(١).

ولكنَّ الفتنة لم تهدأ حتى بعد الجهود التي بذلها فخر الدولة بن جهير للصلح بين الطرفين فقد أورد السبكي في طبقات الشافعية: أنه لما تمَّ الصلح على يد فخر الدولة وهدأ النزاع، بدأ الحنابلة يتهمون الشيخ الشيرازي بأنه قد تخلّى عن المذهب الأشعري، فغضب أبو اسحاق، وبعث مرةً أخرى إلى السلاجقة يستنجد بالوزير نظام الملك، فرّد عليه الوزير بتطييب خاطره، وأراد الانتقام من الذين أثاروا الفتنة، وطالب بسجن الشريف أبو جعفر -مقدم الحنابلة في بغداد-(٢).

ولكن ابن الجوزي يورد خلافاً لهذا القول، ويذكر نصّ الخطاب الذي أرسله نظام الملك إلى أبي اسحاق الشيرازي محاولاً فيه إخفاء ميوله الشافعية، ومنه: "ورد كتابك بشرح أطلت فيه الخطاب، وليس توجب سياسة السلطان وقضية المعدلة إلى أن نميل في المذهب إلى جهة دون جهة، ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن"(٣)، ولعل موقف نظام الملك هذا دفاع عن الشافعية معتدل واتهام للحنابلة صائب فضلاً عن الاستقرار الذي تقتضيه مصلحة الدولة(٤).

ويؤكد نظام الملك في هذا الخطاب رغبته في إنهاء الفتن، والمحافظة على المصلحة

---

(١). سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٠-١٩١.

(٢). السبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٢٣٥.

(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠.

(٤). محبوبة، من رسائل نظام الملك، ص٥٢.

العامة للمسلمين من أهل السنة[1]. كما اعترف الوزير نظام الملك بمكانة المذهب الحنبلي وأهميته، وقال "... فإن الغالب هناك هو مذهب الإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل رحمة الله عليه، ومحلّه بين الأئمة وقدره معلوم في السنة ..." [2] ولما بلغ الحنابلة هذا القول فرحوا به واطمأنوا، ولكن ذلك لم يمنع إثارة الفتن من جديد في سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) فقد تجدد النزاع بين الحنابلة والأشاعرة، ونشب بينهم قتال لم يهدأ إلاّ بعد تدخل الخليفة، وبعث الشافعية إلى نظام الملك يستجيرون به ثانية على الحنابلة، فكان رده هذه المرة شديداً، حيث أمر بمصادرة أملاك وإقطاعات بني جَهِيْر بعد أن نُسبت إليهم الفتنة[3].

- الصراع بين الطوائف المسيحية ودور عميد الدولة فيه:

لم تقتصر جهود الجَهِيْريّين في تسوية النزاعات الفكرية التي نشبت بين أتباع المذاهب الإسلامية وإنما تعدتها إلى طوائف أهل الذمة التي تعيش في كنف الدولة العباسية، ففي سنة (٤٩٠هـ/١٠٩٦م) تدخّل الوزير عميد الدولة بن جَهِيْر في حسم الخلاف الذي نشب بين أتباع الديانة المسيحية في بغداد[4].

بدأ النزاع بين الطوائف المسيحية عندما شَغَرَ منصب الجثلقة[5] ممن يرأسه، وبعد مدة تمكنَّ النساطرة من انتخاب "مار مكيخا"[6] جثليقاً، وأُخذت موافقة الخليفة المستظهر بالله على

---

[1]. ابن الجوزي،المنتظم،ج١٦،ص١٩٠؛انظر:سبط ابن الجوزي،مرآة الزمان،حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٣.

[2]. ابن الجوزي،المنتظم،ج١٦،ص١٩١،انظر:سبط ابن الجوزي،مرآة الزمان،حوادث(٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٤.

[3]. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ) ص١٩٤.

[4]. ماري بن سليمان، أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، روما، د.ن، دط ١٨٩٩م، ص١٣٧، سيشار إليه، ماري، أخبار البطاركة، وانظر: عمر بن متّى، أخبار فطاركة كرسي المشرق، روما، دن، دط، ١٨٩٦م، ص١٠٢، وسيشار إليه متّى، أخبار الفطاركة.

[5]. الجثلقة: منصب ديني يرأس صاحبه النصارى في جميع ديار الإسلام، فهو أعلى المناصب الدينية بالنسبة للمسيحيين ومن مهمات متوليه، قيادة الصلوات في الكنائس، وفض النزاعات بين أفراد المسيحيين وإشرافه على أوقافهم، ويتم انتخابه من قبل الأفراد النصارى ثم تأخذ موافقة الخليفة على ذلك، انظر: حول هذا المنصب، العقلة، الخلافة العباسية، ص١٤٠-١٤١.

[6]. مكيخا: أب وقديس طاهر من بغداد، عرف بالزهد والعفة، محباً للخير والصواب، كان يمارس مهنة الطب فترة من الزمن، وكان يتردد إلى بيعة مارت مريم بالعقبة، ويعمل دون أن يتقاضى أجر، انظر: متى، أخبار الفطاركة، ص١٠٠-١٠٣.

ذلك، وكان يقف إلى جانب مكيخا ويدعمه إلى أن وصل لمنصب الجثلقة، راهبٌ يُدعى "أبو الفرج سعيد بن إبراهيم الواسطي"[(١)]، وسرعان ما حصل خلافٌ بين كلٍّ من مكيخا وابن الواسطي، ويبدو أنه كان يصعب على حماة البطاركة الجدد أن يلزموا حدودهم بعد فوز مرشحهم، وغالباً ما كان الفائزون بمنصب الجثلقة يحاولون التحكم في من يدين لهم بالجلوس على الكرسي[(٢)].

وتورد المصادر أن السبب الرئيسي في النزاع الذي نشب بين الطرفين يرجع إلى الاختلاف حول ممارسة بعض الطقوس الدينية المسيحية، إذ انقسم النصارى إلى قسمين بعضهم يؤيد قول كلمة "أحد" بين كلٍّ صلاتين وقسم آخر لا يقولها، فلما ولي مكيخا الجثلقة قال: "يرجع الناس إلى رسومهم ومنعوا من قول "أحد" قبل الصفر[(٣)] فاعترض ابن الواسطي عليه وقال: "الصفر فريضة على كلّ نصراني"[(٤)].

وأُستحكم الخلاف بين الراهب ابن الواسطي –طبيب المستظهر بالله– وبين مكيخا رئيس الطائفة المسيحية في بغداد، "وجرت بين الطرفين خطوب كثيرة"[(٥)] حتى أنّ مكيخا أنزل بالراهب عقوبة الحرمان، ومنعه من أداء الصلاة في الكنيسة[(٦)] فغضب لذلك جماعة من أتباعه وانحازوا إلى جانبه في صراعه مع الجاثليق مكيخا نظراً لمنزلته العظيمة عند الخليفة[(٧)].

---

(١). ابن الواسطي: سعيد بن إبراهيم، كان طبيب الخليفة المستظهر بالله، وبلغ عند الخليفة مكانة عالية ومركزاً مرموقاً، وكان رجال الدولة يرجعون إليه في قضاياهم لأنه محلّ ثقة الخليفة، انظر: ترجمته، ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م) عيون الأبناء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص٢٤٤-٢٤٥. وسيشار إليه، ابن أبي أصيبعة، طبقات الاطباء.

(٢). فييه، جان موريس، أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسني زينة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٠م، ص٣٠٧-٣٠٨، وسيشار إليه فييه، أحوال النصارى.

(٣). ماري، أخبار البطاركة، ص١٤٢.

(٤). ماري، أخبار البطاركة، ص١٤٢.

(٥). ماري، أخبار البطاركة، ص١٤٢.

(٦). ماري، أخبار البطاركة، ص١٤٢.

(٧). فييه، أحوال النصارى، ص٣٠٧.

وإزاء تطور هذه الأوضاع ارتأى الخليفة التدّخل من أجل إنهاء هذا النزاع وطلب من وزيره عميد الدولة بن جَهير حسم الخلافات، فأحضر الوزير عميد الدولة الجاثليق مكيخا وخاطبه بلهجة حزم وتأنيب قائلاً له: "لا يجوز أن تخالف أمير المؤمنين، وتغضب طبيبه"[١] ونستشف من هذه العبارة، وقوف الخليفة ووزيره إلى جانب ابن الواسطي في نزاعه مع الجاثليق، وهدده عميد الدولة بالعزل عن منصبه وخاطبه بعبارة حادة: "إن لم تقبل منه، مالك شغل في بلدنا"[٢] وما أن سمع الجاثليق ذلك حتى استشاط غضباً لأن في عبارة عميد الدولة هذه ما يبين رغبته في أن يرضخ الجاثليق -وهو الرئيس الأعلى للطائفة المسيحية- للراهب ابن الواسطي وهو دونه في المرتبة الدينية، وردّ على الوزير: "وكأني إن مضيت من بلدكم فأمري ونهيي وما أحل وأعقد فهو على حاله، ولا يحسب أنَّ هذا العهد الذي كتبتم لي أنا مولًى به، وإنما هو سنّة وعهد، وإلاَّ فأنا مولّى من السماء، وإن كان أمركم ونهيكم مائتي فرسخ، فأنا أمري من مشرق الأرض إلى مغربها، وأمَّا هذا الطاغي -يعني ابن الواسطي- فلا يصحُّ له صلاة إلاَّ بذكري"[٣].

وبعد المداولات التي جرت بين الجاثليق وعميد الدولة تقدَّم الوزير بكتابة تقرير خطي كامل عمَّا دار بينهما من حديث ورفعة إلى الخليفة "وذكر جميع ما جرى وما أخلَّ بحرفٍ واحد"[٤]، وفي اليوم التالي بعث المستظهر بالله، إلى طبيبه واستدعاه إلى حضرته، وأبلغه بما جرى من الحديث مع الجاثليق، وسأله بما قاله مكَيخا في حق ابن الواسطي من أنه لا تصحُّ له صلاة بدون إذن الجاثليق، ولما سمع المستظهر بالله إقرار الطبيب بذلك صرفه قائلاً: "فإذا كان لا يجوز إلاَّ أن تذكر اسمه في صلاتك فأيش يدخلنا نحن بينكم"[٥].

---

[١]. ماري، أخبار البطاركة، ص١٥١.

[٢]. ماري، أخبار البطاركة، ص١٥١.

[٣]. ماري، أخبار البطاركة، ص١٥١-١٥٢.

[٤]. ماري، أخبار البطاركة، ص١٥١.

[٥]. ماري، أخبار البطاركة، ص١٥٢.

ولم يزل عميد الدولة يتابع الموضوع ويتوسط في حلّ الخصام بين مكّيخا وابن الواسطي فاستدعاهما إلى دار الوزارة، وأمر الطبيب ابن الواسطي أن يقدّم الطاعة لرئيسه الجاثليق ويقبّل يده[١]، فتمت بذلك المصالحة وانتهى النزاع بينهما.

- المطلب الثاني: بنو جَهِيْر في الميزان

ساهم وزراء العباسيين في العهد السلجوقي في التقدم الحضاري للدولة العباسية[٢]، وقد كان للوزير فخر الدولة وبنيه دورٌ لا بأس به في هذا المجال، وعلى الرغم من قلّة الإشارات التي وردت في ثنايا المؤلفات، إلاّ أنها تعطي صورة عن مشاركة الوزراء في أمور أخرى غير أمور الحكم والسياسة.

ففي الناحية الاجتماعية تقدَّم فخر الدولة إلى المحتسب في سنة (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) وطلب منه تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور التي انتشرت، وظهرت بصورة جلية، وأمره بالمحافظة على مشاعر الناس وإحترامها، فنفَّذ المحتسب ما طلب منه وأخرج النساء المفسدات من بغداد، وباع دورهنَّ ومتاعهن، وشهّر منهن جماعة في الأسواق، كما منع الناس من دخول الحمامات دون مآزر وأمر بهدم الأبراج، ومنع اللعب بالطيور، واهتمَّ بصحة العامة فمنع إخراج مياه الحمامات إلى نهر دجلة، وكلُّ ذلك بناءً على طلب ابن جَهِيْر[٣].

وفي سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) وصلت لفخر الدولة شكوى بأن الملاّحين يؤذون الناس بزيادة أجرة القوارب عليهم، وكانت بغداد قد تعرضت في هذه السنة للغرق بسبب زيادة منسوب المياه، فما كان من فخر الدولة بن جَهِيْر إلاّ أن أحضر الملاّحين وحذَّرهم من زيادة الأجرة وأمرهم بأخذ الأجر المتعارف عليه سابقاً[٤].

---

[١]. ماري، أخبار البطاركة، ص١٥٢؛ وانظر: فييه، أحوال النصارى، ص٣١٥.

[٢]. الزهراني، نظام الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، ص١٦٧.

[٣]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٦.

[٤]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٩.

ومع أنَّ هذه الإجراءات تتصل بالأخلاق العامة للناس وضرورة المحافظة عليها، فإننا لا ندري ما إذا كان قد قصد منها إحكام سيطرته على البلاد.

أمَّا عميد الدولة بن جَهِيْر فإنه بثَّ له عيوناً وجواسيساً في كلِّ مكان ليطالعونه بالأخبار وللوقوف على جميع ما يدور من أحداث في أطراف البلاد، فكان هؤلاء يستغلون ما يجمعونه من أخبار في التقرب من الوزير ابن جَهِيْر[1].

كما أنه حرص في المحافظة على العامة من أهل بغداد، ففي سنة (٤٧٢هـ/١٠٧٩م) وافق على شروط المحتسب التي كانت تقضي بممارسة نشاطه على العامة والخاصة دون تمييز، وعدم الاستجابة إلى شفاعة أحد أو وساطه، فأجابه عميد الدولة بن جَهِيْر على ذلك[2]، وما هذا إلاَّ مبادرة من الوزير على مساعدة المحتسب في ضبط الأمور الاجتماعية والاقتصادية للخلافة العباسية.

لم يستمر عميد الدولة على هذا النسق طيلة وزارته في ضبط أوضاع العامة والحفاظ عليهم فقد اضطربت الأمور، وفلت زمامها، وعمَّ الفساد والمنكر في بغداد سنة (٤٨٨هـ/١٠٩١م)، وذلك عندما خرج الناس جميعهم من العامة والخاصة للمشاركة في بناء سور حريم دار الخلافة بعد أن تهدَّمت بعض أجزائه، وظهر في أثناء العمل أمور منكرة مخالفة للدين والأخلاق، وكلُّ ذلك على مرأى ومسمع الوزير عميد الدولة وهذا ما حدا "بابن عقيل" أن يبعث إليه خطاباً يلوّمه فيه ويحمله مسؤولية ما يجري من الفساد[3] وقال في افتتاحيته: "لولا اعتقادي صحة البعث، وأن لنا داراً أخرى لعلي أكون فيها على حالٍ أحمدها لما بغضت نفسي إلى مالك عصري، وعلى الله أعتمد فيما أورده بعد أن أشهده إني محبٌّ متعصّب، ولكن إذا تقابل دينُ محمد ودولة بني جَهِيْر، فوالله ما أردت هذه بهذه، ولو كنت كذلك لكنت كافراً"[4]، وفي هذه الافتتاحية يتبين لنا أن بني جهير كانوا أصحاب نفوذ وسلطة

---

(1). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٥.

(2). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٠٥.

(3). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٦؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٨.

(4). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٦. وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٨.

داخل الخلافة الأمر الذي جعل الواعظ ابن عقيل ينعتهم بأنهم أصحاب دولة.

ومن المنكرات التي أشار إليها ابن عقيل في خطابه ضرب الطبول والسواني، ثم كشف عورات الرجال مع حضور النساء وفي ذلك إسقاط لحكم الله، والزنا الظاهر، ولبس الحرير على جميع المتملقين والأصحاب وخلاف ذلك[1].

وخاطب ابن عقيل الوزير بعبارة تقريعية فقال: "يا شرف الدين اتق سخط الله فإن سَخطهُ لا تقاومه سماء ولا أرض"[2] كما أشعره بالذنب والمسؤولية عن وقوع هذا الفساد فقال: "أترى لو جاءت معتبة من الله سبحانه في منام، أو على لسان نبي إن لو كان قد بقي للوحي نزول، أو ألقي إلى روع مسلم بإلهام، هل كانت إلاّ إليك، فاتق الله تقوى من علم مقدار سخطه"[3]، ثم يندد بسياسة عميد الدولة ويتهمه بإيواء الدجلة المتملقين واحتضانهم فيقول: "وقد ملأتكم في عيونكم مدائح الشعراء، ومداجاة المتمولين بدولتكم، الأغنياء الأغبياء الذين خسروا الله فيكم فحسنوا لكم طرائكم، والعاقل من عرف نفسه ولم يغيره مدح من لا يخبرها ..." [4].

أمّا في مجال القضاء فقد بلغت سلطة بني جَهِيْر حدًّا جعلهم يعينون القضاة، إذ أورد ابن الجوزي أن عميد الدولة ولّى منصب قاضي القضاة في بغداد شفاهاً للقاضي أبي الحسن الدامغاني وذلك في سنة (٤٨٧هـ/١٠٨٥م)[5]، ومن المعروف أن القضاء ولاية دينية يتم تعيين صاحبه مباشرة من صاحب السلطة الشرعية (الخليفة)، وما قيام عميد الدولة بهذه المهمة إلا كناية عن التفويض الواسع الذي منحه إيّاه الخليفة المقتدي بأمر الله، كما أنه كان مخوّلٌ بعزل القضاة، ومثال ذلك؛ أن عميد الدولة عزل القاضي "أبو تغلب بن جهور" عن قضاء مدينة

---

[1]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٨.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٩.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٩.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٩-١٨٠.

[5]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص١٤.

واسط[١]، وفي هذا دلالة على اتساع نطاق صلاحيات بني جهير في الخلافة حتى أنهم قاموا بإصدار الأحكام الجزائية بأنفسهم، فقد تخاصم لدى فخر الدولة شخصان حول منزلٍ، فلما حكم ابن جَهِيْر لصاحب الحق غضب الآخر، وتعرّض لخصمه بالضرب والشتم، ولمّا كان الوزير فخر الدولة لديه صلاحية إصدار الأحكام القضائية فإنه أمر بهدم المنزل المتنازع عليه، وأغلق دار المذنب وطرده منها وختم على ممتلكاته[٢].

وتتبّع عميد الدولة الجرائم الواقعة على الأشخاص، وحقّق في ملابساتها، فمثلاً وقع في سنة (٤٧٥هـ/١٠٨٢م) حادث قتل امرأة في بغداد فتمكّن ابن جَهِيْر من القبض على الفاعل وأقره بجريمته ثم أوقع عليه العقوبة[٣].

وقد حظيت الحركة العلمية باهتمام الوزراء في العصر السلجوقي وكان لهم نشاط ملموس في تشجيع العلم ونشره، وكانت دور الوزراء مجمعاً لأهل العلم، وكثيراً ما عقدت فيها دروس ومناظرات وندوات في مواضيع متنوعة[٤]، وقد صُنِّفت أسرة بني جَهِيْر كإحدى الأسر العلمية الشهيرة التي خرجت من الموصل[٥].

اهتمَّ فخر الدولة بالعلم والعلماء فدعمهم وأغدق عليهم الأموال[٦] تشجيعاً لهم وكسباً لتأييدهم، وكان يعقد في داره مجالساً ضمت كبار رجال الدولة وعلى رأسهم العلماء والفقهاء وبلغ من احترامه لهم عَدَمِ رفع يده إلى الطعام قبل ضيوفه[٧].

---

(١). السلفي، صدر الدين أحمد بن محمد بن أحمد (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م) سؤلات الحافظ السلفي لخميس الحوزي عن جماعة من أهل واسط، تحقيق مطاع الطرابيشي، دار الفكر، ١٩٨٣م، ص٨٣. وسيشار إليه السلفي، سؤالات،وأبو تغلب بن جهور هو محمد بن محمد بن عيسى بن جهور(ت٥٠٣هـ/١١٠٩م)متقدم في الفقه، رحل إلى واسط ودرّس بها مدة من الزمن، وتولى قضاءها ثم عزل عنها، السلفي،سؤالات، ص٨٢-٨٣.

(٢). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٤٠.

(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٢٣.

(٤). العُسيري، مريزن، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعة، مكة المكرمة، ١٩٨٧م، ص٢٢٧؛ وسيشار إليه العسيري، الحياة العلمية في العصر السلجوقي.

(٥). الديوه جي، تاريخ الموصل، ج١، ص٢٠٠.

(٦). ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص٢٢٧.

(٧). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٥١؛ وانظر: العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة٩٢أ.

ومن مظاهر اهتمامه بشتى أصناف العلوم أن أبا نصر يحيى بن جرير التكريتي كتب رسالة بعنوان "الباه ومنافع الجماع ومضاره" وقدّمها للوزير أبي نصر فخر الدولة وتحوي على منافع الرياضة وجهة استعمالها[1]، وهذا يدل على اهتمام فخر الدولة بأمور الرياضة البدنية.

كما أنه شارك في مجالس العلم، وتقدّم مع كبار الفقهاء بقراءة الاعتقاد القادري[2] وأمر بكتابة نسخ منه توزع على باقي مساجد البلاد[3]، والتقى بالمؤرخ البغدادي "غرس النعمة" محمد بن الهلال الصابيء وجالسه وأخذ عنه المؤرخ المذكور بعضاً من رواياته وأثبتها في كتابة الموسوم بالهفوات النادرة"[4]. وقد نال فخر الدولة مدح العديد من الشعراء[5]، كما روى فخر الدولة بعض الأخبار والروايات على لسان الشاعر المنازي، وهذا يعني أنه قابله وأخذ عنه تلك الروايات والأخبار[6].

وقد اشتغل عميد الدولة بدراسة الأدب وانكبَّ عليه، وذُكر بأنه كان له "ترسلٌ بديع، وتوقيعات وجيزة، وأشعار رقيقة[7]، ومن شعره[8]: [البسيط]

---

[1]. ابن أبي أصيبعة، طبقات الاطباء، ص٣٢٨-٣٢٩

[2]. الاعتقاد القادري: كتابٌ يشمل على فكر ومذهب أهل السنة – وهو مذهب الخلافة العباسية– وضعه الخليفة العباسي القادر بالله (٣١٩-٤٢٤هـ/١٠٠٠-١٠٣٢م) وحوى هذا الاعتقاد على أنّ الله واحد لا شريك له وانه قادرٌ على كلّ شيء، وكلام الله غير مخلوق ومن خالف هذا القول عُدَّ كافراً، كما جاء فيه أنّ محبة الرسول ﷺ وآل بيته وجميع صحابته دون استثناء واجبة على المسلمين، انظر: نص الاعتقاد كاملاً في، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٢٩، ص٣٢٢-٣٢٣.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٠٦، وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٠٣.

[4]. الصابيء، الهفوات النادرة، ص٦، ٥٦، ١١٥، ١٤٥، ٢٢٣.

[5]. صرّدر، ديوانه، ص٦٥ فما بعد؛ الباخرزي، دمية القصر، ج١، ص٣٢٥.

[6]. ابن العديم، بغية الطلب، ج٢، ص٨٨٤-٨٨٥، ج٣، ص١٢٧٩-١٢٨٠، والمنازي: أحمد بن يوسف أبو نصر السليكي الوزير من أهل منازكرد، عمل وزيراًعند المروانيين في ديار بكر ثم قدم إلى حلب ومات فيها، وكان مجيداً للشعر فاضلاً أديباً روى عنه جماعة منهم فخر الدولة بن جهير؛ انظر ترجمته، ابن العديم، بغية الطلب، ج٣، ص١٢٧٩-١٢٨٠.

[7]. ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص١٦٤.

[8]. الأصفهاني، الخريدة، قسم العراق، ج١، ص٩١؛ وانظر: ابن الطقطقا، الفخري، ص٢٩٧؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٧٢؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص١٦٩.

إلـى متـى أنــت فـي حِـلٍّ وتَرْحـالِ — تبغي العُلـى والمعـالي مَهْرُهـا غـالي
يا طالبَ المجـدِ، دونَ المجـدِ ملحمـةٌ — فـي طَيِّهـا خَطَـرٌ بـالنَّفسِ والمــالِ

وكان عميد الدولة يجالس الشعراء وينادمهم ويقرّبهم، وقد مدحـه علـى ما يـروى عشـرة آلاف شاعر ومدح بمائة ألف بيت من الشعر"[1] وعلى ما في الرواية مـن مبالغـة ظـاهرة فإنهـا تدلُّ على أنَّ جملة من الشعراء قد قصدوا أبوابه، وكان من أبرزهم صرّدر حيث حـوى ديوانـه المنشور على اثنتي عشرة قصيدة في عميد الدولة[2].

فكان لا يترك أي مناسبة من توديع واستقبال وخلافه إلاّ ويسارع في نظم قصيدة خاصـة بهذه المناسبة[3]، ولعلَّ كثرة مدّاحيه دعت ابن عقيل الواعظ إلى تحذيـره منهـم وعدّهم منـافقين يسعون إلى التقرب مـن الوزيـر بأشعارهم[4]، ومـن ناحيـة ثانيـة كـان عميـد الدولـة حليمـاً مـع الشعراء فقد ورد إليه الشاعر ابن الهبّارية وهجاه هجاءاً حاداً اتهمه فيه بأن عودته إلى الـوزارة المقتدية ما هي إلاّ بشفاعة نظام الملك السلجوقي، وكـان يتوقـع هـذا الشـاعر أن يعاقبـه الوزيـر على ذلك، ولكنه صفح عنه بل إنه أعطاه خمسين ديناراً ولم يؤذه[5].

وكان عميد الدولة يثني على العلماء ويجلّهم ويقدّر مكانتهم، فكان يقول عن أبـي اسحاق الشيرازي حين يذكر: إنه وحيد عصره وفريد دهره[6]، ولمـا ورد الفقيـه العـالم الكيّـا الهراسـي إلى بغداد سنة (٤٨٦هـ/١٠٩٣م) قام له عميد الدولة إجلالاً لمكانته، واستقبله أحسن استقبال[7]،

---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١، ص٢٧٢.

[2]. صرّدر، ديوانه، ٦٧-١١٠.

[3]. صرّدر، ديوانه، ص٥٦-١٢٢، وانظر: الطاهر، علي جواد، الشعر العربي فـي العـراق وبـلاد العجـم فـي العصر السلجوقي، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢٨٧-٢٨٨.

[4]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج١، ص١٧٩.

[5]. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص١٣٢؛ وانظر: جواد، عميد الدولة بن جهير، ص٢٩٨.

[6]. ابن الصلاح، طبقات الشافعية، ج١، ص٣٠٥.

[7]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٢، الكياالهراسي: أبو الحسن علي بن محمـد الطبري المعـروف بـالهراس الفقيه الشافعي ولقبه شمس الإسلام عماد الدين، وكان صاحباً للإمام الجوينـي إمـام الحرمين، انظـر: ابـن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٩٢.

كما أكرم وفادة الرّحالة العالم الفقيه محمد بن عبدالله بن محمد بن العربي المعـافيري الاشبيلي عندما قدم إلى بغداد طلباً للعلم[1]. وراعى الوزيـر العلمـاء وقرّبهـم منـه وكـان يجيزهم ويثـابر على صلاتهم ويغدق الأموال عليهم[2] .

وحافظ عميد الدولة على عقد مجالس العلم وحلقات الدرس في داره، وكان مجلســه نـدوة للمحاضرات والمناظرات العلمية والدينية، وقد نقل لنا ابن العربي صورة من تلك المنـاظرات ووصفها لنا عندما كان مشاركاً بإحدى هذه المجالس فقال: كنت فـي الصـف الثـاني مـن الحلقـة بظهر أبي الوفاء بن عقيل إمام الحنابلة بمدينة السلام، فقرأ "تحتيهم يوم يلقونه" فلما سمعت الآية قلت لصاحب لي يجلس على يساري هذه الآية دليل على رؤية الله، -فصرف أبو الوفاء وجهـه مسرعاً إلينا وقال ينتصر لمذهب الإعتزال في أنّ اللـه لا يـرى فـي الآخـرة"[3] فهـذا مثـال مـن أمثلة المناظرات التي كانت تناقش في المجالس العلمية في دار الوزير عميد الدولة بن جهير.

وجالس عميد الدولة بن فخر الدولة الشيوخ والفقهاء وعلماء الدين، وكان يقـرأ الأحـاديث على مسامعهم، وسمع منه جماعة منهم قاضي القضاة علي بن المحسن الزيني، وإسـماعيل بـن السمرقندي ومحمد بن عمر البخاري، ومن الشـيوخ الذيـن سـمع منهـم أبـو اسـحاق الشـيرازي، وعاصم بن المحسن، وأبو نصر النرسي[4].

ووردت إشارة إلى أنّ المظفر "الحسين بن جَهِيْر" كان له أنسٌ بـالعلوم[5]، وأنـه جـدَّ فـي طلب العلم ومجالسة أهل الحديث للسماع منهم[6]، وهو من رواة الحديث النبوي الشريف وسمع منه جماعة من المحدثين[7].

---

(1). ابن العربي، عبدالله بن محمد بن أحمد الاشبيلي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م)، قانون التأويل، دراسة وتحقيق محمد السليماني دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص١١٥.

(2). العيني، عقد الجمان، خط، ج١١، ورقة ١٢٧أ.

(3). ابن العربي، قانون التأويل، ص١١٥.

(4). الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣٤، ص١٦٨.

(5). ابن الطقطقا، الفخري، ص٣١١.

(6). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٠٠؛ وانظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهره، ج٥، ص٤٨.

(7). ابن الجوزي، ج١٨، ص١٠٠؛ وانظر: ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج٢، ص٧٤.

وعلى الصعيد العمراني اهتم وزراء بني جَهِيْر بالمنشآت المدنيّة، ولا سيما العمرانية منها، فقد عمل فخر الدولة على ترميم ما تخرّب من جامع القصر "بدار الخلافة" وزاد في مساحته، وجددً منبره، وأوصل إليه الماء من داره بباب العامة عبر قنوات مائية، اختطها تحت الأرض، وقد عمَّ الناس المنفعة العظيمة من جرّاء هذا المشروع(١).

ولم يقتصر نشاطه العمراني على مدينة بغداد فحسب، وإنما امتدَّ إلى مكة المكرمة حيث الأماكن الدينية المقدسة، فاهتم بعمارة المسجد الحرام، وأمر بصنع منبر جديد لهذا المسجد من أجل إقامة الخطبة العباسية هناك، وذلك في سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) ومن المؤكد أن اهتمامه بعمارة الأماكن الدينية ما هو إلاَّ نكاية بالفاطميين ومنافسة لهم في الاهتمام بالأماكن المقدسة، وقد زُيِّن المنبر بنقش نصه "لا إله الله محمداً رسول الله الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين، مما أمر بعمله محمد بن محمد بن جَهِيْر"(٢).

ولكنَّ الظروف لم تأت لصالح العباسيين، فما أن وصل هذا المنبر إلى مكة حتى كانت الخطبة العباسية قد قطعت، وأعلنت باسم الفاطميين من جديد، فآل أمرُ هذا المنبر إلى الكسر والحريق(٣).

وقد سار عميد الدولة على خُطى والده في تشجيع تشييد المشاريع العمرانية، حيث اهتمَّ في إعادة ما تهدّم من سور حريم دار الخلافة في بغداد، فخرج بنفسه واختطه وقدّر مساحته بمساعدة المسّاح، وقام بجمع الأموال اللازمة من أجل إتمام بنائه(٤).

---

(١). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠.

(٢). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠، وانظر: المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١، ج٢، ص٣١٩.

(٣). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٩٠، وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٢٥، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث (٤٤٨-٤٨٠هـ)، ص١٩٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٢٥، الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، (ت٨٣٢هـ/١٤٣١م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء، مكتبة النهضة الحديثة، مصر، ١٩٥٦م، ج٢، ص٢٢٨.

(٤). ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٧، وانظر: النويري، نهاية الأرب، ج٢٣، ص٢٥٤.

وفي مجال العمران الزراعي أقدم عميد الدولة على إصلاح قنوات الرّي التي تقوم عليها الزراعة، وأغلق الشقوق والبثوق التي قد تؤدي إلى حدوث انفجارات عند زيادة منسوب المياه، وبالتالي حدوث فيضانات وكوارث قد تؤذي المحاصيل الزراعية[1].

وساند بنو جَهِيْر الخلافة عند تعرض البلاد لكوارث طبيعية، كالحرائق والفيضانات، فمثلاً شبَّ حريقٌ هائل في بغداد سنة (٤٨٥هـ/١٠٨٣) واستمر تأثيره من وقت الظهر إلى العصر، ونتج عنه خسائر مادية وبشرية، وكان الوزير عميد الدولة قد خرج وباشر بنفسه إطفاء الحريق وبقي ملازماً للموقع حتى خَمد الحريق وانحسرت النيران[2]، وساهم فخر الدولة في مساعدة الآخرين وتقديم العون لهم عندما تعرضت بغداد لفيضان في سنة (٤٦٦هـ/١٠٧٣م) [3]، ويروى بأنه ظلَّ مدة يومين دون طعام كباقي العامة من الشعب[4].

---

[1]. ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص٢٢؛ وانظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص١٦٢.

[2]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص٢٩٩؛ وانظر: ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص١٦٦؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج٣٣، ص٢٧.

[3]. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٥٥-١٥٦.

[4]. ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١١٤.

الخاتمة

تركزت هذه الدراسة في بحث أسرة بني جَهِير بوصفهم من أشهر متولي منصب الوزارة العباسية في فترة سيطرة السلطنة السلجوقية على مؤسسة الخلافة وأجهزتها الإدارية المختلفة في بغداد، وحاولت -قدر المستطاع- إظهار الدور الذي مارسه الجهيريون من خلال تتبع مراحل حياتهم الإدارية منذ تجلّيهم على مسرح الأحداث وحتى تقلص دورهم وتلاشي نفوذهم.

وبعد البحث تبين لنا أنّ فخر الدولة (محمد بن محمد بن جَهِيْر) زعيم الاسرة ورئيسها ذو أصول عرقية عربية، موطنه ومولده الموصل من بلاد الجزيرة الفراتية، حيث نشأ وترعرع فيها ودخل في خدمة أمرائها من بني عقيل، ثم تقلبت به الأحوال فتنقل بين أماكن عدة واشتغل عند قوى سياسية معروفة مثل المرداسيين والمروانيين، وهذا ما زاده شهرة بلغت الآفاق، وأثّرت في جذب أنظار الخلافة العباسية إليه ومراسلته لتوليته وزارتها.

واتضح أن بني جهير أدركوا أهمية منصب الوزراة كونه من أرفع المناصب الإدارية في الدولة، وأعلاها مكانة، فقادتهم طموحاتهم نحو خلفاء بني العباس، وسمت همتهم لوزارتهم وتمكنّوا من تحقيق ما كانوا يصبون إليه، ونستطيع القول أنهم احتكروا -أو كادوا- منصب الوزارة العباسية مدة زادت على نصف قرنٍ من الزمان تخللها الانقطاع والعزل أحياناً وانهم أثبتوا خلالها حسن إدارة وكفاية عالية، كادت أن تضاهي ما كان يتمتع به نظام الملك الطوسي في وزارة السلاجقة.

أبرزت الدراسة التطورات التي شهدتها مؤسسة الوزارة العباسية من خلال البحث في أسرة بني جهير منذ وصولهم إليها وتربعهم على سدتها كإحدى الأسر التي شغلت هذا المنصب مدة طويلة في العصر السلجوقي، وألقت الضوء على التدخل السلجوقي المستمر في تعيين من يريدون من وزراء الخلافة وعزلهم وفق ما تقتضيه مصالحهم وذلك حرصاً منهم على إحكام سيطرتهم على الخلافة في بغداد.

وتبيّن أنَّ وزراء بني جَهِيْر انتهجوا طريقة اللين السياسي كأفضل وسيلة في الحفاظ على مركزهم في خِضمّ الصراعات الشخصية والرسمية الدائرة آنذاك، وإدراكاً منهم أن ديمومتهم تعتمد بشكلٍ كبير على مدى قدرتهم في مجابهة خصومهم وأعدائهم من ذوي السلطة والنفوذ، ولتحقيق الأهداف المرجوة أنفسهم بسلسلة من الرباطات المتينة مع السلاجقة المتنفذين، وتمثل ذلك في إقدام عميد الدولة -الابن الأكبر للوزير فخر الدولة بن جَهِير- على مصاهرة الوزير السلجوقي نظام الملك الذي كان ندهم في وزارة السلاجقة بزواج ابنتيه الواحدة تلو الأخرى، وقد تكشف لنا النتائج الإيجابية التي عادت على بني جَهِير من جرّاء هذه المصاهرة طوال وزارتهم للعباسيين.

وخلصنا إلى أنّ فخر الدولة وبنيه قد تمتعوا بقدرٍ كبير من الفطنة والذكاء السياسي والنشاط الإداري والدهاء . وهذا ما ساعدهم في تدعيم وجودهم وحصلوا على ثقة الخلفاء الذين اتخذوا منهم أداة ووسيلة يتقاربون بها مع السلاجقة وبان لنا أيضاً أنّ بني جَهِيْر كانوا رسلهم الدائمين في البلاط السلطاني، وكان جلُّ اعتماد الخلفاء عليهم في إصلاح العلاقات العباسية – السلجوقية.

واستنتجنا أن السلاجقة توسّموا في بني جَهِيْر علامات المهارة الإدارية والحنكة السياسية، لذا فإنهم استقدموهم إليهم وأكرموهم وفقاً لأهداف ومصالح جمعت بين الطرفين، وبرهن الجهيريون على حسن ظن السلاجقة بهم فقادوا الحملات العسكرية وتوالت انتصاراتهم في بلاد الجزيرة الفراتية، وفتحوا مدنها باسم السلطان، فأثبتوا بذلك مهارة حربية عوضاً عن مهارتهم الإدارية، ولا يفوتنا ذكر أن الجهيريين كان لديهم من الطموح والمطامع ما جعلهم يفكرون في الاستقلالية، ومحاولة تأسيس كيان سياسي خاص بهم بعيداً عن أنظار السلاجقة والعباسيين، ووجدوا ضالتهم في ديار بكر وبدأو يؤسسون قواعد هذا الكيان من خلال سياسة مالية واسعة جعلوها رهينة مصالحهم، ومن ثم إيجاد قاعدة شعبية تؤيد تلك المصالح، ولكنّ مخططهم لم ينجح وباءت محاولاتهم بالفشل فيما بعد.

وظهر لنا من خلال الدراسة أن بني جهير أصحاب مصالح شخصية بحتة، ومطامع ذاتية كانت تؤثر في تغيير مسار تحركاتهم، وفق ما تقتضيه تلك المصالح، لذا فإنهم رفضوا أن يكونوا رهن سلطة الخليفة الضعيف المغلوب على أمره، وأدركوا أن الخلافة غير قادرة على حمايتهم، لذا سارعوا بالحصول علىَ ثقة السلاجقة وانفصلوا عن وزارة الخليفة التي قضوا فيها مدة طويلة وهذا ليس بمستغرب عنهم طالما أن هذا يوافق مصالحهم.

وبدت لنا الأهمية الخاصة التي حازها عميد الدولة (محمد بن محمد بن محمد) بن جهير دون اخوته بأن له من المنزلة والمكانة والشهرة ما تفوّق به على والده، وكان جلّ اعتماد الخلفاء عليه في الأمور المعضلة، وكان لما تمتع به من علم وفصاحة وقدرة وكفاية في الأمور السياسية أثرٌ في طول مدة وزارته للعباسيين.

وتوصلنا إلى الاهتمام والعناية التي أولاها فخر الدولة وبنيه بالنواحي الحضارية في الخلافة العباسية، فكان لهم اهتمام بالحياة الاقتصادية والاجتماعية، وكان لهم إسهام بالحركة العلمية والأدبية في بغداد، وذلك من خلال تشجيع العلماء والأدباء وتقريبهم، وإغداق الأموال عليهم، كما أنهم عقدوا المجالس العلمية في دورهم.

لقد لعب الجهيريون دوراً مذكوراً في تاريخ الدولة العباسية استحقوا معه هذه الدراسة، فإن أصبت فهذا ما قصدت، وإلا فلنا أجر المجتهد.

المصادر والمراجع

أ. المصادر

١. المصادر المخطوطة

- **ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)**
* التذكرة الحمدونية، ج١٢، مخطوط مكتبة أحمد الثالث، نسخة مصورة في مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، شريط ميكروفيلم.
- **العماد الأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)**
* نصرة الفترة وعصرة القطرة، مخطوط المكتبة الأهلية، باريس، رقم ٢١٤٦، نسخة مصورة في مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، شريط ميكروفيلم.
- **العيني، بدر الدين أبو محمد بن أحمد بن الحسين بن يوسف (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)**
* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج١١، مخطوط لدى الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية، شريط ميكروفيلم.
- **الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)**
* عيون التواريخ، دار الكتب الوطنية، القاهرة، حوادث (٤٣١-٥٢٣هـ) مخطوط لدى الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية، شريط ميكروفيلم.
- **ابن الموصلايا، أمين الدولة العلاء بن الموصلايا (ت٤٩٧هـ/١١٠٤م)**
* رسائل أمين الدولة، دار الكتب الوطنية، تونس، رقم ١٤٧١٢، نسخة مصورة في مكتبة جامعة اليرموك، شريط ميكروفيلم.
- **أبو الهيجاء، (ت ٥٨٩هـ/١١٩٢م).**
* تاريخ أبي الهيجاء، مخطوط رقم ١٣٨٣، المكتبة الوطنية، تونس، مخطوط لدى الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية، شريط ميكروفيلم.

٢. المصادر المطبوعة

- **ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن بن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)**
* الكامل في التاريخ، الجزءان السابع والثامن، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م.
* اللباب في تهذيب الأنساب، الجزء الأول، دار صادر، بيروت، دط، ١٩٨٠م.
* التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣م.

- **ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي (ت٦٦٨هـ/١٢٦٩م)**
* عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- **ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٤م)**
* بدائع الزهور في وقائع الدهور، القسم الأول من الجزء الأول، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.
- **الباخرزي، علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م)**
* دمية القصر وعصرة أهل العصر، الجزء الأول، تحقيق محمد التونجي، مطبعة دار الكتب، بيروت، ١٩٧١م.
- **البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)**
* مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، الجزء الثاني، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٤م.
- **ابن البناء، أبو علي الحسن بن أحمد البغدادي (ت٤٧١هـ/١٠٧٨م)**
* يوميات ابن البناء، تحقيق جورج مقدسي، منشور في مجلة
Bulletion of the school oriental and African stude's University of London, (BSOAS) vol, XVIII, 1956, p.9-31, p239-260-vol-XIX, 1957, p13-46, 282-303, 426-443.

- **الأبيوردي، محمد بن أحمد بن اسحاق، (ت٥٠٧هـ/١١١٣م)**
* ديوان الأبيوردي، الجزء الأول، تحقيق عمر الأسعد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- **البنداري، الفتح بن علي بن محمد (ت٦٤٣هـ/١٦٤٥م)**
* تاريخ دولة آل سلجوق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.
- **ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م)**
* النجوم الزاهره في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الخامس، تعليق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- **الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م)**
* تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علي الرّاوي وابتسام الصفار، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٧م.
- **ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكتاني الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)**
* رحلة ابن جبير، مكتبة دار الهلال، بيروت، دط، ١٩٨١م.

- **ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)**
* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الأجزاء ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- **الجويني، عبدالملك بن عبدالله (ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)**
* غياث الأمم في التياث الظلم، دراسة وتحقيق مصطفى حلمي، وفؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة للنشر والتوزيع، الاسكندرية، ١٩٧٩م.
- **الحسيني، صدر الدين أبو الحسن علي بن ناصر (ت بعد ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)**
* أخبار الدولة السلجوقية أو زبدة التواريخ، تحقيق محمد نور الدين، دار إقرأ، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.
- **الحسيني، محمد بن محمد بن عبدالله بن النظام اليزدي (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٣م)**
* العراضة في الحكاية السلجوقية، تحقيق عبد النعيم محمد حسنين، وحسين أمين، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩م.
- **ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)**
* صورة الأرض، (المسالك والممالك)، دار مكتبة الحياة، بيروت، دط، دت.
- **الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م)**
* تاريخ بغداد أو مدينة السلام، الجزء التاسع، دار الكتاب العربي، بيروت، دت.
- **ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م)**
* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلدان الرابع والخامس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
- **ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٦م)**
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
- **خواندمير، غياث الدين بن همام الدين (ت٩٤٢هـ/١٥٣٩م)**
* دستور الوزراء، ترجمة وتعليق حربي أمين وفؤاد الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، ١٩٨٠م.
- **الدواداري، عبدالله بن أيبك، (ت بعد ٧٣٦هـ/١٣٣٥م).**
* كنز الدرر وجامع الغرر "الدر المطلوب في أخبار بني أيوب"، الجزء السادس، تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦١م.

- **الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)**
* سير أعلام النبلاء، الجزء الثامن عشر، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤م.
* العبر في خبر من غبر، الجزء الثاني، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.
* تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الأجزاء ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
- **الأربلي، عبد الرحمن بن سنبط بن قنيتو (ت٧١٧هـ/١٣١٧م)**
* خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك، تحقيق مكي السيد جاسم، مكتبة المثنى، بغداد، ط٢، ١٩٦٤م.
- **الأرجاني، ناصح الدين أبو بكر أحمد بن الحسين (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م)**
* ديوان الأرجاني، الجزء الثالث، تحقيق محمد قاسم مصطفى، منشورات وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٩م.
- **الراوندي، محمد بن علي بن سليمان، (ت٦٠١هـ/١٢٠٤م)**
* راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقلة إلى العربية إبراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين، وفؤاد الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م.
- **ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م)**
* ذيل طبقات الحنابلة، الجزءان الأول والثاني، دار المعرفة، بيروت، دط، دت.
- **الأزدي، جمال الدين أبو الحسن علي بن ظافر الخزرجي، (ت٦١٣هـ/١٢١٦م)**
* أخبار الدول المنقطعة -تاريخ الدولة العباسية- تحقيق محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، المدينة المنورة، مكتبة دار المدينة المنورة، ١٩٨٧م.
- **ابن الساعي، علي بن أنجب بن تاج الدين الخازن (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م)**
* نساء الخلفاء المسمى جهات الائمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، دار المعارف، القاهرة، دت.
* الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، الجزء التاسع، تحقيق مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد، ١٩٣٤م.
- **سبط ابن الجوزي، المظفر يوسف بن قزأوغلي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م)**
* مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، القسم الأول، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ١٩٥٢م.

* مرآة الزمان في تاريخ الأعيان (حوادث ٤٤٨-٤٨٠هـ)، الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة، عني بنشره وقابله بأصوله وعلق عليه علي سويم، مطبعة الجمعية التاريخية التركية، أنقرة، ١٩٦٨.

- **السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن الكافي (٧٧١هـ/١٣٦٩م)**

* طبقات الشافعية الكبرى، الأجزاء الثاني والرابع والسابع، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٥م.

- **السلفي، صدر الدين أحمد بن محمد بن أحمد (ت٥٧٦هـ/١١٨٠م)**

* سؤلات الحافظ السلفي لخميس الحوزي عن جماعة من أهل واسط، تحقيق مطاع الطرابيشي، دار الفكر، ١٩٨٣م.

- **السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت٥٦٢هـ/١١٦٧م)**

* الأنساب، الجزءان الثالث والعاشر، تحقيق عبد الرحمن المعلمي اليماني، دن، بيروت، ط٣، ١٩٨٠م.

- **السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١هـ/١٥٠٥م)**

* تاريخ الخلفاء، دار الكتب العلمية، بيروت، دت.

* لب اللباب في تحرير الأنساب، الجزء الأول، تحقيق محمود عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.

- **أبو شامة،شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان المقدسي (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م)**

* الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، دط، ١٨٧٠م.

- **ابن شداد، عز الدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)**

* الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، القسم الخاص في الجزيرة الفراتية، القسم الأول من الجزء الثالث، تحقيق يحيى عبارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨م.

- **الشيرازي، المؤيد في الدين هبة الله بن موسى (ت٤٧٠هـ/١٠٧٧م)**

* سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق عارف تامر، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٣م.

- **الشيرازي، عبد الرحمن بن عبدالله بن نصر بن عبد الرحمن (ت٥٨٥هـ/١١٩٣م)**

* المنهج المسلوك في سياسة الملوك، دراسة وتحقيق، علي عبدالله الموسى، مكتبة المنار، عمان، ١٩٨٧م.

- **الصابيء، غرس النعمة أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن هلال (ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م)**
* الهفوات النادرة الجارية على ألسن المتحفظين والسقطات الآنية من الفارين والغافلين، تحقيق، صالح الأشتر، دن، دم، ١٩٦٧م.
- **الصابيء، هلال بن المحسن (ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م)**
* تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٨م.
* رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م.
- **صرّدرّ، أبو منصور علي بن الفضل (ت٤٦٥هـ/١٠٧٢م)**
* ديوان صردر، دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، ١٩٣٤م.
- **الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)**
* خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء العراق، ٥ أجزاء، تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٥م.
* قسم شعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقي وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٣م.
- **الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م)**
* الوافي بالوفيات، الجزء الأول، باعتناء هلموت ريتر، فرانز شتاينر، فيسبادن، ط٢، ١٩٦٢م.
- **ابن الصلاح، تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٣م)**
* طبقات فقهاء الشافعية، الجزء الأول، هذّبه ورتبه محيى الدين النووي، حققه وعلق عليه محيى الدين علي بن أنجب، دار البشائر الإسلامية، (دم)، (دط)، ١٩٩٢م.
- **الطرطوشي، محمد بن الوليد بن محمد الفهري (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م)**
* سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتي، رياض الريس للكتب والنشر، دم، ١٩٩٠م.
- **ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)**
* الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٦م.
- **الطوسي، نظام الملك، الحسن بن علي بن اسحاق (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م)**
* سياست نامه أو سير الملوك، ترجمة يوسف بكار، دار الثقافة، الدوحة، ط٢، ١٩٧٨م.
- **ابن العبري، جمال الدين بن هارون أبو الفرج الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)**
* تاريخ الزمان، قدم له جان موريس فييه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
* تاريخ مختصر الدول، تصحيح وتعليق أنطوان صالحاني، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٣م.

– **ابن العربي، عبدالله بن محمد بن أحمد الاشبيلي (ت٥٤٣هـ/١١٤٨م)**

* قانون التأويل، دراسة وتحقيق محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

* ترتيب الرحلة للترغيب في الملة، تحقيق عصمت دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت)، نشر في كتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا.

* من رسائل أبي بكر بن العربي، تحقيق عصمت دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت)، نشر في كتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب افريقيا.

– **ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م)**

* بغية الطلب في تاريخ حلب، الأجزاء الثاني والثالث والخامس، تحقيق سهيل زكار، دن، دمشق، دط، ١٩٨٨م.

* زبدة الحلب في تاريخ حلب، الجزء الأول، تحقيق، سامي الدهان، دمشق، ١٩٥٤.

– **العظيمي، محمد بن علي الحلبي (ت٥٥٦هـ/١١٦١م)**

* تاريخ حلب، تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق، دن، دط، ١٩٨٤م.

– **ابن العماد الحنبلي، أبو الفرج عبد الحي (١٠٨٩هـ/١٩٧٨م)**

* شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الخامس، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٩م.

– **ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م)**

* الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، المعهد الهولندي للآثار المصرية والبحوث العربية، ليدن، ١٩٧٠م.

– **عمر بن متى (ت٨هـ/١٤م)**

* أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، روما، دن، دط، ١٩٦٩م.

– **ابن العميد، جرجس بن العميد أبي المكارم (ت بعد٦٧٢هـ/١٢٧٣م)**

* تاريخ المسلمين، ليدن، ١٩٢٥م.

– **العيني، بدر الدين أبو محمد بن أحمد (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)**

* السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

– **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت٥٠٥هـ/١١١١م)**

* التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محمد أحمد دمج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، دط، دم، ١٩٨٧م.

- **الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق، (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م)**
* تاريخ الفارقي أو الدولة المروانية، تحقيق بدوي عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٧٤م.
- **الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد (ت٨٣٢هـ/١٤٣١م)**
* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الجزء الثاني، تحقيق لجنة من كبار العلماء، مكتبة النهضة الحديثة مصر، ١٩٥٦م.
- **أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الافضل الأيوبي (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م).**
* المختصر في أخبار البشر، الجزء الثاني، دن، دم.
* تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه ريفود ومال كوكين، ديسلان، باريس، ١٨٩٠م.
- **ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين الشيباني، (٧٣٢هـ/١٣٣١م)**
* تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، الجزء الرابع، تحقيق مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، دط، ١٩٦٢م.
- **القاضي، محمد بن أبي يعلى، (ت٥٢٦هـ/١١٣١م)**
* طبقات الحنابلة، الجزء الثاني، دار المعرفة، بيروت، دت.
- **القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت٦٤٦هـ/١٢٤٨م)**
* المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، مطبعة الحجاز، دمشق، دط، ١٩٧٥م.
- **القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)**
* صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الأجزاء الرابع والسادس والعاشر، شرح محمد حسين شمس الدين، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م.
* نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
- **ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (٥٥٥هـ/١١٦٠م)**
* تاريخ دمشق المعروف بذيل تاريخ دمشق (٣٦٠-٥٥٥هـ)، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
- **القمي، عباس.**
* الكنى والألقاب، الجزء الثاني، المطبعة الحيدرية، النجف، دط، ١٩٧٠م.

- **ابن الكازروني، ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)**
* مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة الحكومة، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٠م.
* مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، تحقيق كوركيس عواد، وميخائيل عواد، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٢م.
- **الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)**
* عيون التواريخ، الجزء الثاني عشر، تحقيق فيصل السامر وعبد المنعم داود، وزارة الاعلام، العراق، دت.
- **ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر القرشي (ت٧٧٤هـ/١٢٧٣م).**
* البداية والنهاية في التاريخ، الجزء الثاني عشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
- **ماري بن سليمان (ت ٦هـ/١٢م)**
* أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، روما (د.ن)، (د.ط).
- **الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م)**
* الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دراسة رشيد الجميلي، دن، بغداد، ١٩٧٩م.
* قوانين الوزارة وسياسة الملك، دراسة وتحقيق رضوان السيد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٩م.
- **مجهول**
* الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.
- **المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م)**
* اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، الجزء الثاني، تحقيق محمد حلمي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧١م.
* المقفى الكبير، الجزء الثاني، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م.
- **ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/١٣١١م)**
* لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦م.
- **ابن النجار، محب الدين محمد بن محمود بن الحسن البغدادي (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م)**
* ذيل تاريخ بغداد، الجزءان الأول والثاني، صححه وعلق عليه وقدم له قيصر أبو فرح دي فل، وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، حيدر آباد، ١٩٧٨م.

- **الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٧م)**
* تاريخ الأنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، جروس برس، بيروت، ١٩٩٠م.
- **النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)**
* نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، الجزء الثالث والعشرون، تحقيق أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.
- **ابن الهبارية، نظام الدين محمد بن محمد بن صالح العباسي الهاشمي (ت٥٠٤هـ/١١١٠م)**
* ديوان الصادح والباغم، نشره عرب العطار، مصر، ١٩٣٦م.
- **هبة الله، أبي البقاء الحلبي**
* المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية، الجزء الثاني، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، دت.
- **ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ/١٢٩٨م)**
* مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الأول، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم، القاهرة، ١٩٧٢م.
- **ابن الوردي، أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر (ت٧٤٩هـ/١٣٤٩م)**
* تتمة المختصر في اخبار البشر، الجزء الثاني، المطبعة الحيدرية، النجف، ط٢، ١٩٦٩م.
- **اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)**
* مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، الجزء الثالث، منشورات الأعلمي، بيروت، دت.
- **أبو يعلى، محمد بن الحسين بن الفراء الحنبلي (ت٤٥٨هـ/١٠٦٦م)**
* الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه محمد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.
- **ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله محمد بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)**
* معجم البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق مزيد بن عبد العزيز الجنيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.
* معجم الأدباء، الجزء الخامس، تحقيق احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

ب. المراجع الحديثة

١. المراجع العربية

- **أمين، حسين**

العراق في العصر السلجوقي، مطبعة الارشاد، بغداد ١٩٩٥م.

- **الباشا، حسن**

الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، الإسكندرية، ١٩٧٨م.

- **بدري، محمد فهد**

* العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٧م.
* تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٣م.

- **بيطار، أمينة**

* موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دار دمشق، بيروت، ١٩٨٠م.

- **الجميلي، رشيد عبدالله**

* إمارة الموصل في العصر السلجوقي، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٠م.

- **جواد، مصطفى**

* سيدات البلاط العباسي، دار الفكر للجميع، بيروت، دط، دت.

- **حلمي، أحمد كمال الدين**

* السلاجقة في التاريخ والحضارة، مطبعة ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٩٨٦م.

- **حمادة، محمد ماهر**

* الوثائق السياسية والإدارية، سلسلة وثائق الإسلام، (فترة العصر العباسي)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٤م.

- **الخطيب، مصطفى عبد الكريم**

* معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

- **خليل، عماد الدين**

* الإمارات الأرتقية في الشام والجزيرة (٤٦٥هـ-٨١٢هـ/١٠٧٢-١٤٠٩م)، أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.

- **الديوه جي، سعيد**

* تاريخ الموصل، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، دط، ١٩٨٢م.

- **دائرة المعارف الإسلامية**، مج١٣، إعداد وتحرير، إبراهيم زكي خورشيد وآخرين، دار الشعب، القاهرة، دت.

- **الزركلي، خير الدين**
* الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء السابع، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.
- **زكّار، سهيل**
* مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية "دراسة تتناول قيام الإمبراطورية السلجوقية وأحوال الشام والجزيرة عشية الغزو الصليبي، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٥م.
* إمارة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، دت.
- **الزهراني، محمد بن مسفر**
* نظام الوزارة في الدولة العباسية في العهدين البويهي والسلجوقي، (٣٣٤-٥٩٠هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.
- **الشريف، حسن أحمد محمود**
* العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، دمشق، ط٢، ١٩٧٣م.
- **شندب، محمد حسين**
* الحضارة الإسلامية في بغداد (٤٦٧-٥١٢هـ)، دار النفائس، بغداد، دت.
- **الطاهر، علي جواد**
* الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- **الطباخ الحلبي، محمد راغب محمود بن هاشم**
* أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، الجزء الأول، نقحه محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ط٢، ١٩٨٨م.
- **عبد المولى، محمد أحمد**
* بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشام وسياستهم الخارجية مع دولتي الفواطم والروم (٤١٥-٤٧٢هـ/١٠٢٥-١٠٨٠م)، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٨٥م.
- **العسيري، مريزن سعيد**
* الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ١٩٨٧م.
- **المعاضيدي، خاشع**
* دولة بني عقيل في الموصل، مطبعة شفيق، بغداد، ١٩٦٨م.
- **ناجي، عبد الجبار**
* الإمارة المزيدية (٣٨٧-٥٥٨هـ)، دار الطباعة الحديثة، بغداد، ١٩٦٥م.

- **اليوزبكي، توفيق سلطان**
* الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية (١٣٢-٤٤٧هـ) مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، ط٢، ١٩٧٦م.
- **يوسف، ارشيد**
* سلاجقة الشام والجزيرة ما بين (٤٣٥-٥٧٠هـ) دن، عمان، ١٩٨٨م.

٢. المراجع المعرّبة
- **اقبال، عباس**
* الوزارة في عهد السلاجقة، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٤.
- **زامباور، ادوارد فون**
* معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمود، ترجمة سيدة الكاشف وآخرين، مطبوعات جامعة فؤاد الأول، ١٩٥١.
- **فييه، جان موريس**
* أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة حسني زينة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٠م.
- **لسترانج، كي**
* بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- **هنتس، فالتر**
* المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الاردنية، عمان، ١٩٧٠.
- Combe (ET) Sauvaget (J) wiet (G), Repertair Chrologique, D'épigraphie Arab, 15.vol's lecaire, 1931.

مترجم إلى اللغة العربية، تحت إشراف مجموعة من الباحثين.

٣. المراجع الانجليزية
- Klausaer. carla. L; the seljuk Vezirate astudy of civil. apministration. (1055-1194) Distributed for the center for middle eastern stuaties of harvard University, 1973.
- Muir, W, the caliphate its Rise, Decline and fall, London, 1924.
- The Encyclopedid of Islam (E.L) Edited by B. lewis (Dyiar Bakr).

٤. **المقالات والدوريات العربية**

- **أمين، حسين**

* نظام الحكم في العراق في العصر السلجوقي، مجلة سومر، ع٢٠، ١٩٦٤م.

- **بيات، فاضل مهدي**

* السياسة السلجوقية في العراق، مجلة المؤرخ العربي، ع١٨، ١٩٨١م.

- **جواد، مصطفى**

* عميد الدولة بن جهير، مجلة لغة العرب، السنة التاسعة، ١٩٣١.

- **الحسيني، محمد باقر**

* دراسة تحليلية للألقاب الإسلامية، مجلة سومر، وزارة الإعلام العراقية، ج٧، ع١٩٧١،٢م.

- **الخالدي، فاضل**

* الوزارة في العهدين البويهي والسلجوقي، مجلة الأقلام، ج١٠، سنة٣، ١٩٦٨م.

- **عباس، إحسان**

* الجانب السياسي من رحلة أبي بكر بن العربي، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، ج١، سنة ١٦، ١٩٦٣م.

- **محبوبة، عبد الهادي**

* من رسائل نظام الملك الوزير السلجوقي، مجلة معهد المخطوطات العربي، مج٧، ج٢، ١٩٦١م.

٥. **المقالات باللغة الإنجليزية**

- Cahen Clud, The Turkish invasian Selgukids in ahistory of the crusades, Edit, K, M, Setton, London, 1967, v1.

٦. **الرسائل الجامعية**

- الجالودي، عليان عبد الفتاح محمد، تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥-١١٩٣م)، رسالة دكتوراه، مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، ١٩٩٦م.
- عقلة، عصام مصطفى، الخلافة العباسية في ضوء رسائل أمين الدولة، دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه، الجامعة الاردنية، ١٩٩٧م.

ملحق رقم (1)

نسب آل جَهِيْر

جَهِيْر

↓

محمد

↓

فخر الدولة (أبو نصر محمد بن محمد بن جَهِيْر)
(٣٩٨-٤٨٣هـ/١٠٠٧-١٠٩٠م)

↓

عميد الدولة (أبو منصور محمد بن محمد بن محمد بن جهير)
(٤٣٥-٤٩٣هـ/١٠٤٣-١٠٩٩م)

↓

(شرف خاتون ابنة عميدالدولة من زوجته زبيدة بنت نظام الملك)

↓

غرى خاتون (حفيدة عميد الدولة زوجة السلطان السلجوقي مسعود)

زعيم الرؤساء (أبو القاسم علي بن محمد بن محمد بن جَهِيْر)
(ت٥٠٧هـ-١١١٤م)

↓

المظفر (الحسين بن علي بن محمد بن جَهِيْر)
(ت ٥٤٩هـ-١١٥٦م)

الكافي (أبو البركات جَهير بن محمد بن مكمد بن جَهِيْر)
(ت ٤٩٣هـ-١٠٩٩م)

↓

أبو الحسين بن جَهِير بن محمد بن محمد بن جَهِير
(ت بعد ٥٣٤هـ/١١٣٩م)

ملحق رقم (٣)

الوزراء من بني جَهِيْر

الوزير	فترة الوزارة	الخليفة	فترة الحكم
– فخر الدولة، محمد بن محمد بن جَهِيْر	– الوزارة الأولى (٤٥٤–٤٦١هـ/١٠٦٢–١٠٦٨م)	القائم بأمر الله	(٤٢٢–٤٦٧هـ/١٠٣٠–١٠٧٤م)
– فخر الدولة، محمد بن محمد بن جَهِيْر	– الوزارة الثانية (٤٦١–٤٧١هـ/١٠٦٨–١٠٧٨م)	القائم بأمر الله وأقره المقتدي بأمر الله	(٤٦٧–٤٨٧هـ/١٠٧٤–١٠٩٤م)
– عميد الدولة، محمد بن محمد بن محمد بن جَهِيْر	الوزارة الأولى (٤٧١–٤٧٦هـ/١٠٧٨–١٠٨٣م)	المقتدي بأمر الله	
– عميد الدولة، محمد بن محمد بن محمد بن جَهِيْر	الوزارة الثانية (٤٨٤–٤٩٣هـ/١٠٩١–١٠٩٩م)	المقتدي بأمر الله وأقره المستظهر بالله	(٤٨٧–٥١٢هـ/١٠٩٤–١١١٨م)
– زعيم الرؤساء، علي بن محمد بن محمد بن جَهِيْر	الوزارة الأولى (٤٩٦–٥٠٠هـ/١١٠٢–١١٠٦م)	المستظهر بالله	
– زعيم الرؤساء، علي بن محمد بن محمد بن جَهِيْر	الوزارة الثانية (٥٠٢–٥٠٧هـ/١١٠٩–١١١٣م)	المستظهر بالله	
المظفَّر، الحسين بن علي بن جَهِيْر	(٥٣٤–٥٤١هـ/١١٣٩–١١٤٦م)	المقتفي لأمر الله	(٥٣٠–٥٥٥هـ/١١٣٥–١١٦٠م)

ملحق رقم (٣)

النص الوزاري لتعيين فخر الدولة محمد بن محمد بن جَهيْر وزيراً للقائم بأمر الله سنة (٤٦١هـ-١٠٦٨م)(*)

(٢٠ب) أمّا بَعدُ، فالحَمدُ للّهِ المُتَفَرّدِ بالعِزّةِ والجَلالِ والإفضالِ، الحالي بامتداد الظّلال، ذي القُدرَة الجائلة في مَيادين المَضاء، والمَشيئَة الجارية عليها تصاريفُ القدرة والقَضاء، والآلاءِ الرافِلة في حُلل الإشراق، والنعماء الكافلة بتسهيل الأرزاق، الذي أرشد إلى مقاصِدِ الصّلاح وهدى، وحضّ على أفعَالِ الخير وحدا، وَمَنّ من جَميل الصُنع بما حَسُنت أعطافُهُ، وخَفيَتْ فيهِ ألطَافهُ، حمداً يَقْتَرِنُ بوعد المُواظبةِ إنجازهُ، ويتصل بهَواديه في الكَمال أعْجَازهِ.

والحمدُ للّه الذي اصطَفَى محمداً ﷺ للرسالة وانتَجَبَ، وحَباهُ من الكَرامةِ بما اقْتضَى في حُكم منزلتهِ ووجَبَ، وبَعثه على حين فَتْرةٍ من الأنبياءِ، واختلافٍ من الأهواء، دالاً على مَواضع الرشَاد، وداعياً إلى الإستِكثار من الزُلف المُنجية والاحتِشَادِ، فقاتل العَاصِي بالطّائع، وقابل ما أهيب إليه بالتشمير المُنير المَطالع، إلى أن جلّت كلمة الحق وعلت، وذلّت (٢١أ) رقاب الغي وَعَنَتْ، وقد أرضى ربّهُ، وفلّ حَدّ الشرك وَغَرْبَه، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المُنتجبين صلاةً غاديةً رَائحةً، جَامعةً لكُلّ ما تكون شواهدُ التوفيق به بادية لائحة.

والحَمْدُ للهِ الذي أصَارَ إلى أمير المؤمنين من إرثِ النبوة ما هو أحق بالإستيلاء عليه والاحتِواءِ والاعتزاز بظلّه والاحتماء، بوّأهُ من شَرَف الخلافَة مَحَلاً نالت غايات الأنوار أدلته، وآلت إلى مراتب الأقمار أهِلّتُه، وخصّ أيامه النّضرة بكُلّ ما أسْنى أقسام الثناء، وأجنى مَرامَ كلّ مأثرة بطيب المطاوي منها والأثناءِ، ووفّقَهُ في الأفعال الموافقة للصّواب، المذلّلة للصيعاب، لما أضحى كمالاً للسِّير، وأماناً من الحوادث والغِيَرِ، فَما يخلو من مَحامد تجعلنا للأعناق قَلائد، ومقاصدَ تُفضي إلى ما يَشْفَع طوارفَ النُعمَى فيه بالتوالد.

---

* . ابن الموصلايا، رسائل أمين الدولة، خط، ورقة ٢٠ب-٢٣ب، وانظر: العقلة، الخلافة العباسة، ص١٧٥-١٧٨.

ثم إنه رأى من إعادة الصنائع بعد إبدائها وإسناء العوارف عند إسدائها، وتجديد عهود الإحسان وإحيائها، (٢١ب) وإعذاب موارد الإنعام وإجلائها، بمّا يَعتَمد الإستمرار فيه على أكرم شاكلة وأحسن سُنّة، لما ألفَ منه مُضَاهيَةً مشاكلة، ليزدادَ الذكر طيباً، ويغدُو غصن الاصطناع غَضّاً رطيباً، ويَجدو أوفى الرضا ما أُتى بعد الغَضَب، وأزكى منابت النُعمى ما أستُؤنف شُرْبُهُ في أثر ما ذهب منه الماء ونَضَب، وتُوخِّيَ بتَّوفيةِ رسوم الجَمال بذاك ما يتناقل ذكره الرُواة نجداً وغَوْراً، وتتداولِ وصنْفَهُ الألسُن طوراً فَطورا، من غير إجابةٍ لداعى حفيظةٍ، ولا إجالة الرأي في الإخلال بعادة كَرمِ مشهورةٍ مُستفيضة.

ولما اتفق من انفِصَالك يا فخر الدّولة شرفَ الوزراء أباً نصر صفي أمير المؤمنين عن الخدمة، ما كان أمْرُ اللّه فيه قدراً مقدورا، وكان ذلك في الكتاب مَسطورا، وخلاَ مَنصبُ الوزارة ممن يستقر فيه، ويستقل بتدبير الأمر وتُوليه، واتَّضَحَ أنك أولى أكفائه، وأوفى الناهضين بأعبائه، وأحقُّ بإحكام مرائر الصَّنيعَةِ وإحْصَافها، وإسْباغ ظِل العارفة التي تحلُّ أصناف البُشرى بها عِند عدِّها (٢٢أ) وإحصَائها، وبان أن مَأثُرة ذلك الإنحرافَ عنك قد زادك استبصاراً في الخِدمة واستِعْظاماً لقدر ما تجدد لك من ملابس النِعمَة، وأبدى لك حقيقة الأمر فيما يُراد ويُعاف، ويؤمن من عواقبهِ ويُخاف، لتسلم مساعيك من الزَلل، وتعلم فضل العَلَل من موارد الإفضَال بعَد النَّهَل، أعادك إلى خدمته عَوْدَ العَضْبِ من صَقْله، وأعاذك من الأمر الذي خصك به من أسبَابِ إزالته عنك أو نَقْله، وآثر أن يُستأنف من غرسك ما يجتني منه ثمرة رأيهِ الشريف فيك واعتقَاده، ويجتلي فيه أثر إختيَاره وإنتقاده، وَرَأى أن يُضفي عليك جلابيب الرضا، وَيُوفي بمُتجدّد الآنه عندك على مَا مَضَى، فردَّ الحق بك إلى أنصابه، وشَدَّ أزر الخِدمَة منك بمن عرف حُسن ابتدائه لها وانتصابه، وأعطَى القوس منك أصدق بارٍ، واعتَقَ ريَّا الكمَال من كُل مُجار ومُبار، عِلماً بانه لا يَسُدُّ أحَدٌ مسدك، ولا يَبلغُ مداك في (٢٢ب) المناصحة وَحَدَّكَ، وشفع هذا الإنعام بإيصالك إلى بَهيِّ حضرته، وإدنائك من شريف سُدَّته، ومُنَاجاتك بما أعاد من جمالك ما كان شارداً، وأوجدك من ضَوالّ مُناك ما لم تزل لهُ ناشداً، واعتمادك من صنوف التشريفَات التي لم يَحْظَ غيرك بحلاها، ولم يرق إلى شامخ ذراها، بما تَقمَّصْتَ فيه

حُللاً من الفخر رائقة، وتخصصت منه كل حالٍ أضحت بمحلك لائقة، وأن أضافَ إلى سماتك التي سما ذكرك بها وعلا، وزاد قدرك فيها وغلا، مؤيّد الدين إجْلالاً لمكانك، وإحلالاً في مقر من المجد لم يبلغـهُ أحد، وجدد من تجميل ولديك، وتمييز محمّدٍ الأكبر منهما بما اقْتضَاه ارتضاءهُ خِدمته، وانْتِضاؤه منهُ للمناب عنك من استوثق مضاءه ونهضتهُ، حتى علم كَونَهُ مُبرّزاً في الكفاية على اكفائه إلى جَانبِ السّعادة التي استحق به مزيد الاشتمال في أثنائه، وأفردهُ بحَملان من المراكب تنويها لإسمه وإجزالا (٢٣أ) لحظّه من التّشريف وقسمه، ليتضاعف نشاطه فيما هو بصدده، ويترادف من حميد مقاصده ما يشهد له بسلوك منهج الرُّشْد وجَدَدِهِ، فقابل يا مُؤيِّدَ الدين فخر الدّولة شرف الوزراء أبا نصر صَفَي أمير المؤمنين، هذه النعمة الغرّاء بشكر للّه على إنجاح أسبابها وإسماحِ صِعَابها، وإدناء مرامها، وإفراغ مُرادِها، فاعرف قدر ما أُبدي من الإنعام وأُسْدي، واصرف جدَّك إلى سائر ما يرضي ويحظي، واصدف عن كُلّ أمرٍ يُودي إلى الإستزادة ويفضي، وَكُن للّه تعالى مُتقياً، وإلى هضاب العُلى في طاعته مرتقيا، ولما تعرب عنه أوامره مُحتذياً، وبلبان ما يُزلِف لديه مُرتضعاً مُغتذياً، تَحْظَ بالخير وتُصِب، وتحمد العُقبى فيما نيطَ بك وَعُصب، وأحسن السّفارة بين أمير المؤمنين ورعاياه، وانْتَهِ في إحماد السيرة إلى الحد الذي خُوِّلتَ إياهُ، وتجنّب تجاوز أمثلته في قولٍ أو عمل تأمن مَصارع العِثار، وتَغْدُ مقاصدك محمودة الآثار، والله تعالى (٢٣ب) تخير لأمير المؤمنين فيما رآه وأمضاهُ، وأوجَبَهُ عزمه الصّائب واقتضاه، ويُديم إلهامَك مراشدَك بَدْءاً وعَوْداً، ويجعل لك من حسن التوفيق عَضُداً وعَوناً؛ إن شاء الله تعالى.

ملحق رقم (٤)

نص تعيين عميد الدولة بن جَهِيْر وزيراً للخليفة المقتدي بأمر الله سنة (٤٧١هـ-١٠٧٨م)(*)

أما بعدُ، فالحمدُ لله ذي الآلاء الصافية الموارد والنعماء الصادقة الشواهد والطَّول الجامع شمل أسباب المِنَح الشوارد، ذي القدرة المصرّفة على حُكْمها مجاري القدر، والمشيئة الحالية بالنفاذ في حالتي الوِرد والصّدر، المُذل بجميل صنعه أعناق المَصاعب، المُديم بكريم لطفه من امتداد ذوائب النوائب، الذي جل عن إدراك صفاته بعد أو حد، ودلّ بباهر آياته على كونه الفرد الولي بكل شكر وحمد؛ سبحانه وتعالى عما يصفون.

والحمد لله الذي اختص محمداً ﷺ بالرسالة واجتباه، وحباه الكرامة بما أشرق له مطلع الجلال، واختاره وبعثه لإظهار كلمة الحق بعد أن مدّ الضلال رواقه، فلم يزل بإعزاز الشرع قائماً، ولساعات زمانه في طلب رضا الله قاسماً، لا ينحرف عن مقاصد الصواب ولا يميل، ولا يخلي مطايا جده في تقوية الدين مما يتابع فيه الرسيم والذميل، إلى ان أزال عن القلوب صدأ الشكوك وجلا، وأجلى مسعاه عن كل ما أودع نفوس أحلاف الباطل وجلا، ومضى وقد أضاء للإيمان هلال أمن سراره، وانتضى لإبادة الشرك حساماً لا ينبو قط غراره، فصلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المنتخبين، صلاة يتصل الأصيل فيها بالغدو وترى قيمتها في الأجر وافية العلو والغلو.

والحمد لله الذي أصار إلى امير المؤمنين من إرث النبوة ما هو أحق به واولى وأنار له من مطالع العز ما أسدى به كل نعمة وأولى، وأحله من شرف الإمامة بحيث عنت لطاعته أعناق الرقاب الصعاب، وأذعنت له القلوب بالانطواء على الولاء الفسيح الرحاب والشعاب، وجعل أيامه بالنضارة آهلة المغاني، متقابلة أسماؤها في الحسن بالمعاني، فيما يجري فيها غلا ما الصواب في فعله كامن، والحظ بابتهاج سبله كائن، إبانةً عن اقتران الرشد بعزائمه في حالتي العقد والحل واقتراب مرام كل ما يحل من الصلاح في الدهر أفضل المحل.

* القلقشندي، صبح الأعشى،ج١٠،ص٢٤٢-٢٤٦، وقد ورد في الأصل على أنه للوزير فخر الدولة بن جهير.

ثم إنه يرى من إقرار الحقوق في نصابها، وإمرار حبال التوفيق في جانبها من الأطماع الممتدة إلى اغتصابها، ما يعرب عن الاهتداء إلى طرق الرشد، والاقتداء بمن وجد ضالة المراد حين نشد، ويقصد من تجديد العوارف، عند كل عالم بقدرها في الزمان عارف، ما يحلو جنى ثمره في كل أوان، ويحدو انتشار خبره على إعانة كل فكر في وصفه عنوان، فيتناقل الرواة ذكر ذلك غوراً ونجداً، وتلقى الهمم العلية ادّخار الجمال به أنفع من كل قنية وأجدى، استمراراً على شكاله تحلت بالكرم وحلت من الجلال في القلل والقمم، وحلت آثارها في إيلاء نفيس المنح وجزيل القسم.

ولما غدا منصب الوزارة موقوفاً على الذين طالما جزّوا بمهممهم نواصي الخطوب، وحازوا بذممهم المنال في مقاصد استشهدوا بها على إحراز كل فضيلة واستدلوا، وكفوا بكفايتهم أكفّ الفساد وردوا، وحازوا الفعال في كل ما سعوا له وجدّوا، وخلا الزمانُ ممن ينهض بعبء هذا الأمر الجسيم، وتُصبح أنباؤه فيه ذكيّة الأرج والنسيم -لم يبقَ غيرك ممن يستحق التخييم في عراصه، والتحكيم في اجتناء الفخر منه واستخلاصه، وكان القدر سبق بانفصالك عن الخدمة لا لضعف سَريره ولا لقوة جَريره، ولا لكدر سيرة، وكيف وأنت المتفرد بالكمال، والمتجرد في كل مقام سلم حدّ تقرّبك فيه من حادث الكلال، ولك في الدولة الحقوق التي اعتدت لك من وقع الاستزادة مجناً، والمواقف التي اغتذت من درة الإحماد بما أيّن الظئر لها وأنا، والمقاصد التي أعدمت منك البدل، ولا انحرف لك منها مسعى عن مناهج الإصابة ولا عدل، وتمكنت فيها من عنان التوفيق بما لا يجارى سيفك فيه قط ولا يحسن له حال المسرى إليه المحط؛ والآثار التي أثارت من كوامن الرضا أفضل ما يذخر ويقتنى، وأنارت من دلائل الزلفى ما ينتجز به وعد المنى ويقتضى؛ لكن كان ذلك مسطوراً في الكتاب، وليتبين أنه لا عوض عنك في الاستحقاق للأمر والاستيجاب، لم يوجد لهذه الرتبة كفؤاً سواك، ولا ينزهها عن العطل غير رائق حلاك، فرأى أمير المؤمنين تسليم مقاليدها إليك إذ كنت أحق بها وأهلها، وممن يجمع بعد الشتات شملها، فطوقك من قلائدها ما بأعطافك ألصق، وبتمام أوصافك أليق: لتدرع من عز الوزارة جلباباً لا تخلق الايام له جدة، ولا تزال السعود بما يؤول إلى دوام مدته

ممتدة، وترتضع من لبان خلالها ما يقضي لك لان تقف نفسها عليك، وتقف آمال الأمثال دون ما انتهت الغاية فيه إليك، وتعتمد فيما عدقه بك منها وناطه، ووفاك فيه حقوق النظر واشتراطه، بحكم توحدت في إحراز أدواتها التي لا يبلغ أحد لك منها مدى، ولم يمد طامع إلى مساجلتك فيها يدا – ما يرضي الله تعالى ويرضيه، ويخص ذكرك بالطيب ويحيطه فتفوز فوزاً كبيراً، وتعيد الساعي في إدراك شأوك ظالعاً حسيراً.

ثم إنه شفع هذه المِحنة التي قمّصك مجاسد فخرها بالوجوب، وعوّضك فيها الدهر بحادث البشر عن سابق القطوب – بإيصالك إلى حضرته، وإدنائك من سدته، ومناجاتك بما يتيح لك امتطاء غارب المجد وصهوته، والاحتواء على خالص السعد وصفوته، وحبائك من صنوف التشريفات التي تروق حلي خلالها، وتتوق الآمال إلى إدراكها ومنالها. وصفت الكرامات التي وفت المنى بها بعد مطالبها، ونفت القذى عن مقل مغموضة بسوء فعال الأيام ومقالها، بما يوطيء عقبك الرجال، ويضيّق على من يحاول مجاراتك المسرح والمجال؛ ولم يقتنع بذلك في حق النعمى التي أعداك فيها على الغير، وأغداك منها في ظل من الأمن البادي الأوضاح والغرر، حتى ألحق بسماتك "تاج الوزراء" تنويهاً بذكرك في الزمان وتنبيهاً على اختصاصك لديه بوجاهة الرتبة والمكان، فصار مكروه الأمور في محبوبها سببا، وخبت نار كل من سعى في تضليل النظام وجيفاً وخبباً، حتى الآملون أن يجعلوا تخت الخلافة زمناً، وتصبح رباعه بعد النضارة دمناً، ليعقبهم ذاك نيل ما وصلت إليه الإمضاء لهذا لعزم. وبالجملة فالسّامة واقعة من تتابع هذه الشكاوى، وقد كان الأحب أن لا يضمن الكتب النافذة سوى تعهد الأنباء، لا زال عرفها أرجاً من سائر الأرجاء والنواحي. لكن تأتي مجاري الأقدار، ودواعي الاضطرار إلى ما يُرنق ماء الإرادة والإيثار، والآن فقد بلغ الماء، وجلب من عدم الصبر الحناء، ولم يبق غير هزة دينية منك تكشيف بها هذه المعرة، وتتحف منها أمير المؤمنين بما يتم لديه اكمل المسرة؛ فقم في ذلك مقام مثلك– وإن كان لا نظير لك يوجد – تحظ بما يمضي لك فيه استحقاق كلّ الحمد ويوجب إن شاء الله تعالى.